الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية
Faculté des sciences humaines et de la civilisation islamique
www.univ-oran.dz
جامعة وهران
Université d'Oran

قسم الحضارة الإسلامية

حاضرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث

1500- 1900م

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية

إعداد الطالب :   إشراف الأستاذ:

أحمد بحري   أ. د محمد بن معمر

أعضاء لجنة المناقشة :

أ.د بوعلام بلقاسمي	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة وهران
أ.د بن معمر محمد	أستاذ التعليم العالي	مقررا	جامعة وهران
أ.د بن نعمية عبد المجيد	أستاذ التعليم العالي	مناقشا	جامعة وهران
أ.د مختار حساني	أستاذ التعليم العالي	مناقشا	جامعة الجزائر-2-
أ.د عبدلي لخضر	أستاذ التعليم العالي	مناقشا	جامعة تلمسان
د .بلبشير عمر	أستاذ محاضر	مناقشا	جامعة معسكر

السنة الجامعية : 2012 – 2013 م

بسم الله الرحمن الرحيم

قبس

قال الشاعر جلول البدوي :

أذكر مازونة واعرف قدر ما اشتملت عليه من خير ما ينويه مرتاد

مدينة جال فيها العلم جولتـه إذ عاش فيها من الأعلام أطواد

وقال عبد القادر المشرفي يمدح قاضي مازونة الصادقالحميسي :

مازونة خير القرى وأهلها خير أناس

لم تلق فيهم جنينا إلا كريما أو مواس

لا سيما قاض بها حاز الفخار والتراس

العلم صار طبعه والمجد خبر لايقاس

أكرم به من عالم سما بفكر ودراس

ضاهى بفقه مالكا ولغة أبا نواس

الإهداء

إلى روح أمي مريم التي بذلت جهدها في تربيتينا وفارقتنا وكلنا عنها راض

إلى الحاج الجيلالي الذي يدعو الله بعد كل صلاة أن يطيل عمره حتى يرى ولده دكتورا

إلى والدتي التي لم يمنعها المرض من الانشغال بهمومنا أكثر منا

إلى الزوجة التي صبرت على مكاره البحث ومشاغل العمل واجتهدت في توفير الجو المساعد على إعداد هذا البحث

إلى كل من اهتم بموضوع هذا العمل من قريب أو بعيد

شكر وعرفان

أتوجه بالشكر الجزيل بداية إلى السيد عبد القادر كحلوش رئيس جمعية الظهرة على ما قدمه لي من وثائق لخدمة البحث وإلى الأخ الفاضل عابد فكرات على طول صبره واحتماله السهر لكتابة البحث على الحاسوب

كما لا أنسى التنويه بدور أساتذتي الأفاضل وعلى رأسهم السيد العميد دحو فغرور والشيخ عبد المجيد بن نعمية أبو الجميع والأستاذ بوعلام بلقاسمي صاحب النصائح الذهبية والأستاذ الجيلالي سلطاني المبتلى الصابر إن شاء الله وإلى كافة أساتذة قسمي العلوم الإسلامية والحضارة الإسلامية الذين لم يبخلوا بالنصح والتحفيز طول مدة البحث خاصة شوالين محمد سنوسي " مرحبا " وفريق الرصد والتصوير الحمدي أحمد وبوركبة محمد وعبد الغفار بن نعمية وصافي حبيب " مصطفى الريح " ولعباسي محمد زعيم البربر وبقية الإخوة الدين قد لايتسع المقام لذكرهم كلهم لكن دعمهم لي باستمرار قد لايكفيه اعتراف بسيط على مثل هذه الورقات لكن الله الذي لاتخفى عليه خافية سيحفظه لهم عنده ويجزيهم به خيرا من أي اعتراف مني .

وإلى كل الذين ساهموا بالقليل أو الكثير لإنجاح هذا العمل أتقدم بكل عبارات الامتنان والشكر .

شكر خاص

إلى صاحب الأفضال التي لم تنقطع عني منذ كنت في الماجستير ولم يكن حينئذ مشرفا علي لكنه بذل كل الجهد لمساعدتي على المناقشة .

وها هو اليوم يصبر على تقصيري ويوجه النصيحة تلو الأخرى في مجال البحث وفي الحياة فلا يسعني إلا أن أسأل له الله أن يجزيه عني أجر الصحبة والزمالة والأبوة العلمية والأخوة الصادقة فإنه خير من يجزي عبدا عن حسن صنيعه فإن اعترافي وشكري مهما عَظُما لن يفياه حقه

كل الحب والتقدير والامتنان للأستاذ الدكتور محمد بن معمر

المقدمة

لم يحظ تاريخ أغلب المدن الجزائرية خلال العهد العثماني بالقدر الذي حظيت به الجزائر العاصمة ، لوضعها الخاص ، بسبب الأحداث التاريخية التي عرفتها ، والتي مردّها إلى المواجهة المستمرة طول عهد العثمانيين ، وعناية الكتابات الغربية بها ؛ على اختلاف الأقلام التي كتبتها ، من قناصل وأسرى وجواسيس ورهبان ؛ تكفّلوا بعملية الفداء وغيرهم .

إن مدينة وهران هي الأخرى ؛ عَرَفت بعض الاهتمام المرتبط بالوجود الإسباني فيها وحرصَ العثمانيين في الجزائر على استردادها ، ومقاومة الاسبان الذين اعتنوا بتقييد كل صغيرة وكبيرة عن يومياتهم التي عايشوها في هذه المدينة .

وأما قسنطينة والمدية – عاصمتي بايليكي الشرق والتيطري – ؛ فكان لهما نصيبهما من التوثيق ، المتمثل فيما حوته السجلاتٍ الرسمية ، إضافة إلى بعض ما قيّده أصحاب التراجم حول أعلام بعض المدن ، مثل الغبريني في عنوان الدراية حول أعلام مدينة بجاية ، أو البوني حول أعلام عنابة ، أو ابن مريم في البستان حول علماء وصلحاء تلمسان ... وهو قليل جدا.

أمّا باقي المدن الجزائرية ؛ فإنّ البحث في تاريخها السياسي تعترضه عدة صعوبات ، منها ندرة الوثائق ، أمّا إذا بحثنا حول تاريخها الحضاري ؛ فالمهمة أصعب ، ذلك أن الكتابات التاريخية المحلية – إن وجدت – لا تهتم بهذه الجوانب، بل تكتفي برصد الأحداث السياسية والأحداث الكبرى فقط ، التي ارتبطت غالبا بحياة الزعماء السياسيين ، أو بعض العلماء والصالحين .

أمّا ما عدا ذلك ؛ فلا اهتمام به ولا رصد لجزئياته ، إلا ما جاء عارضا في سياق الحديث ، وعلى الباحث اليوم أن يستغلّ هذه الشذرات العارضة ، ويحاول الربط بينها ؛ عَلَّهُ يحصل من ذلك على طائل .

ومن أجل ملء هذا الفراغ جاء موضوع هذا البحث ، المتعلّق بدراسة تاريخية وحضارية ، لحاضرة مازونة في العصر الحديث 1500 – 1900م . فالمدينة كانت عاصمة لبايليك الغرب الجزائري في العهد العثماني ، وكانت مهدا لميلاد مدرسة فقهية مالكية شهيرة ، جعلت بعض من كتبوا في التراجم والسيّر يعتبرونها بلد الفقه في الجزائر ، بل في المغرب الإسلامي ككل .

إنّ ظهور هذه المدرسة الفقهية قد شدّ الركبان إليها ، فقد لعبت دورا هاما في إنتاج العديد من الفاعلين الاجتماعيين في الثقافة والسياسة ، إضافة إلى إنتاج الشخصية الحضارية للمدينة ، وشكّلت خلال فترة زمنية طويلة من وجودها فضاءً تعليميا ساهم في الحفاظ على التراث الثقافي الديني ، الذي يتضمّن المقوّمات الأساسية للهوية الدينية والوطنية ، إضافة إلى أنّ استمرارها مثّل شكلا من أشكال المقاومة ضد الوجود الإسباني في وهران ، ثم ضد الاستعمار الفرنسي بعد خمود نار المقاومة الشعبية المسلحة .

هذه الظاهرة دفعتني للبحث والتحقيق حول تاريخ المدينة الحضاري ، والدور الثقافي للمدرسة الفقهية ، محاولا إماطة اللّثام – ولو جزئيا – عن الدور الحضاري لهذا الفضاء التعليمي ، وعن الأعلام الذين زخرت بهم المدينة أو الذين مرّوا بها وتتلمذوا

في مدرستها ، قادمين إليها من مختلف جهات المغرب الإسلامي ، أو الذين تبادلوا المراسلات مع علمائها طلبا للفتيا أو للإجازة .

وتتمحور الإشكالية التي ينبني عليها الموضوع حول العناصر التالية :

- عدم تناسب الموقع والمكانة السياسية والعلمية للمدينة مع العناية التوثيقية التي حظيت بها .
- هل فعلا كانت مازونة بهذه المكانة ، التي تسمح بأداء دور حضاري ؟ أم أنّ خلو المرحلة التاريخية من فعل حضاري ، بعد أُفول نجم تلمسان عاصمة الزيّانيين ، واكتفاء مدينة الجزائر بالدور السياسي في مواجهة الخطر الإسباني – الذي هدد السواحل المغاربية كلها – ، هو الذي فسح المجال أمامها لملء الفراغ الحاصل من جراء ذلك ؟

وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع جملةٌ من الدوافع منها :

1. بحكم ارتباطي بتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية ، الذي ترسّخ منذ الماجستير، ولعراقة تاريخ المدينة الثقافي ، مقابل ما يكتنفه من الغموض ، خصوصا وأنه حبيس الروايات الشفوية ؛ عزمتُ أن أبحث في دور هذه المدينة الحضاري ، ومساهمتها في ثقافة هذه الأيالة العثمانية ، خاصة أن العثمانيين متّهَمون بأنهم لم يهتموا بغير الدور العسكري .

2. الإهمال شبه الكلي للجانب الثقافي التعليمي ، الذي تقع فيه أغلب الدراسات ، التي تبحث حول تاريخ المجتمع الكلي ، أو مدينة مازونة بصفة خاصة .
3. محاولة البحث عن ما وراء التاريخ السياسي للمدينة ، من طبقات اجتماعية وعادات وتقاليد حكمت يوميات المجتمع المازوني ، ومن آفات نخرت في عراه ، ثم الدور الاقتصادي لهذه المدينة ؛ من خيرات طبيعية تنتجها أراضيها الخصبة ، ومنتوج حرفي تتقنه أنامل نسائها وصنّاعها ، وعروض تجارية تساهم بها أسواقُها ، في التبادل مع غيرها من كبريات الحواضر في ذلك الزمن .

ولأجل تحقيق أهداف البحث ؛ اعتمدت المنهج الاستقصائي التحليلي ، فأمّا الأول فتمثل في تتبع ما كتب حول المدينة وتاريخها . وأمّا الثاني فتجلى في تحليل ما استقصيته من مادة تاريخية ، مدعما ذلك بدراسات لكثير من الظهائر الخاصة ببعض العائلات المازونية .

كما أنّ ندرة المادة التوثيقية المتعلقة ببعض جزئيات البحث ؛ خاصة ما تعلّق بتفاصيل التاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي ؛ فرضت في الكثير من الأحيان الاعتماد على ما كتب حول تاريخ الجزائر عامة ، أو بعض مدنها خاصة في بايليك الغرب ، ثم استنتاج حالة مازونة بالنظر إلى أنّ أغلب المدن في ذلك الزمن كانت محكومة بأوضاع متشابهة نسبيا .

إنّ العامل الزمني – هو الآخر – وظّف لخدمة مجالات البحث قليلة التوثيق ، إذ اعتمدت الكتابات حول مازونة في بداية الفترة الاستعمارية ، التي كتبها القادة العسكريون ، أو بعض أعوان المكتب العربي لتغطية المرحلة الأخيرة للعهد العثماني؛ خاصة فيما يتعلق بالعادات الاجتماعية ، أو الظواهر الاقتصادية ، لأنّها لا تتغير بسرعة ، وبالتالي يمكن اعتبار ما لاحظه وكتبه أوائل المستعمرين ؛ صالحا لوصف المرحلة التي سبقتهم .

نقص المادة التاريخية حول مدينة مازونة ؛ جعل أغلب من كتب حولها من المحدثين عالة على كتابي لوكيل يوسف ومولاي بلحميسي ؛ وهما من أبناء المدينة ، وخير من يكتب عنها .

فالأول رجل أدب مفوّه ، كتب باللسان الفرنسي ، ورغم صغر حجم كتابه المعنون بـ : مازونة عاصمة الظهرة القديمة ، والذي لم يتعدّ خمسين صفحة ، تناولت ثلاث وعشرون منها الشّقّ التاريخي ، والباقي أدبيات في التغني بمحاسن المدينة ، وعادات أهلها ، إلا أنّ قيمته التاريخية كبيرة جدّا ، لانفراده بذكر جزئيات لم يحصها غيره ، جعلت كل من يكتب حول المدينة مجبرا على العودة إليه .

وأما الثاني ؛ فزيادة على كونه ابن المدينة ، وسليل أسرة مازونية علمية ؛ فهو مؤرخ حصيف ، تخرّج على يده باحثون كثر ، وأخرج للمكتبة العلمية التاريخية عددا من الكتب حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر باللغتين العربية والفرنسية ؛ منها كتابه بالفرنسية حول مازونة الموسوم بـ : مازونة مدينة صغيرة ، وتاريخ كبير .

مجموعة الظهائر التي كتبها بايات الغرب ، ودايات الجزائر إلى علماء وفقهاء عائلة الكتروسي ؛ هي الأخرى تحمل مادة تاريخية ذات أهمية بالغة ، لكن ضياع بعضها ، والحالة السيّئة للبعض الآخر ضيّعت على الباحثين فرصة سانحة لتغطية مساحات شاسعة من تاريخ المدينة ، أهملتها المصادر التاريخية القليلة الموجودة .

ويعود الفضل للسيد عبد القادر كحلوش رئيس جمعية الظهرة بمازونة للحفاظ على ما بقي من هذه الظهائر ، ولإمداد الباحثين الراغبين في الكتابة حول مازونة بكل ما استطاعت هذه الجمعية رصده حول تاريخ المدينة .

ومع الأسف الشديد ؛ ليس هذا حال كل من لهم موروث وثائقي حول تاريخ المدينة ، فرغم الزيارات المتكررة للمدينة ، والعائلات التي ورثت المادة التوثيقية التي كانت بالمدرسة الفقهية ، وانتهاج جميع السبل للحصول على هذه المادة ، أو على الأقل التيقن من انعدامها ؛ لم أحصل على طائل .

وبالرجوع إلى الأرشيف العثماني بمدينة إسطمبول ، ورغم الزيارات المتكررة ؛ لم أستطع الحصول على ما يغطي النقص الفادح في المادة الثوثيقية ، إذ واجهتني هناك جملة من العراقيل أذكر منها :

1. اهتمام القائمين على الأرشيف بما له علاقة بتاريخ تركيا ، أكثر من أيّ جهة أخرى من أيالات الدولة العثمانية .
2. صعوبة الإجراءات الإدارية لاستخراج بطاقة استعمال الأرشيف ، بحيث تُسأل عن كل صغيرة وكبيرة .

3. كل أجهزة البحث الموجودة تعمل باللغة التركية ، وليس هناك أي طريقة للعمل عليها بأيّ لغة غيرها .
4. كل الأرشفة منظمة باللغة التركية الحديثة .
5. اغلب الوثائق المعروضة مكتوبة باللغة العصمنلية ، لا التركية ولا العربية ، مع عدم وجود من يشرح لك الوثيقة إلاّ التي وضع لها ملخص بالتركية .
6. عند وجود وثيقة تثير اهتمام الباحث لا يحصل عليها في الحين ، ولكنه يطلبها من الحاسوب ليجد صورة لها فيه بعد يوم أو يومين . وليست كل الوثائق معروضة تعرض على الحاسوب .
7. تم طبع كتاب حول بعض الوثائق الجزائرية الموجودة بالأرشيف ، لكن عيبه أنه باللغة التركية ولم يحصر جميع الوثائق .

خطة البحث :

قسمت البحث إلى أربعة فصول ، كان الأول بعنوان التاريخ السياسي لمازونة وتناولت فيه : أصل تسمية المدينة ، ومختلف النظريات في ذلك ، ثم تاريخ نشأتها واختلاف المؤرِّخين حوله ، وبعد ذلك درجت مع مختلف المراحل التي مرّت بها المدينة من النشأة إلى دخول الاستعمار الفرنسي .

وفي الفصل الثاني ؛ الذي عنونته بالتاريخ الاجتماعي ، فتحدثت عن الطبقات الاجتماعية في المدينة وفي فحصها ، ثم عن العادات التي حكمت سكّانها ، ووضع المرأة فيها ، وأخيرا بعض الآفات التي عكّرت صفوها.

أمّا الفصل الثالث ؛ والذي عنوانه : التاريخ الاقتصادي للمدينة ، ففيه حديث حول الزراعة في مازونة والصناعة والحرف ، ثم التجارة والأسواق وحركة الطرق التجارية التي تمر عبر المدينة ، وأخيرا موارد الخزينة التي توفّرها الضرائب التي فرضها البايليك على سكان المدينة وريفها .

آخر الفصول وعنوانه : التاريخ الثقافي ، وفيه تناولت وضع العلوم والتعليم ، ثم المؤسسات العلمية ؛ ومنها مدرسة مازونة الفقهية الشهيرة ، وأخيرا أعلام المدينة الذين رفعوا اسمها في الآفاق .

الفصل الأول :

التاريخ السياسي

لمازونة

المبحث الأول : الموقع وأصل التسمية

المبحث الثاني : مازونة من النشأة إلى دخول العثمانيين

المبحث الثالث : مازونة في العهد العثماني .

المبحث الرابع: مازونة بعد دخول الفرنسيين .

الموقع وأصل التسمية .

دأب الذين كتبوا عن مدينة مازونة – فيما سبق – ؛ مثل لوكيل يوسف ، وبلحميسي ، ومن نقل عنهما [1] ؛ أن يبدؤوا الحديث عن المدينة بتحديد موقعها الجغرافي ، ثم الولوج إلى تاريخها ، مقسّمين هذا التاريخ إلى المرحلة البربرية ، فالعربية (الإسلامية) ، فالعثمانية ، وأخيرا المرحلة الاستعمارية .

واحتراما لنفس القاعدة ؛ ستكون البداية بتحديد الموقع الجغرافي ، كما حدّده من كتبوا عن المدينة قديما نقلا عن مروياتهم ، وليس كما تحدّده الجغرافيا الحديثة ، ثم أصل تسمية المدينة ، واختلاف الروايات حولها ، وبعد هذا يأتي ذكر المدينة في المرويات التاريخية .

كل ذلك لمعرفة بدايات المدينة ، وأثرها التاريخي والحضاري

[1] نقل عنهما أغلب من كتب عن مازونة ؛ مثل الجيلالي صاري في كتابه les villes precoloniales ، والطاهر جنان في كتابه : مازونة عاصمة الظهرة .

الموقع الجغرافي للمدينة:

يصف السيد لوكيل يوسف موقع منطقة الظهرة أو جبال الظهرة ، بأنها لا تشبه بتاتا جبال الشمال الإفريقي في خصائصها ، ثم يحدّدها بالبحر الأبيض المتوسط شمالا ، وجبل زكار [1] من الشرق ، ومن الجنوب والغرب بسهل الشلف الفسيح ، ثم يسترسل في وصفه مبرزا أهم الخصائص الجغرافية التي عايشها ولاحظها كونه ابن المنطقة فيقول : " وإقليم الظهرة إقليم جبلي ، تتخلله مجاري مائية لكثرة منابع الماء فيه ، ولكن من دون أن تصل هذه المجاري إلى تشكيل وديان ذات أهمية " [2].

وإذا كان الوجه المطل على سهل الشلف خاليا من الغطاء النباتي ؛ فإنه في جهة البحر تغطيه أشجار غابية متنوعة ، أهمها الصنوبر والبلوط ، كما لا يخلو من الأشجار المثمرة الأخرى ، وبه مساحات مزروعة كبيرة ، جعلت منه خزان قمح للجنوب والسهوب سنين عديدة [3] .

ولعل هذه الوفرة النباتية هي ما جعلت أهله قليلي الترحال ، لعدم حاجتهم إلى وسائل العيش من كثرة ما توفره منتوجات بلادهم الزراعية [4].

وقد سبق الإدريسي [1] لوكيل يوسف إلى هذا الوصف ؛ إذ يقول : "... ويلي حوض فروح في البر مع الشرق مدينة مازونة . ومدينة مازونة على ستة أميال من

---

[1] يقع جبل زكار في الغر ب الجزائري ويفصل بين سلسلتي جبال الظهرة وجبال الونشريس

[2] Y. Loukil , Mazouna ancienne capitale du Dahra Alger : imprimerie algérienne 1912 , p : 11

[3] Ibid , p :11

[4] Ibid , p :11

البحر وهي مدينة بين أجبل وهي أسفل خندق ولها أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مونقة ، ولسوقها يوم معلوم ، يجتمع إليه أصناف من البربر ، بضروب من الفواكه والألبان والسمن ، والعسل كثير بها ، وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصبا " [2].

وبالعودة إلى لوكيل يوسف نجده يحدد موقعها على بعد 35 كلم من البحر الأبيض المتوسط ، وبـ : 22 كلم عن محطة عين كرمان [3] ، على هضبة ضيّقة ، تفصلها عن محيطها وديان عميقة من كل الجهات عدا من جهة الشمال [4].

ويتطرق – مولاي بلحميسي هو الآخر في مقدمة كتابه عن مازونة – إلى هذه الجغرافيا ، لكنه قبل أن يذكر مازونة يتكلم عن منطقة الظهرة عموما ، ويشرح معنى كلمة الظهرة [5] ، ثم يستعمل نفس أوصاف لوكيل يوسف وبعض

---

[1] هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدْرِيسي الحسني الطالبي ، أبو عبد الله : مؤرخ ، من أكابر العلماء بالجغرافية . من أدارسة المغرب الأقصى ، ولد في سبتة سنة: 560هـ - 1100م ، ونشأ وتعلم بقرطبة . ورحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلّيّة ، فنزل على صاحبها روجار الثاني (Roger II) ووضع له كتابا سماه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أكمله سنة 548 هـ . وللإدريسي أيضا (الجامع لصفات أشتات النبات) ، و (روض الأنس ونزهة النفس) ، و(أنس المهج وروض الفرج) . ويرجح أن وفاته في سبتة سنة : 493 هـ - 1165 م .

ينظر : خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، ط : 15 ، 2002م ، ج : 7 ، ص : 24 .

[2] الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، عالم الكتب ، بيروت ، ط 1 ، 1409 هـ، ج : 1 ، ص : 271 . وينظر أيضا : وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ، تصحيح ونشر هنري بيريس ، دار الكتب، الجزائر ، 1957 م ، ص : 72 .

[3] تعرف الآن باسم واد رهيو نسبة إلى الواد الذي يمر بها وهي أكبر دوائر ولاية غليزان .

[4] Y. Loukil , op cit , p:12

[5] الظهرة حسب بلحميسي كلمة مشتقة من الظهر أو السنام ، وتعني كذلك الشمال أي عكس القبلة التي تعني الجنوب . ينظر :

محدداته ، بل يقتطع فقرة كاملة وينقلها نقلا حرفيا في سياق وصفه للتضاريس المحيطة بالمدينة والطرق الرئيسية المارة بها والحدائق والبساتين المختلفة الغلات المتوزعة على جنباتها [1] .

ثم ينقل بعد ذلك جملة من الأوصاف ؛ لا تكاد تختلف عما ذكره لوكيل يوسف [2] ، لكن على لسان مجموعة من الكتّاب الأوربيين ، منهم بياس الذي وصف الشلال في مدخل المدينة ، وفلورانشي الذي يصف الأشجار المثمرة العديدة ، وريتشارد الذي يموقعها على ضفاف وادي واريزان .

أما الطبيب الإنجليزي طوماس شاو ؛ فإنّه حدد موقعها في كتابه المفصل حول تاريخ وجغرافية أيالة الجزائر بقوله : " تقع مدينة مازونة على بعد مرحلة شمال نهر شلف ، في سفح سلسلة جبلية تبتدئ غرب بلاد بني زروال ، وتسير بالتوازي مع نهر شلف حتى تصل إلى مدينة المدية ... " [3] .

Moulay Belhamissi , Mazouna une petite ville une longue histoire , sned : Alger , 1981, p : 12

[1] ibid , p : 13 .

[2] Ibid , pp : 17 _ 18

[3] Shaw Thomas , Voyage dans La Regence d'Alger , ou Description Geographique , Physique , Philologique , etc de cet Etat , trad de l'anglais par , J . Mac Carthy , ed : Marlin , Paris , 1830 , pp : 252 – 253 .

تأسيس المدينة وأصل تسميتها :

في غياب مادة تاريخية موثقة عن مازونة ، وفي انتظار أن يكشف التنقيب الأثري عن أدلة أكيدة ، تثبت تاريخ ونسبة تأسيس المدينة ؛ يبقى الباحث مجبرا على حصر ورصد النظريات المقدّمة ، ولكن دون سند علمي يُميل الكفة لصالح واحدة من هذه النظريات .

فدابر ومارمول يجعلانها مدينة رومانية ؛ استنادا إلى وجود بعض الآثار الرومانية واللوحات المنقوشة بها .

ولكن الرحّالة الانجليزي الدكتور شاو يخالف هذا الرأي ويعلّق عليه ؛ بحجة خلو المدينة من أيّ آثار لعمائر أو أطلال رومانية داخلها ، ونسبها إلى الأهالي باعتبار أن بنيانها شبيه بالقلعة [1] ؛ إذ أن تشابه البنيان دليل على وحدة الباني حسب رأيه فيقول : " ... ويبدو أن هذه المدينة قد بنيت مكن قبل الأهالي ، على أساس أن بناءها يشبه مدينة القلعة ، كما أنها لا تحتوي على أي آثار لمعبد أو بناء روماني ، خلاف ما يرى دابر ومارمول ...

[1] هي قلعة بني راشد التي تأسست على يد بني راشد بن محمد ، من بطون مغراوة ، حوالي القرن السادس للهجرة ، بأمر من رئيسهم الإسحاقي من ذرية أبي إسحاق إبراهيم بن عمران الراشدي ، وبظهورها خربت البطحاء فاستوطنها من أهلها خلق كثير من فليتة وبني غدو وسجرارة وبعض قبائل هوارة الذين تحمل إسمهم في بعض الروايات التاريخية . ينظر : محمد بوركبة ، جوانب من مخطوط قلعة بني راشد للشيخ أبي عمران القلعي ، (المجلة الجزائرية للمخطوطات)، العدد 1 ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر ، سيدي بلعباس ، 2003م ، ص ص : 110 – 111 .

أما المنطقة الواقعة شمال مازونة وبلاد بني زروال حتى جبل الديس ؛ فتعرف بمغراوة ، نسبة لقبيلة مشهورة في تاريخ المنطقة ، ومازالت تحكم جزءا من هذه البلاد إلى اليوم ... " [1] .

وأما ابن خلدون ؛ فله تفصيل آخر حول نسبة هذه المدينة ، فهو يرجع تأسيسها إلى عبد الرحمان شيخ قبيلة مغراوة [2] وأولاده ؛ إذ يقول : " وأسلمها لعبد الرحمن ... (وكان له من الولد) منديل وتميم ، وكان أكبرهما منديل ، فقام بأمر قومه على حين عصفت رياح الفتنة، وسما لمنديل أمل في التغلّب على ما يليه...

(ونقل الإخباريون) أنّ أهل متيجة – لذلك العهد – كانوا يجمعون في ثلاثين مصرا، فجاس خلالها وأوطأ الغارات ساحتها ، وخرّب عمرانها ، حتى تركها خاوية على عروشها ... ثم غلبهم بنو توجين على جبل الونشريس وضواحي المريّة وما إلى ذلك .

---

[1] Shaw Thomas , op cit , p : 253 .

[2] مغراوة من أوسع بطون زناتة ، وهم أهل الباس والغلب منهم ، نسبهم إلى مغراو بن يصلتين بن مسر بن زاكيا بن ورسيك بن ألديرت بن جانا ؛ إخوة بني يفرن وبني يرنيان ... ، وأمّا شعوبهم وبطونهم فكثير ؛ مثل بني يلبث وبني زنداك وبني رواو ورتزمير وبني أبي سعيد وبني ورميغان والأغواط وبني ريغة وغيرهم ... وكانت محلاّتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مدبولة وما إليها .

ينظر : عبد الرحمن ابن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، تحقيق: خليل شحادة ، ط 2 ، دار الفكر، بيروت ، 1408 هـ – 1988 م ، ج : 7 ، ص : 33 .

وانقبضوا إلى مراكزهم الأوّل شلف ، وأقاموا فيها ملكا بدويا ، لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط . واستولى على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال ... مقيمين فيها الدعوة الحفصيّة ، واختطوا [1] قرية مازونة " [2] .

وحسب هذا الرأي ؛ فالمدينة بنيت مع نهاية عهد الموحدين أو قريبا من ذلك، وليست قديمة كما زعم من نسبها إلى الرومان ، أو أنّ المدينة بنيت حديثا ، قريبا من المدينة العتيقة التي يتحدث عنها أصحاب الرأي الأول .

ولا يمكن للباحث في غياب وثائق تؤكّد يقينا أحد الرأيين ؛ أن يفصل بينهما إلا من باب الترجيح استقراء لدلائل كل رأي .

وفي هذا السياق يمكن إيراد ما ذكره بلحميسي ، من أنّ بعض الباحثين ذهبوا إلى أن بناء المدينة متأخر جدا عن المزاعم سابقة الذكر – حسب رأيهم –، ولم يقبلوا فكرة كون المدينة قديمة ، بنيت في عهد الرومان أو قبله ، وهم بذلك يؤيّدون رأي ابن خلدون السابق الذكر .

---

[1] خط الخطة واختطها : اتخذها لنفسه ، وأعلم عليها علامة بالخط ؛ ليعلم أنه قد احتازها ليبنيها دارا . وفي اللسان: الخِطة ، بالكسر : الأرض والدار يختطها الرجل في أرض غير مملوكة ليتحجّرها ويبني فيها ، وذلك إذا أذن السلطان لجماعة من المسلمين أن يختطوا الدور في موضع بعينه ويتخذوا فيها مساكن لهم ، كما فعلوا بالكوفة والبصرة .

ينظر : مرتضى الزَّبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، بلا ، بدون، ج : 19 ، ص : 253 .

[2] عبد الرحمن ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج : 7 ، ص ص : 86 – 88.

وللاستدلال على ما ذهبوا إليه ، اعتمدوا على خلو مؤلفات بعض الجغرافيين العرب من أي تلميح إلى المدينة ، مثل ابن خرداذبة [1] ، واليعقوبي [2] والبكري [3] .

ولكن بلحميسي عقّب على هذا الرأي ؛ معتبرا موقع المدينة البعيد ، عن المسار الذي وصفه هؤلاء الرحالة ؛ هو سبب إهمالهم لذكرها [4] .

وهو تعقيب في محلّه ، وسيتضح ذلك جليا حين الحديث عن الطرق التجارية وعلاقة مدينة مازونة بها في الفصل الثالث .

[1] هو عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه ، أبو القاسم : مؤرخ جغرافي ، فارسي الأصل . من أهل بغداد.ولد نحو سنة : 205 هـ – 820م ، له تصانيف ، منها " المسالك والممالك " ، و" جمهرة أنساب الفرس " ، و" اللهو والملاهي " ، و" الشراب " ، و" الندماء والجلساء " و" أدب السماع " ، توفي نحو : 280 هـ - 893 م .

ينظر : الزركلي ، مرجع سابق، ج : 4 ، ص : 190 .

[2] هو أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي : مؤرخ جغرافي كثير الأسفار ، من أهل بغداد ، كان جده من موالي المنصور العباسي ، رحل إلى المغرب وأقام مدة في أرمينية ، ودخل الهند ، وزار الأقطار العربية ، وصنف كتبا جيدة منها (تاريخ اليعقوبي) ، وكتاب (البلدان) ، و(أخبار الأمم السالفة) ، و(مشاكلة الناس لزمانهم) رسالة ، واختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقال ياقوت : سنة : 284 ، ونقل غيره 282 ، وقيل: 278 أو بعدها ، ورجحت أخيرا رواية ناشر الطبعة الثانية من التاريخ إذ وجد في كتاب البلدان (الصفحة 131 طبعة النجف) أبياتا لليعقوبي نظمها ليلة عيد الفطر سنة 292 هـ .

ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 1 ، ص : 95 .

[3] عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي ، أبو عبيد : مؤرخ جغرافي ، ثقة . علامة بالأدب ، له معرفة بالنبات . وقال الصفدي : " كان ملوك الأندلس يتهادون مصنفاته .... " ، ولد في شلطيش (Saltes غربي إشبيلية) . له كتب جليلة ، منها : " المسالك والممالك " ، طبع جزء منه باسم " المغرب في ذكر إفريقية والمغرب " وقطع خاصة بالروس والصقلب ، و" معجم ما استعجم " ، و " أعلام النبوة " ، و " شرح أمالي القالي " و " التنبيه على أغلاط أبي علي القالي في أماليه " ، و " أعيان النبات ". توفي سنة : 487 هـ - 1094 م .

ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 4 ، ص : 98 .

[4] Moulay Belhamissi , op cit , p : 26

وكما اختُلف في تاريخ تأسيس المدينة وفي من أسسها ؛ اختُلف في أصل تسميتها بين من كتبوا حول الموضوع .

فقد جاء على لسان الزياني في كتابه دليل الحيران [1] ؛ أن أصل كلمة مازونة يرجع إلى اسم قبيلة بربرية زناتية كانت تسكن المنطقة ، وهو "ماسون" أو "مازون" .

أما لوكيل يوسف فيورد روايتين ، إحداهما أن المدينة أخذت اسمها من أميرة كانت تحكم هذه البلاد ، وكان كنزها كلّه مكوّن من قطع ذهبية ، كانت تعرف "بموزونة" ، قيمة كل قطعة حوالي 10 سنتيم بعملة زمانه .

وتُرجع الأسطورة الثانية اسم المدينة إلى راع كان يرعى غنمه في موضع المدينة، والذي كان يحيط به مجرى واد بوماتع من جهة ، وواد تامدة من جهة أخرى ، ما يجعل الموضع يأخذ شكل الموزونة ، وأنه أكثر من مدح هذا الموضع ؛ مما دفع الناس إلى الارتحال إليه للسكن . وسرعان ما تكاثر عددهم لتتشكل مدينة أخذت منذ ذلك الحين اسم مازونة ، وتواصل الأسطورة تحكي مصير هذا الراعي المأساوي في شكل درامي جميل [2].

---

[1] محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تقديم وتعليق : المهدي البوعبدلي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1978م ، ص : 55 .

[2] Y. Loukil , op cit , p : 13 .

والغريب أن لوكيل يوسف تقبّل هذه القصة دون تعليق ؛ كما يروي بلحميسي [1] رغم ما يبدو عليها من الطرافة التي تقربها إلى الخيال أكثر من الحقيقة.

ويرى بلحميسي أن أصل المدينة – بناء على رأي آخرين – ؛ يرجع إلى مدينة رومانية قديمة اسمها "ماسونة" "MASUNN" ؛ كما توضحه لوحتين أثريتين قديمتين عثر عليهما حديثا قرب مازونة [2] ، فتحول الاسم اللاتيني ماسونى إلى البربري مازونة [3] .

رغم أن هذا الرأي تدعمه تلك التنقيبات الحفرية إلا أنّ "دامغت" يرفضه ويرجع أصل التسمية إلى اسم ملك كان يحكم البلاد اسمه " ماسينة " ، وليس إلى اسم مدينة [4]

أخيرا يرجع البعض – حسب رواية بلحميسي دائما – أصل التسمية إلى المعنى البربري الذي مفاده أن مازونة تعني أرض الرجال الأقوياء [5] .

---

[1] Moulay Belhamissi , op cit , p : 21 .

[2] وجدت اللوحتان من قبل فريق بحث فرنسي في بلدية سيدي امحمد بن علي ، على بعد 2,5 كم من مازونة .

[3] Moulay Belhamissi , op cit , p : 21

[4] Damaeght , Notes sur le Dahra occidentale , B.S.G.O ,1882 , pp : 132-134.

[5] Moulay Belhamissi , op cit , p : 21

ذكر المدينة في المصادر التاريخية :

ذكر ابن بطوطة [1] المدينة في معرض حديثه عن المدن التي مرّ بها في رحلته ، لكن من غير وصف أو تفصيل إذ يقول : "... ثمّ خرجنا عنها ، بعد عشر إلى مدينة تنس ، ثم إلى مازونة ، ثم إلى مستغانم ، ثم إلى تلمسان ؛ فقصدت العباد وزرت الشيخ أبا مدين – رضي الله عنه ونفع به – ، ثم خرجت عنها على طريق ندرومة ، وسلكت طريق أخندقان وبت بزاوية الشيخ إبراهيم...." [2] .

كما ذكرها العبدري [3] في رحلته بقوله : "... ثم رحلنا على طريقنا الأولى إلى مليانة فتيامنّا منها على طريق مازونة ؛ مثوى خطوب الزمن ، ومناخ ركاب

[1] هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ، أبو عبد الله، ابن بطوطة: رحالة مؤرخ . ولد ونشأ في طنجة سنة : 703 هـ – 1304 م . وخرج منها سنة 725 هـ ، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط إفريقية . وأملى أخبار رحلته على (محمد ابن جُزَيّ) الكَلْبي بمدينة فاس سنة 756 ، وسماها (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) . ومات في مراكش سنة : 779 هـ- 1377 م .

ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 6 ، ص : 236 .

[2] ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ،1417هـ ، ج : 4 ، ص : 190 .

[3] هو محمد بن محمد بن محمد بن علي ابن أحمد بن مسعود أبو عبد الله العبدري : فقيه رحالة مالكي . يقال له الحاحي و(الحيحي) نسبة إلى بلاد (حاحة) القبيلة البربرية ، على 60 كيلومترا من (الصويرة) في الشاطئ الاطلنطي. ولد ونشأ بها ، وتعلم حتى كان قاضيا بمراكش ، ثم استقر في حاحة وتوفي بها ، وقبره معروف فيها يطلق عليه اسم (سيدي أبو البركات) ، وكان شاعرا فحلا وأديبا نقادا . وهو صاحب (الرحلة العبدرية) قام بها في 25 ذي القعدة 688 . توفي سنة : نحو 700 هـ – نحو 1300 م .

ينظر : الزركلي ، المرجع السابق ، ج : 7 ، ص : 32 .

الحدثان، وهي بليدة مجموعة مقطوعة من بعض جهاتها بحرف واد منقطع شبه قلعة، ولكنها واهية حسّا ومعنى وليس بها ما يتعرض لذكره البتة ..." [1] .

وفي كتاب العبدري أبيات نظمها ابن الفكون في رحلته من قسنطينة إلى مراكش جاء فيها :

وفي تنس نسيت جميل صبري — وهمت بكل ذي وجه وضي
وفي مازونة ما زلت صبـــــا — بوسنان المحاجر لـــــوذعي
وفي وهران قد أمسيت رهنـــا — بضامر الخسر ذي ردف روي [2]

أما الحسن الوزان الفاسي [3] المشهور في الكتابات اللاتينية بليون الإفريقي ، فيصف المدينة في بداية القرن السادس عشر ، ومن جملة وصفه يذكر الآثار الكثيرة المحيطة بالمدينة ، والتي يرجع تاريخ بنائها إلى العصر الروماني .

---

[1] أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري ، الرحلة المغربية ، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي ، إصدارات وزارة الدولة المكلفة بشؤون الثقافة والتعليم الأصلي ، الرباط ، 1968 ، ص : 278 .

[2] نفس المرجع ، ص : 278 .

[3] هو الحسن بن محمد الوزان ، أبو علي ، الغرناطي أصلا ، الفاسي دارا ، المسمى في أسره يوحنّى الأسد Jean Leon والمعروف عند الإفرنج باسم ليون الافريقي Leon،Africain جغرافي من العلماء، رحالة، مؤرخ أندلسي. ولد في غرناطة نحو سنة : 888 هـ – 1483م ، أشيع أنه تنصر، وتعلم الإيطالية واللاتينية ، وكان يحسن الإسبانية والعبرية. صنف (معجما طبيا) عربيا لاتينيا عبريا ، وكتاب (وصف إفرقية) ، ومن كتبه أيضا (مختصر تاريخ الإسلام) و(تاريخ إفريقية) و (مجموع شعري) في الوعظ والزهد، وله رسالة باللاتينية في (تراجم الأطباء والفلاسفة العرب) ، وصنف كتابا في (العقائد والفقه الإسلامي) ومات على أكثر الروايات، مسلما في تونس نحو سنة 1552 م.
ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 2 ، ص : 218 .

ورغم أن هذه الآثار العمرانية ؛ لا تذكر أي اسم قد نستشف منه تاريخ التأسيس ، أو اسم المؤسس ، أو اسم المدينة عند الرومان ، ولكن كثرة الكتابات الواردة على ألواح الرخام تكاد تؤكد أن الرومان وإن لم يكونوا أول من أسّس هذه المدينة ؛ فإنهم سكنوها وعمروها وتركوا آثارا تدل – بما لا يدع مجالا للشك – على سكناهم للمدينة [1] .

ويقول عنها أيضا : " مدينة أزلية بناها الأفارقة – حسب قول بعضهم – على بعد نحو أربعين ميلا من البحر ، تمتد على مساحة شاسعة ، تحيط بها أسوار متينة ، لكن دورها قبيحة فقيرة ، وفيها جامع وبعض مساجد أخرى ..." [2] .

ويذكرها المازاري في معرض حديثه عن زيري بن عطية ، وما تعلق بأمر دولته، وخروج أبو البهار بن زيري بن مناد مخالفا على ابن أخيه منصور بن بلكين ظهير الشيعة ، وعدّها من بين المدن التي غلب عليها أبو البهار ، وخرجت عن حكم الشيعة ، وتبعت المروانيين بالأندلس مع تلمسان ووهران وتامزغران ، ومستغانم والبطحاء وتنس وشلف وشرشال وونشريس ومليانة ، وغيرها كثير من بلاد الزاب ، وذلك سنة 377هـ [3].

[1] الحسن بن محمد الوزان الفاسي ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1983 ، ق 2 ، ص : 36 .

[2] الحسن بن محمد الوزان ، مصدر سابق ، ق 2 ، ص : 36 .

[3] الآغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحيى بوعزيز ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 م ، ج : 1 ، ص : 125 .

أما صاحب الروض المعطار أبو عبد الحميري [1] ، فيعرفها كما يلي : " مازونة : بالمغرب بالقرب من مستغانم ، وهي على ستة أميال من البحر ، وهي مدينة بين أجبل ، ولها مزارع وبساتين وأسواق عامرة ، ولها يوم يجتمع فيه لسوقها أصناف البربر ، بضروب من الفواكه والألبان والسمن ، والعسل بها كثير ، وهي من أحسن البلاد صفة ، وأكثرها فواكه وخصباً " [2].

وهو في هذا التعريف ؛ ينقل حرفيا جزءا مما ذكره الإدريسي في كتابه " نزهة المشتاق " ولا يزيد عليه إلا كونها بالمغرب قرب مدينة مستغانم .

وذكرها الغرناطي [3] صاحب المُغرب في حُليّ المغرب ، – في معرض حديثه عن المدن الموجودة في القسم السادس من العالم حسب تقسيمه – ؛ فيقول : "

[1] هو محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور ، أبو عبد الله الحميري : عالم بالبلدان والسير والأخبار. أندلسي ، من أهل سبتة . له (الروض المعطار في أخبار الأقطار) ، توفي سنة : 900 هـ - 1495 م .
ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 7 ، ص : 53 .

[2] الحِميرى ، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، ط 2 ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت، 1980 م ، ص :521 .

[3] أبو الحسن بن سعيد علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي الأديب الأخباري الشهير صاحب التصانيف الأدبية. ولد بغرناطة سنة عشر وستمائة، وأخذ عن الشلوبين وغيره ، وجال في الأقطار ، ودخل مصر والشام وبغداد ، وألف المُغرب في حُلي المغرب ، والمُشرق في حلي المشرق ، والطالع السعيد في تاريخ بلده. مات بتونس سنة خمس وثمانين وستمائة .

ينظر : جلال الدين السيوطي ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط 1 ، 1387 هـ – 1967 م ، ج : 1 ، ص : 555 .

... في غرب هذا الإقليم ، وفي الجهة الداخلية منه توجد مدن مليانة ، ومازونة ... وقسنطينة وقلعة بني حماد..."[1].

أما السخاوي [2] فقد ذكرها في معرض ترجمته لعلي بن المازوني ؛ لكنه لم يصفها بشيء، والظاهر أنه لم يكن يعلم بها إذ يقول : " علي بن المازوني بزاي مضمومة وآخره نون، نسبة – فيما يظهر – لقرية يقال لها مازونة " [3] .

---

[1] E , Fagnan , Extrait Enedits relatifs au Maghreb (Geogphie et Histoire) , Maison Bastide _ Jourdin , Alger ,1924 , p : 6 .

[2] محمد بن عبد الرحمن بن محمد، شمس الدين السخاوي : مؤرخ حجة ، وعالم بالحديث والتفسير والأدب . أصله من سخا (من قرى مصر) ، ومولده في القاهرة سنة : 831هـ -1427م ، ساح في البلدان سياحة طويلة، وصنف زهاء مئتي كتاب أشهرها (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع). وله (شرح ألفية العراقي) ، و(المقاصد الحسنة) . توفي بالمدينة سنة : 902 هـ - 1497 م .

ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 6 ، ص : 194 .

[3] شمس الدين السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ج :11 ، ص : 224 .

مازونة من النشأة إلى دخول العثمانيين.

رغم أنّ الحديث عن مازونة فيما قبل العهد الزياني ، لا يعدو التلميح إلاّ أنّ صفحات تاريخ المغرب الأوسط تكاد لا تخلو من تعليق ، أو إشارة إلى هذه المدينة، على مرّ الزمن .

وسنرى في ما يلي ؛ كيف أثّرت المدينة على سير الأحداث ، منذ نشأتها إلى أن أصبحت عاصمة لبايليك الغرب ، عند دخول العثمانيين إلى الجزائر .

لقد عانت المدينة من تقلب السلطة ، في هذا القسم من العالم الإسلامي ، بين الحين والآخر بين المرينيين والزيّانيين والحفصيين ، وزادها تأثّرا ظهور الخلاف بين أبناء حكّامها من قبائل مغراوة ، وجرّ عليها وعلى ساكنيها الكثير من الويلات .

المرحلة البربرية :

بغض النظر عن الاختلافات الواردة حول أصل التسمية ، وتاريخ النشأة التي جاءت في مختلف المصادر التاريخية ، والتي يصعب الفصل بينها من دون ظهور شواهد جديدة ؛ فإن بلحميسي يرى أن غنى المنطقة الجبلية بالموارد النباتية ، وبمجموعة من المغارات التي تخبئ الكثير من الآثار البشرية الضاربة في القدم ، والتي تدفعنا إلى الجزم بأن الوجود البشري في المنطقة يزامن العهد الروماني ، بل قد يتعداه في القدم ، فالمنطقة تقع عند تقاطع الطرق التي تربط بين تنس وحوض مينا ، وبين الأصنام وبقية المدن الساحلية [1] .

والظاهر أن الرومان تنقلوا في المنطقة في جميع الاتجاهات ، وكون المدينة تقع في موقع حصين وكثير المياه ؛ فلا يستبعد أن يكون الرومان قد اتخذوها أكثر من حصن عسكري [2].

أما مارمول ؛ فيرى أن الوجود الروماني بالمنطقة كان بين القرن الرابع والخامس، وتسبب في هجرة البربر من كل سهل الشلف والاحتماء بالجبال [3] .

---

[1] Moulay Belhamissi , op cit , p : 27

[2] ibid , p : 27

[3] ينقل فورنال أن مارمول يسمي المدينة بـ (ميزونة MEZUNA) ، ويعتبرها مدينة أوبيدوم نوفيم كولونيا الرومانية، ويحدد موقعها حسب بطليموس عند تقاطع خطي طول 16° وعرض 32° ، وحسب مارمول دائما " يمكننا أن نرى في المدينة وبجوارها بقايا جميلة لآثار رومانية " . ينظر :

Henri Fournel,Etudes sur la conquete de l'Afrique par les Arabes et recherches sur les tribues Berberes qui ont occupees le maghreb centrale, imprimerie imperiale, Paris ,1857, p : 99 .

وذكر بوردون أن " احتمال كون مازونة مدينة رومانية كبير جدا ، ومن المؤكد أنّها كانت آهلة بعدد كبير من السكان ، وذلك لكثرة ما تحويه المنطقة من آثار رومانية ؛ داخل المدينة وخارجها ، في جهة بني زروال وأولاد كرلوف " [1] .

ويعلّق في موقع آخر قائلا : " ... هذه المدينة التي من المفروض أنها بنيت في عهد الرومان ؛ وإن كان سكانها ينسبونها إلى المسمى ماتع البربري ، الذي عاش قبل العهد الإسلامي ، لكن موقعها الحسن ، على مرتفع ينعم بالمياه الوفيرة المتدفقة ، أجمل من أن لا يفكر فيها الرومان ، ويتركوا هذا الموقع حتى ينتبه إليه البربر ، ومع الأسف لا يمكن توثيق تاريخ المدينة الذي ليس لنا حوله سوى المرويات الشفهية التي توارثها السكان " [2].

وبالنسبة للوكيل يوسف ؛ فإنّه قد أغفل الحديث عن المرحلة الرومانية بصفة مستقلة ، ولكنه يفرد لما يسمّيه الفترة البربرية عنوانا مستقلا ؛ يؤكد من خلاله أن المدينة بربرية المنشأ ، ويدلل على ذلك بكثرة الأسماء البربرية ، التي تعرف بها مختلف أحيائها وجبالها،وعيون الماء فيها[3].

---

[1] G Bourdon , Etude Geographique sur le Dahra , in B.S.G. 6[eme] serie , Librairie de ch. Delagrave et [cie], Paris , 1872 , t 3 , p : 595 .
[2] Ibid , p : 596 .
[3] Y. Loukil , op cit , p : 14 .

مازونة في العهد الإسلامي :

نظرا لفقر الكتابات التاريخية حول المدينة قبل العهد الزيّاني ؛ فمن الصعب الحديث عنها قبل ذلك التاريخ ، فما كتب قبل ذلك لا يكاد يعدو شذرات هنا وهناك ، تقتصر في معظمها على أن القائد الفلاني مرّ بها ، أو أنها كانت ضمن المدن التي خضعت لحكم قبيلة مغراوة ، أو غير ذلك من الإشارات المقتضبة ، والتي لا تعطينا أي وصف يمكن أن يعرف منه حجم المدينة أو أثرها التاريخي والحضاري.

من ذلك ما نقله الوزان بقوله : " ...لقد كانت مدينة متحضرة جدا في القديم ، لكنها كثيرا ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة ، ومن قبل الثوار تارة أخرى ، وبالتالي من الأعراب ، حتى أصبحت اليوم (القرن السادس عشر) قليلة السكان ، وهم إما نسّاجون ؛ أو فلاحون ، وجميعهم تقريبا فقراء ، لأنّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات ، والأراضي المزروعة جيدة تعطي غلة حسنة "[1].

ومنه ما يذكره الناصري [2] عن مدينة مازونة بقوله : " ... ثمَّ استولى عليّ بن إسحاق على الجزائر ثمَّ على مازونة ثمَّ على مليانة ثمَّ على القلعة ثمَّ نازل قسنطينة فامتنعت عليه

[1] الحسن بن محمد الوزان ، مصدر سابق ، ق 2 ، ص : 36 .

[2] أحمد بن خالد بن حماد بن محمد الناصري الدرعي ، شهاب الدين ، السلاوي : مؤرخ بحّاث . ولد سنة : 1835م، في مدينة سلا (بالمغرب الأقصى) ، اشتهر بتاريخه الممتع النفيس (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى). وله (زهر

واتصل الخبر بالمنصور ، فسرح السَّيد أبا زيد بن أبي حَفص بن عبد المُؤمن، وعقد له على حرب ابن غانية ، وعقد لمحمد بن إبراهيم بن جامع على الأساطيل، وإلى نظره أبو مُحمَّد بن عطوش وأحمد الصّقليّ ، فوصل السَّيّد أبو زيد إلى أفريقية ، وشرّد ابن غانية عنها إلى الصَّحراء في أخبار طويلة ... " [1] .

ويجزم بوردون أن المدينة لم يدخلها الإسلام في الحملة الأولى لجيوش الفاتحين المسلمين في القرن السابع الميلادي ، لكن أهلها سرعان ما عرفوه ودخلوا فيه ، وقدّموا للفاتحين الجدد رجالا أشداء للمشاركة في فتح الأندلس ، كما شاركوا في بناء الدولة المرابطية بفاعلية ، وقدموا بعد ذلك لعبد المؤمن أقوى المحاربين ، لبناء الدولة الموحدية غير أنهم هُزِموا أمام الهلاليين وسامتهم قبائل المحال سوء المعاملة بعد انهزامهم .[2]

وأما بلحميسي فيعتبر ؛ أن القرن الثاني عشر الميلادي هو عصر الازدهار في تاريخ المدينة ، حيث ابتداءً من هذه الفترة بدأت المدينة تعرف ذكرا واضحا في التآليف ، كما هو الحال مع الإدريسي في نزهة المشتاق ، الذي جعل المدينة عامرة بالنشاط التجاري ، الذي مردّه إلى كثرة المنتوج الفلاحي والحيواني الذي تنعم به

= الأفنان في شرح قصيدة ابن الونان) ، و(طلعة المشتري في النسب الجعفري) ، و(تعظيم المنة بنصرة السنة) ، و(الفلك المشحون بنفائس تبصرة ابن فرحون) ، و(كشف العرين عن ليوث بني مرين) ، و(تقييد في البربر) ، توفي سنة : 1315هـ -1897م .

ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 1 ، ص : 120.

[1] شهاب الدين أبو العباس الناصري الدرعي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصري ، محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، بدون ، ج : 2 ، ص : 160 .

[2] G Bourdon , op cit , p : 597 .

الأراضي الخصبة المحيطة بالمدينة ، بالإضافة إلى المنتوج الصناعي والحرفي ، الذي ملأ أسواقها بالزرابي والأصواف المصبوغة ، وجعل بينها وبين مدن أخرى كالقلعة وتلمسان ومراكش روابط تجارية قوية ، حتّمت على القوافل التجارية المرور بها للتزود بمنتوجاتها [1].

وإذا كان للمدينة هذا الظهور الاقتصادي ؛ سيكون لها أيضا دور سياسي في إطار الصراع الذي عرفته بلاد المغرب الأوسط ، على عهد بني زيان [2] ، سواء خلال التنافس بينهم وبين جيراهم الحفصيين شرقا والمرينيين غربا ، أو عند التنافس الداخلي بين مختلف فروع البيت الزياني على هرم السلطة ودور سكانها قبائل مغراوة في هذا الصراع [3] .

فاختلاف الولاء بين دولة وأخرى ؛ جعل المدينة تهوي في ظلام سحيق ، مرده إلى الحملات التأديبية ، التي عانت منها كلما انقلب ميزان القوة ضدها .

ففي سنة 639 هـ ؛ وفي عهد علي بن منديل الذي خلف أباه على حكم مازونة ومعها قبائل مغراوة ، وقع تحالف بينهم وبين بني توجين ، وطلبوا تدخل أبو زكريا الحفصي ، لدعم هذا الحلف ضد بني عبد الواد ؛ فأسرع إليهم وهزم الزيّانيّين

---

[1] Moulay Belhamissi , op cit , pp : 33 - 34

[2] تميّز عصر الدولة الزيانية بكثرة الصراعات السياسية ، خاصة وأن بلادهم وقعت بين فكي الرحى ، الحفصيون من الشرق والمرينيون من الغرب ، ناهيك عن الصراعات بين أبناء البيت الحاكم داخل دولة بني زيان .

ينظر : يحيى بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 ، ج: 1 ، ص : 208.

[3] نفس المصدر ، ج : 2 ، ص ص :281 - 286 .

ودخل عاصمتهم تلمسان ، وفي طريق عودته عيّن عليا هذا حاكما على مازونة ، وطلب منه أن يلبس الخلعة ، ويتصرف تصرف الملوك ؛ نكاية في بني زيان ومنازعة لهم على ملك المغرب الأوسط [1].

وفي سنة 686 هـ ؛ حاول أبو سعيد عثمان الأول [2] الذي حكم _ بعد أبيه يغمراسن بن زيان _ عرش الدولة الزيّانية أن يفرض سلطانه على كامل المغرب الأوسط ، فحاصر بجاية ، لكنه فشل في إسقاطها ، وفي طريق عودته " ... أخذ مازونة من أيدي مغراوة ، وحصن تافرجنيت من أيدي توجين ... فدوّخ بلادهم ، وأخذ ونشريس معقلهم ، وسبا حرم محمد بن عبد القوي ، ثم صرفهن إلى قومهن"[3].

[1] Arnaud , Voyages extraordinaires et nouvelles agreables par Mohamed Abou ras Ennasri , in Revue Africaine , ed: A Jourdin , Alger , 1879 , p : 292 .

[2] هو عثمان بن يغمراسن بن زيان ، أَبُو سعيد ، من بني عبد الواد ، ولد سنة : 639 – 1241م ، صاحب تلمسان في المغرب الأوسط ، وليها بعد وفاة أبيه (سنة 681 هـ) ، وبدأ بإخضاع بعض البلاد الخارجة عن نطاق دولته ، فأحرق قرى بجاية ، واستولى على مازونة ، وعلى بلاد أخرى ، وهاجمه السلطان يوسف بن يعقوب المريني (سنة 689هـ) فهزمه أبو سعيد ، وجدد زحفه على من استمالهم المريني ، فدوّخ بلادهم . وأعاد السلطان يوسف كرّته عليه، سنة 695 و 696 و 697 هـ) ، ففشل في غاراته كلها ، ثم تمكن من محاصرة أبي سعيد في قاعدة ملكه ، ونقض كثير من القبائل طاعته واشتد الضيق على تلمسان " وهلك الناس بالجوع والسيف والمنجنيقات " ، فتوفي أبو سعيد وهو محصور فيها وذلك سنة : 703 هـ - 1304 م . ودام حكمه 21 سنة إلا شهرا .

ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 4 ، ص : 215 .

[3] يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج : 1 ، ص : 208 .

وفي نفس السنة ؛ اتخذ أبو سعيد حاكم تلمسان المدينة خزانا للقمح ، الذي جمعته جيوشه من القبائل المنهزمة أمامها في أراضي بني توجين [1] .

وهو ما يؤكّده عبد الرحمن بن خلدون بقوله : " وفي خلال هذه الولايات ؛ استغلظ عليهم بنو عبد الواد ، واشتدّت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم ، بعد مهلك أبيهم محمد (بن عبد القوي) ، فنهض إليهم سنة ست وثمانين وستمائة ، وحاصرهم بجبل وانشريس ، وعاث في أوطانهم ، ونقل زروعها إلى مازونة حين غلب عليها مغراوة " [2].

محنة أخرى عرفتها مازونة بعد حصار تلمسان ، من قبل حكّام فاس ، الذين دانت لهم البلاد بعدها ، فرغم المقاومة الشرسة ؛ عجزت قبائل بني توجين ومغراوة عن صد هجمات أبي يعقوب المريني ، فآثرت الخضوع للحاكم الجديد [3] .

وبعد عودة حكم المغرب الأوسط إلى الزيانيين في منتصف القرن الرابع عشر؛ خضعت المدينة مجددا إلى سلطانهم ، وحكمها حلفاؤهم من قبائل سويد ، الذين تغلبوا على معظم البلاد الخاضعة لبني عبد الواد ، الذين لم تعد سلطتهم تتجاوز في الكثير من الأحيان حدود عاصمة ملكهم تلمسان [4] .

وقد أورد عبد الرحمن بن خلدون جملة هذه الصراعات ، التي عرفها البيت الزياني ، وعانت منها مازونة وما جاورها مرات متعددة ؛ منها وصفه لحملة عثمان

---

[1] ينظر : Moulay Belhamissi , op cit , pp : 35 ، ويحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج : 2 ، ص : 281

[2] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ج : 7 ، ص : 211 .

[3] Moulay Belhamissi , op cit , pp : 35 .

[4] Ibid , pp : 35

بن يغمراسن بقوله : " ... ولما هلك يغمراسن ، وقام بالأمر بعده ابنه عثمان ، انتقضت عليه تنس ، ثم ردّد الغزو إلى بلاد توجين ومغراوة ، حتى غلبهم آخرا على ما بأيديهم ، وملك المرية بمداخلة بني لمدية أهلها سنة سبع وثمانين وستمائة ، وغلب ثابت بن منديل على مازونة ، فاستولى عليها ، ثم نزل له عن تنس أيضا فملكها . ولم يزل عثمان مراغما لهم إلى أن زحف إليهم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ؛ فاستولى على أمصارهم وضواحيهم ، وأخرجهم عنها وألجأهم إلى الجبال" [1] .

ومنها روايته عن الصراع بين بني منديل حكام تنس وبني يغمراسن أصحاب تلمسان ، ودور مغراوة سكان مازونة فيه حيث قال : " ... سرّح عساكره في نواحيها ، وعقد على مغراوة وشلف لعمر بن ويعزن بن منديل ، وبعث معه جيشا ففتح مليانة وتنس ومازونة سنة تسع وتسعين وستمائة ، ووجد راشد في نفسه إذ لم يوله على قومه ، وكان يرى أنه الأحق لنسبه وظهره ، فنزع عن السلطان ولحق بجبال متيجة ، ودسّ إلى أوليائه من مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة ، فأجدّ السير ولحق بهم ، فافترق أمر مغراوة ، وداخل أهل مازونة فانتقضوا على السلطان ، وبيّت عمر بن ويعزن بأزمور من ضواحي بلادهم فقتله ، واجتمع عليه قومه ، وسرّح السلطان إليه الكتائب من بني عسكر لنظر الحسن بن عليّ بن أبي الطلاق، ومن بني ورتاجن لنظر عليّ بن محمد الخير ، ومن بني توجين لنظر أبي بكر بن

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ج : 7 ، ص : 90 .

إبراهيم بن عبد القوي ، ومن الجند لنظر علي بن حسّان الصبحي من صنائعه ، وعقد على مغراوة لمحمد بن عمر بن منديل .

وزحفوا إلى مازونة وقد ضبطها راشد ، وخلّف عليها عليّا وحمّوا ابني عمه يحي بن ثابت ، ولحق هو ببني بوسعيد مطلاّ عليهم ، وأناخت العساكر على مازونة ، ووالوا عليها الحصار سنين حتى أجهدوهم" [1] .

وفي سنة 750 هـ ، وبعد إحياء الدولة العبد الوادية (الزيانية) ، على يد الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت ؛ غزا الأخير وهران ، بعد أن أعدّ لها العدة وفتحها عنوة ، ثم غزا ناحية شلف ، بعد أن " ... نشأت بينه وبين مغراوة ريح السعايات، واستحكمت صبغة العداوة، فنهض إلى قتالهم ... والتقت الطائفتان بواد ارهيو .... ثم انجلت الكائنة عن هزيمة مغراوة ، واستئصال محلاّتهم وفرارهم إلى رؤوس الجبال وبطون الشعاب ... " [2] ، فبعثت مازونة ببيعتها للأميرين [3] .

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ج : 7 ، ص : 91 .

[2] يحيى بن خلدون ، مصدر سابق ، ج : 1 ، ص : 243 .

[3] عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني ، حياته وآثاره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1989م ، ص : 26 .

مازونة في العهد العثماني :

بدخول العثمانيين إلى الجزائر ، وإخضاعهم المغرب الأوسط إلى سلطانهم ؛ عرفت مازونة نقلة نوعية لم تشهدها من قبل ، فلقد جعلوها عاصمة لأحد البايليكات التي نظموا من خلالها إدارتهم للأيالة [1] ، إذ اختارها حسن بن خير الدين – الذي حكم البلاد نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر – عاصمة لبايليك الغرب ، ومنطلق الحملات لحماية مستغانم ، وقلعة بني راشد اللتين كانتا مهددتين باستمرار بالغزوات الإسبانية ، المنطلقة من وهران ، ومنها انطلقت وسيّرت الجيوش لمحاولة تحرير وهران أو حصارها .

كما كانت مستقرّا للباي بن خديجة أول بايات الغرب ، بعد عودة حسن بن خير الدين من حملته على الغرب سنة 1563م .

وقد كان أول اتصال بين الحكام الجدد للجزائر ومازونة ، في عهد علج علي الذي عزم منذ بداية ولايته على هزيمة إسبان وهران ، فأرسل جيشا كبيرا إلى المدينة، وبعث جزءا من محلته الخاصة للمشاركة في الغزوة وأنزلها بمازونة ومستغانم .

وفي نفس الوقت أرسل سفنه إلى المرية لتدعم الحركة الاحتجاجية التي كان مأمولا أن تنطلق في نفس الوقت على أيدي الموريسكيين في غرناطة حتى يشغل

---

[1] قسم العثمانيون أيالة الجزائر إلى ثلاث بايليكات هي : بايليك الشرق وعاصمته قسنطينة ، وبايليك التيطري وعاصمته المدية ، وبايليك الغرب وعاصمته مازونة فمعسكر وأخيرا وهران ، وأما مدينة الجزائر وأحوازها ؛ فعرفت بدار السلطان .

ينظر : صالح عياد ، الجزائر في خلال الحكم التركي ، ط 3 ، دار هومة ، الجزائر ، 2011 م ، ص : 292.

إسبانيا في عقر دارها عن دعم المحاصرين في وهران ، لكن الخطة فشلت بعد أن كشف مدبروا الثورة في غرناطة ، وتم إعدامهم ووأدها في المهد .[1]

لم تتوقف حملات أوجاق الجزائر ، على الجهة الغربية من الجزائر لفرض سلطانهم عليها ، ولم يبق لهم غير وهران ومرسى الكبير ، وما قد يأتي من تهديدات ملوك المغرب ، الذين توجسّوا خيفة من الأتراك منذ قدومهم ، ولم يقبلوا الاعتراف بسلطتهم ؛ رغم سعي الباب العالي بشتى الوسائل إلى إدخال المغرب الأقصى ضمن الرابطة العثمانية [2] .

وبعد فشل جهود حسن بن خير الدين في ولايته الثانية في تحرير وهران ؛ آثر أن يترك حامية عسكرية ، تكون درعا أمام أي هجوم محتمل على دولتهم ، وثغرا متقدما يترقب الفرصة لتحرير المدينة ، فاختار جبال الظهرة حيث كان متأكدا أن الإسبان لن يغامروا ويأتوا للبحث عنه ، ومن هناك كان ممثله الباي مستعدا لمساعدة مستغانم وقلعة بني راشد التي كانت تساعد بدورها نوبة تلمسان[3] .

---

[1] Ernest Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus recules jusqu'à la conquête française(1830) , ed ,Ernest Leroux , Paris , t 3 , p : 106 .

[2] اتسمت العلاقة بين الدولة المغربية في عهودها المختلفة وأتراك الجزائر منذ أن أصبحت تابعة للدولة العثمانية بالتوتر الدائم والريبة المتبادلة نظرا لحرص الأتراك وسعيهم جاهدين بشتى الوسائل إلى إدخال المغرب –آخر بلد إسلامي مستقل عنهم– ضمن نفوذهم وحرص ملوكه على مواجهة هذه الجهود بمقاومة شديدة .

ينظر : زهراء النظام ، العلاقات المغربية الجزائرية مقاربة سياسية ثقافية خلال القرن 10-16م ، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ ، جامعة محمد الخامس أكدال ، الرباط ، 2003م .

[3] E Mercier , op cit , p : 137 .

مازونة عاصمة لبايليك الغرب :

كان الوضع المذكور نواة لميلاد بايليك الغرب ، ومن مازونة وسّع العثمانيون سلطانهم إلى مليانة وبعد ذلك إلى كامل إقليم وهران ولم يبق غير قبيلة بني عامر وقبائل كريشتل على ولائها للإسبان [1].

وقد قسمت السلطة في بايليك الغرب في بداية الأمر بين بايين اثنين ، يستقر الأول بمازونة ، والثاني بتلمسان [2] ، وهذا يعني أن الأمر لم يكن مستقرا، لذلك كان الإقليم مقسما إلى بايليكين ؛ ربما لأن الأوجاق لم يأمنوا على تلمسان القريبة من الحدود الغربية ، والمهددة دوما بخطر ملوك المغرب ، فآثروا السلامة في مازونة دون رفع اليد عن تلمسان .

وأكّدت الأيام صواب هذا الرأي ، فبمجرد سنوح الفرصة قام الشريف مولاي محمد سنة 1647 بغزو الغرب الجزائري ، فدخل تلمسان وتقدم إلى ما والاها من الشرق .

وأمام عجز باي مازونة عن صدّه ؛ طلب العون من الجزائر ، لكن الغازي حمل غنائمه وعاد إلى سجلماسة قبل وصول المدد ، فأوفد إليه الباشا عثمان وفدا

---

[1] فصل المشرفي في كتابه بهجة الناظر في هذه القبائل التي كانت على ولاء مع إسبان وهران وقدمت لهم جملة من الخدمات أهمها تزويدهم بالمواد الغذائية والتجسس لهم في القبائل التابعة للبايليك .

ينظر : عبد القادر المشرفي الجزائري ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون ت . ص : 111 .

[2] يحيى بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ، دار الغرب ، وهران ، 2002 ، ص : 80 .

من علماء الجزائر ، وأرسل معهم رسالة [1] دعاه فيها لعدم العودة إلى غزو البايليك، أو إلى المواجهة المباشرة الصريحة . وبالالتفات إلى غزو ما سلبه الكافر من بلاده عوضا عن ذلك فكان له ما طلب إلى حين [2].

وفي العام 1679م ؛ تولى حكم مازونة شعبان الزنّاقي ، الذي بقي في الحكم 8 سنوات ، قضاها في محاربة الإسبان ، وشدّد في التضييق عليهم ، إلى أن هلك سنة 1686م في إحدى حملاته على وهران . وقد فصّل ابن سحنون في بطولاته وشجاعته في محاولة تحرير وهران والمرسى الكبير[3] .

كما أورد الجامعي ، في معرض شرحه لأرجوزة الحلفاوي ما نصه : " ... وقوله كقتلى شعبان نصيح ربه ، إشارة إلى أن مصرع كفرة هذا البرج ؛ كمصرع الكفرة الذين قتلهم شعبان باي ، وفي هذا استطراد بديع ، وتلميح بغزوة عظيمة ، أوقع فيها شعبان الزناقي بالكفرة وقعة شهيرة ، ما زالت التواريخ ترقم بذكرها ، ولبات الطروس تتحلى بدرر خبرها .

وقد كان لهذا الباي – رحمه الله – في كفرة وهران وقعات وغزوات ، لم يشنّ عليهم أحد مثله شعواء الغارات ، ومن أشهر غزواته هذه التي استطردها الناظم ، و

[1] أورد الناصري نص الرسالة كاملا في الاستقصا وهو نص مطول لكنه لا يخلو من الفوائد التاريخية واللغوية. ينظر : الناصري ، مصدر سابق ، ج : 2 ، ص : 60 .

[2] Ernest Mercier , op cit , pp : 241 – 242 .

[3] ابن سحنون الراشدي ، مرجع سابق ، ص : 108 .

كانت سنة ثمانية وتسعين وألف ، وبها استشهد – رحمة الله عليه – ، وقد أبدى ذلك وأعاده وأظهر من الشجاعة ما يقصر عنه عنترة ابن شداد.

أخبرني بعض من حضر معه ؛ أنه تكسّر في يده في ذلك اليوم سيفان ، وحُكِي أنه احتفل لذلك اليوم احتفالا عظيما ، لبس فيه أفخر ثيابه ، وتحلّى بأشرف حليته ، وركب أجود مراكبه ... " [1].

ورغم كل الجهد الذي بذله الباي شعبان ؛ إلاّ أنه لم يستطع تحرير المدينة ، بل كان حتفه على أسوارها ، على يد المغطّسين عملاء الإسبان ، الذين قطعوا رأسه وعلّقوه على أسوار المدينة ؛ ممّا أثّر في الجند ، وردّهم خائبين إلى مازونة .

أما المشرفي ؛ فيكيل السبّ واللّعنات لمن كان سببا في مقتل الباي ، من رجال بني عامر ، فيقول في حقّه : " ... فكان منهم المرجفون والمنافقون ، والجالبون قلوب الناس للكفر والزنادقة ، وليس لهم غيرة على الإسلام ... حتّى أن من جملتهم الكافر أبو نصايبة أحد النصاصيب ، الذي قتل الفقيه باي مازونة السيد شعبان الزناقي ، عند باب وهران سنة ثمان وتسعين وألف ، واجتز رأسه فلعنه الله من منافق وأخزاه ، فإنه مجرم فاسق ..." [2] .

[1] عبد الرحمان الجامعي ، شرح أرجوزة الحلفاوي ، مخطوط ورقة : 31.

[2] عبد القادر المشرفي ، مصدر سابق ، ص ص : 30-31 .

وقد حاول الباي الجديد إبراهيم خوجة ؛ إعداد حملة أخرى في العام الموالي ، فانطلق من مازونة ، وحاصر وهران وشرع في قذفها ، لكنّه اضطر لرفع الحصار عنها، والعودة إلى العاصمة للمشاركة في صد هجوم الماريشال دوستري .[1]

وفي سنة 1701م ؛ قام السلطان مولاي اسماعيل ملك المغرب ، بمحاولة أخرى للسيطرة على البايليك ؛ فهزمه الجيش العثماني بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، مدعوما بمدد داي الجزائر ، وحملت رؤوس المهزومين إلى العاصمة ، معها أحمال من الغنائم التي نهبت من محلة السلطان المتقهقر ، واستطاع الباي بوشلاغم أن يجمع شتات المخزن الداعم للسلطان بعد هزيمته ، ويشكل به مخزنا داعما للبايليك ؛ من فرسان الزمالة والدواير والعبيد والغرابة الذين انقلبوا طواعية بعد الهزيمة إلى صف المنتصر .[2]

وبقيت مازونة مقرّا لبايات الغرب حتى هذه السنة (1701م) ، حين استغل الباي بوشلاغم هذه المستجدات وحوّله إلى معسكر ، ليُحْكِم الحصار على مدينة وهران ، وأصبحت مازونة بعد ذلك من أهم حواضر البايليك ، يقيم بها حاكم تحت سلطته الجهة الشرقية للبايليك ، وقد اجتمعت له السلطتان المدنية والعسكرية[3] .

---

[1] يحيى بوعزيز ، مرجع سابق ، ص ص : 93-94 .

[2] Ernest Mercier , op cit , p : 322 . voire aussi : Louis Rinn , in B.S.G.A.NA , 8eme serie 1903 , p : 99

[3] عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 ، ج : 3 ، ص : 210 .

وللمازاري تفصيل حول هذا الانتقال ، يذكره في كتابه (طلوع سعد السعود) حول مخزن بايليك الغرب ؛ نوجز منه ما يلي : "... لكون الترك تولّوا على الجهة الغربية ، وجعلوا فيها بايا قبل الجهة الشرقية وقاعدته وهران ... وأول باياتها حسن بن خير الدين ، ثم جمعا في الثامن والتسعين وألفا لواحد ، وصارت القاعدة قلعة بني راشد ، ثم صارت معسكر ، ثم صارت وهران في الفتح الأول ، ثم صارت مستغانم ، ثم صارت المعسكر ، ثم صارت وهران في الفتح الثاني " [1] .

وإذا كانت مدة بقاء مازونة عاصمة للبايليك معروفة ومحددة بوضوح ؛ كما بيّن المازاري وغيره من المؤرخين ، الذين تناولوا بايليك الغرب بالوصف ؛ فإن جملة من تولّوا حكم البايليك من البايات ، لم يحددوا بدقة ، ولا نعرف منهم إلا عددا قليلا ، فبعد بن خديجة جاء صوّاق ، الذي مات مسموما كما يروي الزياني ، تلاه السايح الذي بقي في الحكم أحد عشر عاما ، ومن بعده حكم المدعو سعد، ثم ينقطع الحديث عن البايات حتى السادس عشر ، وهو محمد بن موسى ثم شعبان الزناقي ، الذي مات في محاولة لفتح وهران ، وقد عدّه جورجوس من أشد البايات شراسة في التضييق على إسبان وهران والقبائل المساندة لهم [2] .

وآخر البايات الذين حكموا مازونة هو مصطفى بوشلاغم ، الذي نقل مقر إقامته إلى القلعة ، ومنها إلى معسكر كما سبق الحديث .

---

[1] الآغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود ، تحقيق يحيى بوعزيز ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 م ، ج : 1 ، ص : 270 .

[2] A Gorguos , Histoire d'un bey de mascara et de l'oranie, editions G.A.L Alger , 2006 , p : 58 .

ورغم الاجتهاد الحثيث ، في محاولة الحصول على أسماء البايات الأحد عشر، الذين حكموا المدينة فيما بين سعد ومحمد بن موسى ؛ لكن دون جدوى ، إذ خلت المصادر التاريخية من الحديث عن هؤلاء البايات ، وحتى الظهائر الموجهة إلى أعيان وعلماء مدينة مازونة التي بحوزتي ، والتي يصادف تاريخها تلك المرحلة تخلو من أسماء حكام المدينة أو لا تعطيهم صفة الباي مما يصعّب على الباحث الفصل بيقين ؛ هل هم بايات أغفلهم أصحاب التصانيف ؟ لعدم توفر مثل هذه الظهائر وغيرها من الوثائق لديهم ؟ أو أنهم مجرد قادة عسكريين أو ممثلين عن البايات ؟

وبالعودة إلى الأرشيف العثماني بمدينة إسطنبول – الذي زرته مرتين محاولا العثور على أي وثيقة موجهة من دايات الجزائر إلى بايات مازونة – ؛لم أتمكّن من الاطلاع إلا على وثيقتين ، تخصان مدينة مازونة ، وذلك لصعوبة التعامل مع قاعدة البيانات الرقمية للأرشيف ، التي هي معدة باللغة التركية فقط .

ومن سوء الحظ فإن الوثيقتين لا فائدة تاريخية منهما ، ورغم المساعدة القيّمة من السيد مسؤول قاعة المخطوطات ؛ إلا أنّي لم أعد بطائل من هاتين الزيارتين ، ولعل السبب أن الأرشيف الذي ظل مغلقا طويلا ، ولم يتم إعادة فتحه إلا في السنوات الأخيرة ؛لم يتم ضبط كل وثائقه ، فحسب أحد الباحثين [1] هناك لم يتم ترتيب إلا 36 ألف مخطوطة من بين 2 مليون تحويها خزائنه .

[1] هو الدكتور عمر إسحاق اوغلو أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب جامعة إسطمبول .

ويذكر بلحميسي أنّ تعداد الأتراك في مدينة مازونة – على كثرتهم – لم يتجاوز ثمانين خيمة ، مهمتهم محاولة توسيع نفوذ الأتراك ، والدفاع عنه شرقا وغربا في البايليك ، لكنهم لم يكونوا في معزل عن باقي أحداث الأيالة هنا وهناك، ولم ينقطع هذا الدور بعد خروج الباي من مازونة إلى معسكر ؛ بل إنّ حصار وهران الأخير ، والذي جاء بالتحرير الثاني في سنة 1791م ؛ شارك فيه أتراك مازونة ومعهم نخبة من علماء مدرستها وطلبتهم ، يقودهم شيخها الجليل بوطالب المازوني[1] .

ثورة درقاوة :

يذكر الناصري – في تأريخه لدولة العلويين بالمغرب الأقصى – دوافع خروج درقاوة وثورتهم على حكم الترك فيقول : " لما كانت سنة عشرين ومائتين وألف ؛ هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والتّرك ، وكان السَّبب في ذلك أن باي وهران كان له انحراف عن الفقراء والمنتسبين وسوء اعتقاد فيهم ، فقتل بعض الطَّائفة الدرقاوية وأمر بالقبض على مقدمهم أبي محمد عبد القادر بن الشريف الفليتي ، تلميذ الشّيخ الأكبر أبي عبد الله سيّدي محمد العربيّ بن أحمد الدرقاوي ؛ شيخ الطَّائفة المذكورة ، ففر أبو محمد عبد القادر المذكور إلى الصّحراء ، ونزل بحلة الأحرار ، فاجتمع عليه أهل طائفته ، وامتعضوا لمن قتل منهم ولنفي مقدمهم عن

[1] M Belhamissi , op cit , p : 47 .

وطنه وعشيرته ، وامتعضت لهم عشائرهم من قبائل العرب الّذي هنالك ، وزحفوا لحرب التّرك على حين غفلة منهم فقتلوهم في كل وجه ... "[1] .

وإذا كانت هذه هي وجهة نظر القصر العلوي ؛ فإن كثيرا من المؤرّخين لا يتفق معها، لا من حيث الدوافع ولا من حيث جهة الخصومة ، فالثورة الدرقاوية لم تكن تلمسانية المنشأ ، ولا بسبب ظلم الباي لبعض فقراء درقاوة ؛ وإنّما تزامن تدهور الوضع السياسي مع التأزم الاقتصادي الناجم عن ضعف مداخيل جهاد البحر ؛ هما السببان الحقيقيان . والدليل على ذلك الانتشار الجغرافي لهذه الثورة ، فقد عمّت القطر شرقه بقيادة بلحرش[2] ، وغربه بقيادة ابن الشريف[3] .

ورغم تدخل دايات الجزائر لدعم باياتهم ؛ إلا أن الثورة الدرقاوية خاصة في بايليك الغرب ازداد لهيبها ، وكادت تطيح بحكم التُّرك نهائيا .

يصف الناصري تلك الانتصارات بقوله : " وَلما دخل فصل الرّبيع من السّنة المذكورة ؛ بعث صَاحب الجزائر عسكرا إلى باي وهران ، وأمره بغزو العرب ،

---

[1] الناصري ، مرجع سابق ، ج : 3 ، ص : 109 .

[2] هو ابن الأحرش فتى مغربي ، مالكي المذهب ، درقاوي الطريقة ، درعي النسب ، ادعى أنه المهدي المنتظر .
ينظر : محمد الصالح العنتري ، سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة ، منشور تحت عنوان مجاعات قسنطينة من قبل رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1473م ، ص : 29 .

[3] بونقاب مختار ، تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة وهران ، 2001 – 2002م ، ص : 77 .

فنهض إليهم ووقعت الحرب بينه وبينهم ، فانهزم التُّرك ثانية ونهب العرب محلّتهم ، وتبعوهم إلى وهران فحاصروهم ..." [1] .

وأمام عجز الباي عن الوقوف في وجه الثائرين ؛ اهتدى مخزنه إلى مراسلة سُلطان المغرب ليتدخل لصالحهم ، فأشاروا بذلك على الباي ، وهو ما يرويه الناصري بقوله : " ... ولما مني الباي منهم بالداء العضال ؛ كتب إلى السُّلطان المولى سليمان ، يعرّفه بما دهاه منهم ، ويطلب منه أن يبعث إليهم شيخهم أبا عبد الله المذكور ، ليكفّهم عنه ويراجعوا طاعة المخزن ، فبعث السُّلطان – رحمه الله – الشَّيخ المذكور ، ومعه الأمين الحاج الطَّاهر بادو المكناسي ، فانتهى الشَّيخ إلى ابن الشريف وهو في جموعه بظاهر وهران ، فشكا إلى الشَّيخ ما نال الفقراء والمنتسبين وسائر الرعية ، من عسف التُّرك وجورهم وانتهائهم في ذلك إلى القتل والطرد عن الوطن ، فتوقف الشَّيخ وربما صدر منه بعض تقبيح لفعل التُّرك وما هم عليه ، فازدادت العرب بذلك تظاهرا على التُّرك وتكالبا عليهم، فاتهم الباي السّلطان بأنّه الَّذي يغريهم ، لأنّه كان ينتظر الفرج على يده ، ويرجو رقع الخرق من جهته ، فأخفق سعيه .

وحينئذٍ نصب مدافعه في وجه جموع العرب وفرّقهم بالكور والضوبلي ، فانهزموا عن وهران وأبعدوا المفر ، ثمَّ تذامروا وتحالفوا وزحفوا إلى تلمسان ، فنزلوا

[1] الناصري ، مصدر سابق ، ج : 3 ، ص : 110

عليها وحاصروها ، وكان أهل تلمسان – خصوصا وقبائلها عموما – لهم التفاتٌ كبير إلى السُّلطان المولى سليمان – رحمه الله – ...

فلمَّا نزلت العرب على تلمسان ؛ تمشت الرُّسل بينهم وبين الحضر من أهلها، واتَّفقوا على خلع طاعة التّرك ، ومبايعة السُّلطان المولى سليمان ، ففتحوا باب المدينة ، ودخل ابن الشريف وطائفته ، وأخذ البيعة بها للسُّلطان المولى سليمان ، وخطب به على منابرها ، ووجّه وفده وهديته إلى السُّلطان مع شيخه أبي عبد الله المذكور ، ثمَّ نهد في عربه وحضره من أهل تلمسان ؛ لحرب الكرغلية الَّذين بالقصبة، فأجحرهم بها وضيق عليهم ، فلم يبق للترك حينئذٍ شكّ في أن ذلك كله بأمر السُّلطان ، فكتبوا إلى الدولاتي وهو باشاهم الأعظم صاحب الجزائريُعلمونه بالواقع ، واستمرت الحرب بينهم ..." [1] .

ومن خلال قول الناصري الذي نقلناه – على طوله لفائدته – ؛ يتّضح أن دور العلويين كان واضحا في دعم هذه الحركة ، رغم محاولاته تبرئة السّلطان وتحميل مولاي العربي الدرقاوي وحده هذا الدعم ، بل حتى هذا الأخير يحاول الناصري أن يجعل دعمه غير مباشر من أجل رفع أي شبهة تورّط حكام المغرب في هذه الثورة .

[1] الناصري ، مصدر سابق ، ج : 3 ، ص : 110 .

ومهما يكن الحال ، ففي سنة 1804م انطلقت ثورة درقاوة [1] ، بقيادة عبد القادر بن الشريف الدرقاوي ، واستجابت له بعض قبائل الظهرة ، وشاركت معه في حرب البايليك ، الذي كانت تشترك في حمايته سابقا ، وأعلنت العصيان عن أمر الباي مصطفى المنزلي [2] ، فاضطر خليفته عدة بن فريحة – الذي كان قد خرج يجمع الضرائب – أن يقفل عائدا إلى وهران ، خوفا من بطش قبائل الظهرة ، التي أعلنت الخروج على حكم الأتراك ، واستقبلت الدرقاوي الذي دخل المدينة واستطاع خلال شهر واحد فقط أن يفرض سلطانه ، على المنطقة من مليانة شرقا إلى مشارف وهران .

ولكن هذا النصر لم يستمر طويلا ؛ فقد عمد الأتراك إلى تغيير الباي ، فعزل المنزلي وعيّن بدلا عنه محمد بن عثمان المقلش [3] ، الذي عرف كيف يستميل بعض قادة المخزن باستعمال المال ، ويحقّق انتصارات على الدرقاوي .

[1] درقاوة أو الدرقاوية طريقة صوفية مغربية متفرعة عن الشاذلية ، وأول من دعا إليها هو الشريف إدريس من جماعة العمرانيين الذين استوطنوا فاس ويدعى علي ابن عبد الرحمن الجمل ، ومن أشهر تلامذته مولاي العربي الدرقاوي الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للطريقة ومنظمها ، لكنه تنسب إلى أحد أسلافه وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف الملقب بأبي درقة ، ولذلك قيل الدرقاوي ، والدرقة هي الترس من الجلد .

ينظر : بونقاب مختار ، مرجع سابق ، ص : 37 .

[2] عين الباي مصطفى المنزلي على رأس البايليك مرتين وعزل لعجزه عن مواجهة ثورة درقاوة ثم عين في النهاية خزناجيا لخبرته في إدارة الحسابات .

[3] هو الابن الأكبر للباي محمد الأكحل بن عثمان محرّر وهران ، ورث الشجاعة عن أبيه ، واستطاع تحقيق ما عجز عنه المنزلي من مواجهة درقاوة ، لكن سيرته ساءت بعد الانتصار ، فكانت نهايته مؤلمة ، وقتل بأمر من الداي .

وبعد انهزام درقاوة ، تعرض مساندوهم من قبائل المجاهر ، وافليتة ، والظهرة إلى حملات تأديبية وعقاب شديد من قبل البايليك ، ورغم أن الدرقاوي عاد إلى الظهور مرات أخرى ؛ إلا أن المدينة لم تقم لها قائمة بعد ذلك حتى ظهور الاحتلال الفرنسي [1] .

وسيكون لهذه الانتكاسة التي عرفتها المدينة جراء العقاب الذي جرّه عليها موقفها من الثورة ، أثره البارز فيما بعد من خلال موقف كراغلتها السلبي من الأمير عبد القادر فقد خاف بعضهم أن يكون دعمهم للأمير –الذي لم يكن في نظر الكثيرين منهم غير واحد من الثائرين والذي لن يختلف مصيره عمن سبقوه– سببا في تكبيد المدينة مزيدا من العقاب الذي أنهك أهلها .

[1] ينظر : صالح عباد ، الجزائر خلال الحكم العثماني 1514م – 1830 هـ ، ط 3 ، دار هومة ، الجزائر ، 2011م ، ص : 205.

مازونة بعد دخول الفرنسيين :

وجد الاستعمار الفرنسي مدينة مازونة في وضع لا تحسد عليه ، أنهكتها الصراعات الداخلية والحملات التأديبية ، والضرائب الكثيرة التي فرضها الحكّام الأتراك على السكان ، كل حسب الطبقة التي ينتمي إليها .

هذا الوضع فرض على سكان المدينة غير القادرين على مواجهته الانتقال إلى جهات أخرى ، فقد دفعت الرغبة في الحصول على أراض أخصب ، وإمكانية المشاركة في المخزن الكثيرين من أبناء مازونة إلى النزوح نحو السهول المجاورة ، مشكّلين مجموعة من الدواوير مثل دوار سيدي عامر وأولاد عباس وغيرهما [1] .

هذه الوضعية ؛ حيّدت المدينة أن يكون لها الدور الريّادي في مواجهة المحتل ، بل احتفظت ببعض الاستقلال بعيدا عن الصراع الدائر بين القوات الفرنسية والمقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر ، لكن هذا الحال لم يدم طويلا فسرعان ما اضطرت المدينة لتنخرط في ركب المقاومة ، بل وفي قيادة إحدى أشد حلقاتها.

[1] M Belhamissi , op cit , p 55

مازونة والأمير عبد القادر :

بعد مبايعة الأمير عبد القادر لقيادة المقاومة ضد المحتل الفرنسي ؛ كان عليه مواجهة جملة من العقبات ؛ منها منافسة بعض العائلات المرابطية ، التي لم يعجبها فوز الأمير بهذه المكانة وفقدانها للحظوة التي كانت تأمل أن تكون لها ، ومن هذه العائلات أولاد سيدي العربي القاطنيين على حدود الظهرة .

ولقد استغل قادة الجيش الفرنسي هذه الحساسية خير استغلال وطمعوا في توظيفها لاستمالة بعض القبائل التي انهكها العوز ، لكنّ مقاومة قبائل الظهرة للمحتل كانت شرسة، ولم يفلح الجنرال بيجو في إخضاعهم إلا بعد أكثر من سنة من المواجهات المتتالية .

وفي سنة 1836م انتقل الأمير عبد القادر إلى جسر شلف ، فاعترضت قبيلة صبيح طريقه ؛ ولكنه قهرها واضطرها إلى النزول على حكمه وطلب العفو منه ، وهكذا وصل إلى جسر شلف في تحد صارخ وخرق تام للحظر الذي أصدرته الحكومة الفرنسية آنذاك [1] .

وأمام عجز الفرنسيين وانتصارات الأمير ؛ اضطر أولاد سيدي العربي خصوم الأمير للرّضوخ لحكمه ، لكنّ قائدهم وجّه رسائل الدعم لكراغلة تلمسان ومازونة،

[1] أ ف دينيزن ، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر ، ترجمة أبو العيد دودو ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2003 ، ص : 65 .

الذين كانوا مازالوا مستقلين عن أي سلطة حتى ذلك التاريخ ، ووقعت تلك الرسائل في يد الأمير فكان حسابهم عسيرا [1] .

وإذا كانت قبائل الظهرة قد واجهت المحتل ؛ وهو ما يعتبر دعما للأمير ، فإنّ أتراك مازونة وكراغلتها لم يعترفوا بسلطته ، بل إن قائدهم أعلن تبعيته للجنرال بيجو سنة 1842م .

وفي سنة 1843م أصبحت مازونة تابعة للحكم الفرنسي ، ودخلتها قوات الجنرال جونتيل (GENTIL) مع قوات المارشال بيجو ، التي كانت تقوم بعمليات توسعية في المنطقة ، وأعلن قائد الأتراك تبعيته لفرنسا في مكان يسمى القطايطية (واريزان حاليا) [2].

ردّ الأمير على هذا الموقف ردا سريعا وحاسما ، وطلب من المازونيين الانضمام إليه ، لكنهم رفضوا وقاوم أتراكها مقاومة كادت تفشل هجومه عليها ، فقام بإحراق مخزن بوعلوفة وأباح الحي التركي لرجاله الذين أحرقوا كل شيء فيها ، وبعد هزيمة الكراغلة نفى مجموعة كبيرة منهم إلى تاقدامت تأديبا لهم على صنيعهم [3] .

---

[1] M Belhamissi , op cit , p : 60

[2] تاريخ مدينة حمو موسى ، ص : 31 .

[3] M B elhamissi , op cit , p : 60

وبين 1841 و 1843م نفت فرنسا مجموعة من النسوة إلى جزيرة سان مرغريت كرهينات ؛ وذلك لانضمام أزواجهن أو أبنائهن إلى مقاومة الامير عبدالقادر ، ومنهنّ نذكر:

1. روبة أم الخليفة ابن دحمان الذى ثار على العدو بعد إعلان الطاعة له .
2. سيفة زوج أحمد بن عدة لنفس الدافع .
3. عربية زوج الخليفة ابن دحمان لنفس الدافع .
4. خيرة بنت جلول أم بن هني بوزيان لنفس الدافع .
5. خيرة بنت هني ابن بوزيان لنفس الدافع .
6. خيرة امراة من قبيلة صبيح ناحية واريزان [1] .

وبغضّ النظر عن موقف كراغلة مازونة من الأمير ؛ فإنّ سلطته على المدينة ولو روحيا كانت أمرا واقعا بداية من العام 1250 هـ- 1834م ، بدليل تعيينه للقيادات الدينية من أئمة ومفتين فيها كما يؤكّده الظهير الذي بعث به الأمير إلى أولاد الشيخ المهدي ، يقرُّهم من خلاله في مناصبهم ، ويفرض احترامهم على باقي الرعية ، ويسقط عنهم الفروض المخزنية المسلطة على بقية سكان المدينة [2] .

[1] أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج : 1 ، ص : 237 .

[2] ينظر : ظهير الأمير عبد القادر في الملحق رقم : 15 ، ص : 276.

ثورة بومعزة :

ومن شدة المظالم التي ارتكبها المستعمر ؛ شهدت منطقة الظهرة بما فيها مازونة وحوض الشلف انتفاضة الشريف محمد بن عبد الله المدعو بومعزة ، وعرفت هذه الانتفاضة بانتفاضة الظهرة ، واستطاع هذا الزعيم خلالها أن يكبّد القوات الفرنسية خسائر فادحة [1] .

بدأ بومعزة انتفاضته بالهجوم على القبائل المعادية له ، أو التي لم تعر اهتماما لحركته ، وركّز على القيّاد الذين عينتهم السلطات الفرنسية على المناطق التابعة لنفوذها ، مما دفع هذه السلطات إلى مواجهته في معركة قرب عين مران ، يوم 14 أفريل 1945م .

وقد كان لسكان مازونة دور في هذه المعركة لقرب موقعها من مدينتهم ، بأن أرسلوا أفواجا من المتطوعة لنصرة بومعزة ، وكان لدورهم الأثر البارز في نقل الانتفاضة إلى تنس ومنها إلى مدينة الأصنام(شلف) ذاتها [2] .

وما لبثت هذه الثورة أن عمّت منطقة شلف ، ومنها إلى الونشريس ، فلم تبق قبيلة في المنطقة إلا والتحقت ببومعزة ، مما دفعه إلى الهجوم على مدينة

[1] طاهر جنان ، مازونة عاصمة الظهرة ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري ، مكتبة الرشاد ، الجزائر ، 2005م ، ص: 27 .

[2] محفوظ قداش ، جزائر الجزائريين (تاريخ الجزائر 1830 / 1954م) ، المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار ، الجزائر ، 2008م ، ص : 109 .

الأصنام (Orléans ville) إلا أنه عجز عن افتكاكها من الفرنسيين بسبب قوة مدافعها [1] .

وأمام الفشل في مواجهة كبيرة مع العدو الفرنسي ، غيّر بومعزة من طريقة حربه ، واكتفى بسياسة الكر والفر ، ومهاجمة حلفاء الفرنسيين بشكل أساسي ، فنجحت هذه الخطة الجديدة ، وعجزت القوات الفرنسية رغم العدد الكبير من المفارز المسخرة لمطاردته ، أن تضع حدا لتهديداته ، بل ازداد التفاف القبائل والطرق الصوفية من حوله ، وازداد خصومه ، خوفا ورهبة منه ، خاصة بعدما استطاع الظفر باثنين من القياد الذين عيّنتهم فرنسا، وقتلهما شرّ قتلة [2] .

خصّص بيرار في كتابه (مدينتي تنس وبومعزة) قسما كبيرا لوصف سجالات بومعزة مع الجيش الفرنسي ، ومنها قصة قضائه على الآغا حاج أحمد أغا ونشريس، الذي قدم إلى مازونة ليصطحب خطيبة ابنه محمد لزوجها ، فاعترضه بومعزة ، الذي لم يلق كثير مقاومة من قبل الآغا .

وسبب تهاون الآغا في أخذ الحيطة هو الخضوع التام لدى قبائل صبيح وما جاورها ، ثم الإشاعة التي انتشرت عن مقتل بومعزة مما جعله يكتفي برفقة 150 فارسا فقط، أغلبهم من القياد وعِلية القوم ، ترافقهم نساء الآغا بحليهن ولباس الزينة تكريما للقادمة الجديدة [3].

---

[1] محفوظ قداش ،مرجع سابق ، ص : 109 .

[2] Y. Loukil , op cit , pp : 21 - 22.

[3] M.Jh.P.L. Berard , Les deux villes de Tenes et Bou Maza , Challamel Aine Librairie , Paris , 1864 , p : 76 .

لم يكن بومعزة ليفوّت مثل هذه الفرصة ، التي سيحقّق من خلالها جملة من الفوائد ، أهمها القضاء على واحد من ألّد أعدائه ، وإلحاق الإهانة به ، وبمن يخدم من السلطات الاستعمارية ، والفوز بقدر من الغنائم التي يحويها ركب العروس من حلي ولباس وجياد وغيره ... وأخيرا الزيادة في تضخيم الصورة الأسطورية التي حظي بها حتى ذلك الحين في نفوس القبائل الداعمة له التي بدأ الوهن يدب إليها بعد طول فترة المقاومة ، وعجزه عن تحقيق أملها في طرد المحتل .

وفي طريقه إلى مواطن قبائل صبيح ؛ التقي الشريف ببعض أنصاره الذين أخبروه بأن الآغا محمد بن الفرندي قائد قبائل صبيح موجود قرب عين مران ، في عدد قليل من رجال مخزنه معه حوالي عشرة من الصبايحية ، لجمع الضرائب المفروضة على رؤوس الأغنام ، فأسرع إليهم واستطاع القضاء عليهم ، في ظلام الليل .[1]

ألبس بومعزة رجاله ثياب الصبايحية الحمراء ، ليضلل الآغا الذي لقيه عائدا من مازونة في صباح اليوم الموالي ، فلم يحتط لمن لقيه ، ظانّا أن الصبايحية أصحاب المعاطف الحمراء هم رجال صديقه الآغا ابن الفرندي خرجوا يلقوا ركبه تكريما له ، فكانت المفاجأة ووقع الجميع في يد رجال بومعزة الذي غنم زيادة على الجياد والبغال وحمولتها مجموعة من النساء اللواتي أسرع سكان مازونة لشراء حريتهن منه[2].

---

[1] M.Jh.P.L. Berard, op cit , p : 78 .
[2] Ibid , p 78 .

وتبعا لهذا العجز في القضاء على بومعزة ، وتأديبا للقبائل التي ساندت ثورته؛ حدثت محرقة غار الفراشيش في شهر جوان 1845م ؛ بأمر السفاح بيليسيه [1] .

وغير بعيد عنها في الجغرافيا ولا في التاريخ ، وبالضبط في : 12 من شهر أوت ؛ تم ارتكاب جريمة أخرى من جرائم الحرب بقيادة الكولونيل سانت أرنو في مغارات الصبيحة على بعد 5 كيلومتر من عين مران [2] .

وتفصيل ذلك كالآتي : في شهر يناير 1845م ؛ وقعت معركة كبيرة بناحية الظهرة ، شاركت فيها عدة طرق صوفية ، منها القادرية ، والرحمانية ، والدرقاوية ، والطيبية ، وعرفت عند الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية .

وقد شاركت قبيلة أولاد رياح ــ التي كانت تقطن جنوب تنس ــ في هذه الثورة فغزاها بيليسيه وأحرق كل ما فيها ؛ مما استدعى فرار القبيلة – وهي تحارب – إلى ناحية غار الفراشيش [3] ، للاحتماء فيه من الخطر الفرنسي ، فاجتمع داخل الغار أكثر من ألف شخص رجالا ونساء وأطفالا ، مصطحبين معهم ما يستطيعون حمله من مال ، وما يسوقونه من حيوانات [4] .

---

[1] أصبح جنرالا ثم مارشالا ثم حاكما للجزائر فيما بعد خلال الستينات .

[2] محفوظ قداش ، مرجع سابق ، ص :111.

[3] يقع هذا الغار في منطقة تسمّى بالنقمارية قرب عشعاشة ولاية مستغانم حاليا .

[4] وكان هذا يوم 17 يونيو .

حاصر الفرنسيون الغار من جميع الجهات ، وطلبوا من القبيلة الاستسلام ، وأمام رفضها وإصرارها على عدم الاستسلام ؛ قرّر الفرنسيون القضاء على كل من في الغار ، واختاروا لذلك أسلوب الخنق بالدخان .

استغل العقيد الفرنسي ظلام الليل ؛ وجلب تعزيزات عسكرية ضيق بها الحصار على الغار ، وضاعف من إيقاد النار التي جمع لها أكوام الحطب من الغابة المجاورة ، ثم أحاط مداخل الغار بها ، وأضرم النار فيها ، واستمر على هذه الحال إلى الليلة الثانية [1] .

وكانت هذه المجزرة رهيبة إلى درجة أنها هزّت الجزائريين ، وأثارت ضجة في البرلمان الفرنسي انذاك ، ويذكر عبدالقادر بن عيسى المستغانمي في كتابه : مستغانم وأحوازها أن الفنان جاهونو رسم لوحة زيتية سنة 1845 م ، تعبر عن هذه الواقعة المهولة ، وسماها بمغارات الظهرة [2] .

وقد أثار بومعزة الرعب في جيش الاحتلال ، وفي القبائل التي تحالفت معه مثل قبائل صبيح ، وقوات الآغا الموسوس حاكم الونشريس ، والقايد حاج صدوق حاكم منطقة مديونة ، الذي قتله بومعزة هو وقائد قبائل صبيح القايد بلقاسم ، كما استطاع أن يصد هجومات المقدم ميلينيت على تحصينات مستغانم .

[1] إسماعيل العربي ، المقاومة العربية تحت لواء الأمير عبد القادر ، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1982 ، ص : 285 .

[2] عبد القادر بن عيسى المستغانمي ، مستغانم وأحوازها عبر العصور تاريخيا وثقافيا وفنيا ،ط 1، المطبعة العلاوية ، مستغانم ، 1996 ، ص : 31 .

لكن اجتماع قوات هذا القائد (ميلينيت) مع قوات " سانت أرنو " قائد الأصنام (orleansville) ، والكولونيل " جيري " ، والرائد " برت " قائد تنس ؛ اضطرت بومعزة إلى التراجع ومحاولة الابتعاد عن المواجهة قدر المستطاع [1] .

وبعدها التحق بدائرة الأمير في المغرب الأقصى ، حيث أقام فترة من الزمن ثم عاد إلى منطقة الظهرة التي شهدت انتصاراته الأولى ، وهناك حاول النهوض من جديد ، لكنه فشل بسبب القمع الوحشي من طرف جيش الاحتلال والذي أشعل منطقة الظهرة لهبا كاد يفني الحياة فيها [2].

وأمام هذه الوحشية ، والفارق الكبير في الإمكانيات ، وحجم الخسائر التي لاقاها سكان مازونة والظهرة عموما سلم بومعزة نفسه للجنرال " سانت أرنو " وذلك بتاريخ : 13 ماي 1847م ، فدفعه إلى المارشال " بوجو" الذي حمله إلى فرنسا وسجن عدة سنوات ، بعدما شملت ثورته عدة مناطق ، وتنقل في نواحي عديدة في المنطقة كالظهرة والشلف وافليتة والونشريس ، مستعملا أساليب كثيرة فكان يظهر ويختفي بسرعة ، وكان العدو يطارده في جهة ؛ فإذا به يظهر فجأة في جهة أخرى [3].

وفي 18 نوفمبر 1869م ؛ دخلت مازونة نهائيا تحت الحكم الفرنسي ؛ وخمدت ثوراتها ، فتم تقسيم المدينة إلى ثلاثة أحياء ؛ وهي :

---

[1] عبد القادر بن عيسى المستغانمي ، مرجع سابق ، ص : 31 وما بعدها

[2] M Belhamissi op cit p : 60

[3] الآغا ابن عودة المازاري ، مصدر سابق ، ج : 2 ، ص : 222 .

1. حي بوماتع .
2. حي بوعلوفة .
3. حي القصبة [1] .

وفي 1871م تم تأسيس بلدية على الأراضي المقتطعة من أملاك قبائل مديونة ، وأطلق عليها اسم رونو ؛ نسبة إلى الكولونال رونو ، الذي قتل في معركة ضد الألمان في منطقة الألزاس واللورين سنة 1870م بالحدود الفرنسية الألمانية ، وعلى إثر هذه الحرب تم إرسال اللاجئين الفرنسيين الذين كانوا يقطنون في المنطقة إلى بلدية رونو [2] .

ألحقت مازونة بعد ذلك بالبلدية الجديدة ، التي أصبحت دارا للحاكم الفرنسي على المنطقة ، وبدأت مرحلة الأفول ، ولم يعد يذكر من المدينة غير مدرستها التي بقيت تشع نورا رغم التضييق ، إلى حين قضت سياسة محاربة التعليم المتبعة من المستعمر على ما بقي منها .

[1] لا زالت بعض أحياء المدينة تحمل هذه الأسماء إلى اليوم ؛ غير أن الآثار العمرانية قد زالت ولم يبق إلا الأقواس العثمانية بحي بوماتع والمدرسة الفقهية .

[2] M Belhamissi , op cit , p : 83

الفصل الثاني :

التاريخ الاجتماعي

المبحث الأول : الطبقات الاجتماعية في مدينة مازونة.

المبحث الثاني : الطبقات الاجتماعية في ريفها .

المبحث الثالث : الآفات الاجتماعية .

المبحث الرابع : العادات والتقاليد في مازونة .

لم توفر لنا المصادر التاريخية في العهد العثماني عموما إحصائيات دقيقة عن سكان الجزائر ريفها ومدنها ، وإن كانت الطبقات الاجتماعية التي سكنت هذه المدن قد حددت بالتفصيل ؛ إلا أن عدد أفراد كل طبقة يكاد يكون مجهولا في أغلب المدن الجزائرية ، ولم تشذ عن هذه القاعدة غير مدينة الجزائر نسبيا ؛ كون بعض الكتاب الأوروبيين من قناصل ورحالة عدّدوا أفراد هذه الطبقات ولكن ليس بنفس الدقة بالنسبة لكل فئة .

وإذا كان هدا حال مدينة الجزائر ؛ فإن حال باقي المدن يختلف تماما ، فكلما قل شأن المدينة كلما كانت المعلومات عنها أشحّ ، فمازونة رغم كونها عاصمة لبايليك الغرب لمدة ليست باليسيرة ، لا نكاد نجد أثرا يدل على عدد سكانها ، بل حتى التصنيف المشهور والذي يقسم طبقات المجتمع في أغلب مدن الجزائر إلى ست فئات ؛ لا نستطيع تبنيه بشكل تام في مازونة .

ويمكن في مدينة مازونة تمييز الطبقات الاجتماعية التالية : الأتراك وهم رأس هرم السلطة ، والكراغلة ، والبرانية ، واليهود . أما المسيحيون فلم تذكر المصادر التاريخية لهم أثرا فيها .

وبخلاف المدينة فإن ريف مازونة ،لم يختلف عن باقي أرياف الجزائر ، وله تقسيم خاص نراه فيما بعد .

الطبقات الاجتماعية في المدينة :

الأتراك :

يشترك أتراك مازونة – والجزائر عموما – في النسب السياسي إلى أسرة آل عثمان الحاكمة للدولة العثمانية ، لكنهم يختلفون من حيث أصولهم ومواطن قدومهم إلى الجزائر ، فمنهم البلغاريون ، واليونانيون ، والكريتليون والألبان والإيطاليون والآناضوليون [1] وغيرهم من مختلف الأجناس ، التي تبعت الرابطة العثمانية ، يجمعون من مختلف الآيالات العثمانية عزّابا ليشكلوا فرق اليولداش ، ويكونون غالبا من الفقراء والمهمشين في موطنهم الأصلية .

يقوم أناس مختصين بالتجنيد بإغرائهم ووعدهم بالحياة السعيدة والثروة الطائلة في الجزائر ، ثم يلتحقون بإحدى الفرق العسكرية ، التي لا يقومون فيها بأيّ عمل ذو بال ، ولا حتى بتدريب عسكري كبير ؛ غير تعلم الرماية ، أو المشاركة في الحراسة عندما تجيء نوبة أوجاقهم [2] .

منع هؤلاء المجندون في البداية من الزواج ، وفي حالة حصوله يفقد المقدم على الزواج جملة من الامتيازات القليلة التي يحصل عليها جنود الانكشارية ، خاصة

---

[1] كان العنصر الآناضولي هو الطاغي في بداية الوجود العثماني ، لكنه بدأ يعرف تقلصا إلى أن أصبح أقلية .

[2] جمع وجق والوجق كلمة تعني البيت في الأصل ، وتستخدم للدلالة على الوحدات العسكرية المشكلة من 11 إلى 30 رجلا ولكن هذا المصطلح استخدم للدلالة على كامل الجيش ثم أخيرا على الوجود العثماني بالجزائر .

ينظر:

P . Boyer La vie quotidienne a Alger a la veille de l'intervention francaise , ed Hachette , Monaco , 1964 , p : 127

الإعفاء من الضرائب والتخفيضات على الأثمان ، وعوض التكفل به في وجبات الغذاء يصبح مضطرا إلى تحمل نفقات أسرته إعتمادا على راتبه الضعيف [1] .

ولهم بعد مدة من الزمن حق المتاجرة في المدينة ، أو إقامة محل لحرفة من الحرف دون أن يفقدوا صفة الإنكشاري [2] .

كما أصبح لهم في عهد الدايات الحق في المشاركة في الحملات القرصنية على السفن والشواطئ الأوربية ، وكان كل الإنكشاريين يأخذون نصيبهم من الجوائز التي يجلبها القراصنة أثناء العودة سواءاً شاركوا في تلك الأعمال أم لا [3] ، وعند بلوغ أحدهم درجة عسكرية عالية يصبح له طرق عديدة لجمع ثروة ليست بالبسيطة تؤهله لبناء مسكن لائق وشراء ملكية عقارية في فحص المدينة التي يقيم بها .

بمجرد وصول اليولداش الجديد إلى الجزائر ؛ يقوم الكتاب بتسجيله في سجل إداري يعرف بسجل الإنكاشرية ، يسجل فيه اسمه واسم والده واسم المدينة التي قدم منها ومهنته السابقة التي قد يستقي منها كنيته ، ثم يسجل رقم وجقه ، ويترك مكان أسفل هذه المعلومات ليسجل فيه المبالغ المالية التي يتقاضاها كأجرة كل

---

[1] بالبراوات بن عتو ، المدينة والريف بالجزائر في أواحر العهد العثماني ، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث ، جامعة وهران، 2007 م — 2008 م ، ص : 114 .

[2] ذكر محمد بن يوسف أن لفظ (يولدش) يعني جندي و(الانقشرية) العسكر الجديد ، وذلك أن السلطان مراد خان عثمان اتخذ مماليك سنة 94 فساهم بهذا الاسم فهو أول من سمى به . محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينةوهران، الجزائر1978م ، الشركة الوطنية للنشر ، ص : 189.

[3] وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص : 58 .

شهرين بعدها يحصل الجندي الجديد على البدلة الرسمية وكذا تجهيزه الحربي المشكل أساسا من بندقية ويطغان الذي يقدم له كإعارة ، وفي حالة ضياعها يقتص ثمنها من راتبه ، وعند مشاركته في الحملات العسكرية يقدم له نعلين يدفع له ثمنهما لاحقا [1].

إن مدة الشهرين التي ينتظرها اليولداش قبل حصوله على راتبه ، تدفعه في كثير من الأحيان إلى طلب تقديم من أحد تجار اليهود ، مقابل وصل يشهد بهذا الدين، فإذا جاء موعد الراتب اقتص منه الدين قبل أن يسلم الباقي إلى الجندي ، غير أنه وفي حالة وفاة اليولداش قبل موعد الراتب ؛ فإن الحكومة لا تلتزم بدفع هذا الدين .

ورغم أن مصاريف الجندي تبدو غير كبيرة ؛ إلا أنه غالبا ما يلجأ إلى هذه الاستدانات، ربما لأنه يفضل أن يصرف كل نقوده على أن يدخرها ، وهو غير آمن على حياته ، فقد أورد شالير أن حظوظ التركي وثروته شيء محفوف بالخطر طوال حياته [2] .

يسكن اليولداش في قشلات (ثكنات) يلازمونها ، ولا يسمح لهم بالخروج إلى المدينة إلاّ يوم الخميس ، وتحت مراقبة حارس مسؤول عن سلوكهم وذلك حتى

---

[1]_ V . De Paradis , Alger au 18 [em] siecle , ed Bouslama , Tunis , 1980 , p : 57.

[2] وليام شالر ، مذكرا ت وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816 _ 1824 تعريب وتعليق إسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982 ، ص : 78 .

يبلغوا سنا معينة أو كما يقول شالير : " حتى تنموا لحاهم وحينئذٍ يسمح لهم بلبس الطربوش والاختلاط بالنّاس على مسؤولياتهم " [1] .

وقد عرف عن هؤلاء الجنود أنهم ملتزمون بحسن السلوك واحترام الدين ، لكن ذلك لا يمنع من وجود بعض التحلل أحياناً ، "وهو سلوك يميز الجنود عامة " حسب ما يذكر القنصل الأمريكي "شالر".

ويذكر أيضا : " أن الحكومة الجزائرية كانت تسمح بفتح المواخير التي يديرها اليهود لتسلية هؤلاء الجنود حيث يسمح لهم هناك بتعاطي الخمور غير أن ذلك مشروط بعدم وقوع فضائح خاصة أمام الجماهير وذلك احتراما للشعور العام و كل تجاوز لهذا الشرط يعرّض صاحبه لأقسى العقوبات " [2].

وإذا كان أمر جمع هؤلاء الجنود في بداية عهد الأتراك في الجزائر موكولا للباب العالي ؛ فإن الأمر لم يعد كذلك في نهاية عهدهم ، فباستقلال الدايّات أصبح من حق كل المغامرين – ومن جميع الأجناس التابعة للرابطة العثمانية ومن المسيحيين الذين يعلنون إسلامهم – الالتحاق بجماعة اليولداش ، وبذلك أصبح نظام الأوجاق أقرب إلى ما يعرف باللفيف الأجنبي .

وحتى لا ينافس هذا اللفيف أي طرف في السلطة ؛ فإنهم منعوا أيّاً من الأهالي من الاشتراك في الحكومة ، بل وحتى الكراغلة الذّين هم أبناؤهم من أمّهات جزائريات؛ منعوا من المشاركة فيها ، بخلاف أبنائهم من الأسيرات

[1] وليام شالر ، مصدر سابق ، ص ص : 54 _ 55 .

[2] نفس المصدر ، ص : 55 .

المسيحيات فإنهم كانوا يرثون نفس الامتيازات التي تمتّع بها آباؤهم من قبلهم . وهي مفارقة غريبة لا يفسرها غير محاولة الأوجاق قطع الطريق أمام قيام أي شعور وطني حول هذا العنصر البشري ، الذي يربطه بالوطن علاقة الخؤولة .

والأتراك [1] المقيمون في الجزائر كلّهم أساساً من الجنود ، ولكّنه توجد طائفة منهم – وهي أقلّية من المدنيين – جاءت من تركيا ، أو تشكلّت من الجنود المتقاعدين من الجيش ، ويسمى الواحد منهم "أفندي" أو "خوجة " أي الكاتب ، وهم ممن " يعرفون الكتابة أو على الأقل قادرون على معرفة القراءة والكتابة ، وهذه الفئة تتمتع بامتيازات كبيرة وتوفر كتاب الإدارة الحكومية " [2].

وقد تميز هؤلاء الأتراك أو العثمانيون _كما سبق الذكر _ عن بقية السكان؛ بأنهم – كلهم حتى الذين جنّدوا لتوّهم في الأوجاق – يعتبرون سادة ويفضلّون عن غيرهم من السكان ، كما تميّز هؤلاء الأتراك عن غيرهم من السكّان في نوع اللّباس الذي كانوا يلبسونه[3].

[1] وقد اختلف المؤرخون في عدد هؤلاء الأتراك ، غير أنهم متفقون جميعهم على أن هذا العدد في أقصى الحالات لا يتعدى العشرة آلاف ، كما أنهم مجمعون على أنه كان في تناقص مستمر في الفترة المدروسة لعدة اعتبارات ؛ أهمها عزوف الأوجاق عن استجلاب أعداد كبيرة من الجنود ، يكلّفون الخزينة أموالا هي في وضع لا يسمح بتوفيرها بعد تناقص مواردها من القرصنة ، وكذا من الضرائب بعد تعرض البلاد لجملة من الانتفاضات الشعبية في مختلف بايليكاتها.

[2] وليام شالر ، مصدر سابق ، ص : 54 .

4 Mouloud Gaid , L’Algerie sous la domination turque , (Tunis ، Maison tunisienne de l’edition , 1975) p : 199.

ولذلك كانوا يعرفون بسهولة ، ويفسح لهم في الطريق ، وقد أورد دو تاسي وصفا مستفيضا لهذه الملابس .[1]

الأعلاج :

الأعلاج لقب أطلق على المسيحيين الذين أسلموا ، وأصبحوا يتمتّعون بكامل حقوق الأتراك بعد كونهم أسرى ، شريطة ألا يعارض أسيادهم عملية العتق، التي قد تتأخر حتى تصل فديته من بلده الأم ، وقد أصبح هؤلاء الأعلاج سادة الغزو البحري، ومصدر توسع أعداد الأتراك في الجزائر الأساسي [2] .

وقد وضح ويليام اسبنسر – في حديثه عن البحرية الجزائرية في العهد العثماني، إمكانية وصول أي واحد منهم إلى أعلى المناصب في هرم السلطة ، وأنّ الوضعية العامة لكل هؤلاء الأعلاج تبدو في غالب الأحيان أحسن بكثير من غالبية السكان غير الأتراك [3] .

وينقل الدكتور بلبراوات نقلا عن فرونسوا أرنولي أنّ هؤلاء الأعلاج حافظوا على روابطهم بمواطنهم الأصلية رغم اعتناقهم الإسلام ، مما جعلهم يتميزون عن غيرهم من الأتراك على الأقل بحفاظهم على بعض الألقاب المستمدة من مساقط رؤوسهم [4] .

---

[1] Laugier de Tassy , op cit , pp : 59 _60.

[2] بلبراوات بن عتو ، مرجع سابق ، ص : 121 .

[3] وليام اسبنسر ، الجزائر في عهد رياس البحر ، تعليق وتعريب د . عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1980 م ، ص : 82 .

[4] بلبراوات بن عتو ، مرجع سابق ، ص : 122 .

وقد تعاظم دور هؤلاء الأعلاج ، حتى وصلوا إلى أعلى المناصب ؛ كالآغا ووكيل الحرج والقايد ، بل حتى الخزناجي أو الداي مثل حسن قورصو وحسن فينزيانو، غير أن هذا الدور تراجع ؛ لانخفاض أعدادهم اخفاضا ملموسا ؛ مع أواخر العهد العثماني ، إذ كان من جملة سبعة وثلاثين ضابطا متوفيا – خلال الفترة الممتدة بين 1807 و 1826م – علج واحد فقط ؛ هو الرايس علي إنجليز [1] .

ويتدرج التركي القادم إلى الجزائر في مراتب الجيش كالآتي :

- "أني يولدش": الجندي البسيط الصغير الذي التحق حديثا بالعسكرية .
- "أصكي يولدش":الجندي القديم ، الذي عمل ثلاث سنوات .
- "باش يولدش": رئيس فرقة متكونة من عشرين جنديا إلى خمسة وعشرين .
- "وكيل الحرج ": المكلف بالأسلحة الداخلة والخارجة وصناعتها ،والمتصرف في شؤون الدولة العسكرية برا وبحراً .وهو أيضا المقتصد للحامية ،أو الفرقة أو الكتيبة ...
- "أداباشي": قبطان السرية .
- "بولاكباشي ": رئس الفرقة ، أو كتيبة ، أو فيلق...
- "آغا ": وهو لقب تشريف يأتي بعد لقب "بولاكباشي" [2] .

---

[1] عائشة غطاس ، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700م / 1830 م مقاربة اجتماعية واقتصادية ، أطروحة دكتوراه دولة ، جامعة الجزائر ، 2000م – 2001م ، ص ص : 17 _ 19 .

[2] بوشنافي محمد ، الجيش الإنكشاري خلال العهد العثماني في الجزائر (1700 – 1830 م) ، رسالة لنيل شهادة الماجستير ، جامعة وهران ، 2001 – 2002 م ، ص ص : 264 – 266 .

وبعد خدمات قصيرة في الجيش يحال الآغوات على التقاعد ، ويبقون يتقاضون مرتباتهم كما هي بالتمام [1] .

وعلى ضوء ما تقدم في هذا الملخص ؛ يبدو لنا أن نظام الحكومة التركية بالقطر الجزائري كان عسكريا في غالب الأحوال ، ونلاحظ أيضا أن أقحاح الأتراك قد كانوا عددا قليلا ، موزعا على أنحاء القطر الجزائري .

الكراغلة :

هم طبقة المولّدين من آباء أتراك وأمهات جزائريات ؛ وقد حاول هؤلاء الكراغلة في كثير من الأحيان انتزاع حقوق مماثلة لتلك التي ينعم بها آباؤهم ، فحصلوا على كثير منها ، لكن وبعد ثورة 1630م التي جرّت عليهم النفي حرموا من المشاركة في الديوان واليولداش ؛ إلا ما كان حالة استثنائية ، فقد أصبحوا موضع شك دائم من الأتراك ، فاستبدلوا خدماتهم في الإدارة بخدمات غيرهم من الجزائريين ، كما استعانوا في إدارة شؤونهم – وخاصة المالية منها – باليهود ، ولم يعودوا للمشاركة السياسية إلا عندما استعان بهم الداي علي خوجة في حركته الانتقامية ضد طبقة اليولداش الذين أكثروا التمرّد [2] .

وقد دام هذا الشك والريبة بين الأتراك والكراغلة ، قرابة القرنين من الزمن ، لم يصل خلالها واحد من الكراغلة إلى منصب في البلاط ؛ رغم أن المليشيا الكرغلية كانت تتقاضى رواتبها خوفاً من سخطها ، وبعد ذلك فكّر الكراغلة في

---

[1] Laugier de Tassy , op cit , PP : 136 _ 138 .

[2] عبد الرحمان الجيلالي ، مرجع سابق ، ص : 328 .

استعطاف آبائهم ونيل رضاهم [1] فكان لهم ذلك - كما سبق الذكر - على يد علي خوجة ثمّ على يد الداي حسين ، الذي عيّنهم في بعض المناصب العليا ، كأحمد باي الذي عُيّن باياً على قسنطينة .

ولا يمكن اعتبار حركة الكراغلة ضدّ الأوجاق ، أنّها تصوّر مسبق لدولة تخدم مصالح الطبقة الأرسطوقراطية المكوّنة من العائلات الجزائرية الكبيرة ؛ بقدر ما هو محاولة من الكراغلة لقلب هيمنة الأوجاق على السلطة إذن فهي حركة ضّد الأوجاق أكثر منها ضّد الأتراك [2] .

ويرى بوير أنّ مسألة الكراغلة أو مشكلة الكراغلة _كما يسميها _ انطلقت منذ بداية الصرّاع بين الباشاوات والأوجاق ، فقد يستطيع الباشاوات وفيما بعد الدايات من تحريك الكراغلة ضّد مشاغبات اليولداش ، بل قد تتحول تحالفاتهم الوطنية إلى قوّة تعيد النظر في ميزان القوى ، وإلى تنحية الوجود التركي من الجزائر كلياً[3] .

وعلى كلّ حال ؛ فإن حركة الكراغلة فشلت في تحقيق مساعيها أيّاً كانت ، ومنع الكراغلة من أيّ منصب في الأوجاق أو في الديوان .

---

[1] حمدان خوجة ، المرآة ، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري ، ط 2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982، ص : 121 .

[2] A.M.Boudia , La formation sociale algerienne precoloniale , (Alger : o.p.u , 1981) , p : 333.

[3] ibid , PP : 332_333 . voir aussi : Boyer , “ Le probleme kouloughli sous la regence d’Alger ” , article paru in la revue d’occident musulman , n special ,1970 , PP : 81-82 .

وتبعا لذلك قامت عدة حركات تمرد ؛ لكّنها لم تأخذ نفس البعد ، ولا نفس القوّة ، وأنها كانت غالبا ما تقوم للدفاع عن بعض المصالح المهدّدة هنا وهناك ، أو لدعم طرف من الأطراف التركية المتصارعة على السلطة .

ورغم محاولات الأتراك المستمرة في إبعادهم عن مراكز السلطة ، وفي تقليص تزايدهم العددي ؛ استمرّ الكراغلة في الاستفادة من وضعية مادية متميّزة ، زادت في البروز بعد تحول الأتراك إلى الاعتماد بشكل أكبر على المداخيل الضريبية ، بعد تقلّص المداخيل البحرية ، فقد أصبح الكراغلة قوّة داعمة ضرورية للأوجاق وللدّايات، كلّما وقع هؤلاء في صدام مع الجند ، الشيء الذي جعلهم يجنون منافع تعوّضهم عن خسارة الموقع السياسي الذي فقدوه مع بداية القرن 17 م .

وإذا لم يرث الكراغلة عن آبائهم الامتيازات السياسية والاجتماعية ، فإنهم ورثوا عنهم انتماءهم المذهبي ، إذ جلّهم أحناف كآبائهم بخلاف بقية السكان ذوي المذهب المالكي .

الحضر :

يتشكل الحضر من عنصرين اختلطا ، وهما عنصر الأندلسيين وعنصر البَلْدِيِين سكان المدن الجزائرية القدامى ، وكان كلا العنصرين يعيشان من ثمار تجارتهما ، أو من الحِرف التي يمارسها أفرادهما ، وقد حافظ الأندلسيون على خصوصيتهم ، فقد كانوا يعيشون في جماعات حسب انتماءاتهم الجغرافية السابقة[1]، أملا في العودة القريبة إلى مواطنهم .

---

[1] Mouloud . Gaid , op cit , p : 201.

ومع مرور الوقت ؛ اندمجت هذه التجمعات في طبقة الحضر ، حتى لم يعد يفرقهم غير بعض التسميّات التي ورثوها عن أصولهم ، كما حافظ الأشراف ذوو الأصول الهاشمية والعلوية على تميّزهم .

وقد تميز الحضر بتقاليد خاصة ، جعلتهم يؤلفون طبقة اجتماعية متميّزة بالوضع الاقتصادي الميسور ، وباهتمام أفرادها بالمهن الصناعية والتجارية ، وشغلهم للقضاء والسلك التعليمي ، كما ظهر من هذه الطبقة البحارة المغامرين والفقهاء والعلماء .

هذا الوضع المتميّز لأفراد هذه الطبقة ؛ دفع أبناءها إلى تنمية ثرواتهم واستثمار مزارعهم الواقعة في فحوص المدن التي يسكنونها ، الشيء الذي خلق برجوازية صغيرة بالمدن خاضعة للبايليك ، وقليلة الاهتمام بالصراعات السياسية وشؤون الحكم ؛ لكّنها مسيطرة على مقاليد الحياة الاقتصادية ، وبخاصة خلال القرنين السادس والسابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر [1] .

ورغم هذه السيطرة التي لم يكدرها غير تعاظم النفوذ اليهودي في اقتصاديات البلاد ؛ إلا أنهم لم يحاولوا تغيير نظام الحكم ، أو مجرد التأثير لتعديل أسلوب الحكام في تسيير شؤون البلاد الاقتصادية .

وقد بقيت هذه الطبقة قاصرة عن لعب الدور الذي لعبته البرجوازية الصغيرة في أوربا اجتماعيا وسياسيا ؛ خاصة في بداية العهد العثماني في الجزائر ، عندما كانت تتمتع بكل المؤهلات من ثروة وسيطرة على مقاليد الاقتصاد في البلاد .

[1] A.M.Boudia , op cit , p : 350 .

وربما يعود ذلك إلى تعرّضها لعمليات التغريم والمصادرة والتضييق ، من قبل الحكام الأتراك ، وتخوف الأتراك والكراغلة منها ، وترفّع أفرادها عن بقية الطبقات الدّنيا ؛ ما جعلها تعيش جوا من اللااستقرار الدائم بين الطبقة الحاكمة وبقية الرعية[1] .

كما أن نظام الاحتكار الذي أقرّه الدايات المتأخرون ، وتنفّذ اليهود في السلطة ؛ قضى على امتيازات هذه الطبقة .

الأندلسيون:

رغم أن أغلب الأندلسيين كانوا يعتبرون أنفسهم مجرد مهاجرين في بادئ الأمر؛ إلا أن تواجدهم بالجزائر كان عامل ازدهار اقتصادي وثقافي ، ساهم في التطور العمراني والنمو البشري . فقد ساهم الأندلسيون في عودة الحياة في الكثير من المدن الساحلية الميتة ، كما أنشئت مدن لم يكن لها وجود قبلهم .[2]

وقد أحسن الأندلسيون في استخدام مهاراتهم التي اكتسبوها بالأندلس ، وخاصة في المعاملات المالية والتبادلات التجارية ، فاحتكروا الحياة الاقتصادية بالمدن، كما ساعدهم تمرسهم في مجال البحرية ، واطلاعهم على بلاد النصارى على احتكار المبادلات التجارية مع هذه البلاد .

---

[1] سعيدوني والبوعبدلي ، الجزائر في التاريخ ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ج : 4 ، ص : 99 . وانظر كذلك : A.M Boudia op cit , pp : 350 _ 351 .

[2] المهدي البوعبدلي وناصر الدين سعيدوني ، مرجع سابق ، ص : 98 .

ويجزم بوديكور على أنهم كلهم يمتهنون التجارة ؛ بل ولا يرون صنعة أشرف ولا أحسن منها ، وأن القادرين منهم يفتحون محلات بالمدن لبيع الزرابي والعطور وغيرها ، وأنهم وإن لم يبيعوا شيئا خلال النهار ؛ إلا أنهم يقضون يومهم بها يتقصون الأخبار ، ويتبادلون الحديث مع من يعرفون من المارة ، وأنه إذا انشغل أحدهم واضطر للغياب عن محله بقضاء حاجة ما؛ فإنه يترك محله مفتوحا تحت رعاية جاره ، وأن هؤلاء التجار يشكّلون عائلة فيما بينهم [1].

كما انعكست الهجرة الأندلسية إلى الجزائر على الجانب العمراني ، إذ أنشئت مدائن جديدة ، نذكر منها مدينة القليعة ، عنابة ، وكذلك أرزيو ومستغانم، وأنشأوا بها المرافق العامة بإقامة العيون وإنشاء السواقي ، وجلبوا المياه داخل المدن ونظموا الريّ ، ونشّطوا الجانب الاقتصادي ؛ ففي الزراعة تمكّنوا من استصلاح مساحات شاسعة من الأراضي ، بنواحي متيجة وشرشال بفضل مهارة فلاحي فلانسيا وأراغون ، وتميزت محاصيلهم بالوفرة والجودة .

أما في المجال الصناعي ؛ فقد أقاموا المشاغل ، وأنشأوا الورشات ، وزاولوا مختلف المهن كالحدادة والنجارة والخياطة ومعالجة الخزف والجلد والحرير ، وطوّروا صناعة الأسلحة ، وتحضير البارود وصناعة السفن .

والجدير بالملاحظة هو أن نشاطهم التجاري وخدماتهم الإدارية ، كانت أقلّ شأنا وأهمية ، فقد اشتهروا بتحصيل الضرائب ، وجمع موارد الخزينة للإدارة التركية ،

---

[1] Louis de Baudicourt , La Guerre et le gouvernement de l’Algerie , Sagnier et Bray edition , Paris ,1853 , PP : 184_185 .

وساعدوا إلى حدّ كبير في جعل العملة الإسبانية تشيع بين الأهالي ، ويُتعامل بها بين حكام الجزائر وباقي الدول الأوربية .

ولعّل ما ميّز الوجود الأندلسي بالجزائر ، هو مشاركة الأندلسيين في تدعيم الوجود التركي بالجزائر ، ما جعل لهم مكانة مميزة لدى السلطة وذلك بتدعيم وحدات الجيش .

ذكر ناصر الدين سعيدوني أن حوالي 500 فارسا أندلسيا من أهالي غرناطة وأراغون وبلنسية ؛ قاموا بمساعدة القوة التركية المشكلة من 1000 جندي من المشاة، استعان بهم عروج بربروس للتمكن من تشتيت قوة حاكم تنس وأعوانه ، في معركة وقعت قرب الشلف .

" كما استعان الحكام الأتراك في حكم المدن التي أخضعوها لأول مرة بحاميات أندلسية ، تلك الحاميات التي أوكل أمر الحراسة لها في أغلب المدن ، مثل مدينة المدية التي نصب بها الأتراك حامية من الفرسان الأندلسيين مع بعض المشاة من الأتراك ... " [1].

سبق الذكر أن الأندلسيين اعتبروا أنفسهم في مرحلة هجرة مؤقتة ، ولذلك كان وضعهم الاجتماعي مميّزا ؛ إذ رفضوا الاندماج في المجتمع إلى عهد متأخّر ، وهذا ما جعلهم يحجمون عن التزاوج خارج جماعتهم .

---

[1] سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م ، ص : 139 .

فالمرأة الأندلسية نادرا ما تتزوج من غير الأندلسي ، إلا إن اضطرتها الحاجة والفقر إلى ذلك ، وربما يعود ذلك إلى كونهم أكثر ثقافة وتطورا من ناحية الذوقيات والأريحيات ؛ كآداب المأكل والملبس ، وأسلوب العيش الراقي ، وازدهار فن العمارة والموسيقى والمعاملات المتحضرة ، التي ورثوها عن موطنهم الأصلي .

بل حتى لغة التخاطب عند الأندلسيين كانت مميّزة ؛ لغناها بالمفردات الدالة على غنى الحياة المادية والفنية للأندلسيين ، ما أدى إلى تأثر سكان الحواضر الكبرى بهذه اللغة وغيرها من عادات الأندلسيين ، وطبعها بالوحدة على خلاف تنوع عادات أهل الريف ، التي تقوم على توجيهات شيوخ الطرق الصوفية في أغلب الأحيان ؛ كما يرى أبو القاسم سعد الله .[1]

ومن إيجابيات هذا التميز اللغوي ؛ انتشار استعمال اللغة العربية في بعض المناطق التي كانت ما تزال تستعمل لغتها البربرية الأصلية ، خاصة في المدن الساحلية .

" ... ومن جهة أخرى ، عملوا في نطاق الحواضر على شيوع استعمال مفردات إسبانية ، وانتشار تعابير لغة الفرانكه Langua Franca ، التي يغلب عليها الطابع الإسباني ، وذلك في مجال الأعمال التجارية والعلاقات الخارجية ، في حين ظلت بعض العائلات الأندلسية المحافظة تتداول اللغة الإسبانية لفترة طويلة "[2] .

[1] أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ج : 1 ، ص : 154 .

[2] سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، ص : 145.

والشيء الذي ساعد أيضا في انتشار هذه اللغة ؛ هو تداولها من قبل الوكلاء الأوربيين من خلال المعاملات التجارية السائدة بين الجزائر و أوربا .

الأشراف:

تميزت فئة الأشراف بالمكانة الرفيعة ، والحضوة لدى السلطة ، وكذا أفراد الشعب ، ذلك أن نسبهم الشريف وأصولهم العريقة ، التي تعود إلى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلّم – كانت سبب هذه المنزلة المهمة في المجتمع ، وليس هذا بدعا من الأحوال ، فقد قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بتفضيلهم في العطاء عندما نظّم ديوان العطاء.

ويذكر الورتلاني كلاما طويلا حول وجوب احترام الأشراف وتعظيمهم نذكره على طوله توضيحا لسبب تميزهم بهذه المكانة :

" ... يجب على الناس تعظيم الأشراف أيَّ تعظيم ومحبتهم ، واعتقادهم لوجه جدهم الذي انتموا إليه وانتسبوا إليه ، وأن يعتقدوا أيضا أن الله يغفر لهم لا لشيء أسلفوه ولا لأمر فعلوه ، وإن وقعت منهم إذاية لأحد ؛ فيجب أن يعتقدها كالأمر السماوي من الله وكالغرق والحرق ...

فأنت ترى ـ أيها المخاطب ـ إلى هذا الجانب الأعلى من التعظيم ؛ فكيف يُغضون ويُؤذون ، وإن ذلك من أكبر المقت ، وقد قال القسطلاني في المواهب اللادونية في السيرة النبوية : من المعاصي التي لا تغتفر أصلا ، ولا تقبل فيها التوبة؛

بغض آل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقوله تعالى : " قل إن كان آباؤكم ...إلى قوله : والله لا يهدي القوم الفاسقين " [1] انتهى .

فإن قلت : كلّ الناس يدّعي الشّرف ، وتعظيمهم مشقة عظيمة ، وعسرٌ عظيم في الدين ، وتصديقهم تعسف فيه ؛ فكيف العمل ؟ فهل يصدق الجميع أم يكذب الجميع ، أم البعض دون البعض ؟ ، وتصديق الأول باطل ، وكذا الثاني ، لبطلان كون الجميع شرفاء ، أو لا شرف فيهم ، وكذا الثالث باطل للتّحكم ؛ لاستواء الناس في نظر العقل .

قلت : الحق بيّن ، والدواعي كلها باطلة ، فلزم أن يكون ممنوعا ، وسند المنع أن الأنوار النبوية ظاهرة بيّنة لا غبار عليها " [2] .

وبالرغم من أن هذه المكانة للأشراف ؛ جعلت بعض الدخلاء يدّعون الشرف، وصعب على العامة إحصاء من هو منهم ممّن هو دخيل عليهم ؛ إلا أن علماء ذلك الزمن فضّلوا الوقوع في الخطأ باحترام الدخيل على ترك التفضيل مطلقا، واكتفوا بالشهرة دلالة على النسب .

ومن ذلك ردّ الورتلاني على من استشكل عليه معرفة أهل الشرف ، وطلب لذلك علامة يميز بها عامة الناس الأشراف بقوله: " إن الأحكام الشرعية والقضايا الإلهية ، حكمت بأن الشريف مصدّق في نسبه ، كما يصدق في ماله ؛ فإن حيازة

---

[1] شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني ، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، بدون ت ، ج : 2 ، ص : 584 .

[2] الورتلاني ، مصدر سابق ، ص : 115 .

الأموال معتبرة شرعا ، كذلك حيازة النسب ، والحيازة في الأموال لا بد وأن تكون في أمد طويل ، بحيث يقطع أن هذا لمن حازه ، ويقوم الأمد الطويل مقام البيّنة القاطعة به ؛ كذلك النسب ، فلا بد وأن يكون أمداً طويلا يقطع فيه العقل والعادة بأنه لا خلل فيه ، إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وحينئذ فالناس مصدّقون في أنسابهم لوجود الحيازة فيها كحيازة الأموال ؛ قاله الأجهوري ، إذ قال الناس على ما حازوا من أنسابهم سيصدقون فيها عملا بالحيازة، كما يصدقون في الأموال عملا بها ...

وقال الشيخ عبد الباقي – في باب مصرف الزكاة بكسر الراء – : الشّرف يثبت بالشهرة اه . فأنت ترى أن الشرف يثبت بالحيازة وبشهرته ، فتبنى عليه أحكامه من تحريم الصدقة ، وتعظيم جانبه لأجله ، وثبوت حقّه فيما له حق فيه ، وغير ذلك فيما يثبت فيه."[1] .

البرّاني :

تتشكّل طبقة البرّاني أو البرّانية من المجموعات السكانية التي دخلت المدن ، قادمة من بواديها بحثاً عن مصدر رزق ، ثمّ استقرت بهذه المدن لكن دون أن تستطيع الاندماج في الطبقات الأخرى المقيمة بالمدينة ، إذ أن النظام الاجتماعي الذي فرضته اعتبارات سياسية واقتصادية – سبق الحديث عنها عند ذكر الطبقات الاجتماعية السابقة – منع أفراد هذه الطبقة من الاندماج فيما بينهم .

[1] الورتلاني ، مصدر سابق ، ص : 116 .

ولقد حافظ أصحاب كلّ منطقة جغرافية على تميّزهم ، وعرفوا باسم أصولهم الجهوية فقد اختصت كل مجموعة منهم بحرفة داخل المدن ، يقومون بها تحت إشراف أمين يختاره البايليك ، ليمثل أفراد هذه الطائفة لدى السلطات يدافع عن حقوقها ويفصل في خصوماتها، بمساعدة شوّاش وكتّاب ، ويجمع التزاماتها المالية ليقدّمها للخزينة العمومية [1] .

الزنوج :

غالبية الزنوج الذين يعيشون في المدن الجزائرية ، هم عبارة عن أقليات مستوردة من الجزائر ، مثلهم مثل الأتراك والعبيد المسيحيين ؛ غير أنهم يتميّزون عنهم بأن هذه الأقلية لم تكن مشكّلة مثلهم من العزّاب بل إن عدد النساء الزنجيات كان أحيانا يفوق عدد الذكور .

يجلب الزنوج في أغلب الأحيان من السودان أو من ضفاف نهر النيجر ليشتغلوا في أعمال السخرة داخل المدن الجزائرية لدى العائلات الميسورة .

ويذكر شالير أن وضعهم لم يكن يشبه وضع العبيد في أوربا والغرب ، فهو أقرب إلى الخدمة مقابل الرعّاية أكثر منه إلى العبودية فيقول : " والزنوج يشكّلون جزءا آخر من السكان ، ولو أنه صغير ، فهؤلاء – في الأصل – من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم من داخل القارة أو من طرابلس ، ولكنهم سرعان ما يحصلون على حريتهم باعتناقهم الإسلام ، وهو عمل قلما يتأخر أحدهم عنه والمعروف أن

---

[1] أحمد السليماني ، تاريخ مدينة الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، بدون ت ، ص ص : 40 _ 43.

الرقيق كان دائما هنا من النوع الخفيف وهو أقرب أن يكون نوع من العمل في مقابل العناية والحماية منه إلى العبودية " [1].

ونفس الكلام ؛ يذكره بوايي عن أحوال العبيد ، الشيء الذي يدفع الكثير منهم إن لم نقل الجميع للبقاء في خدمة العائلات المالكة لهم ، ولا يغادرون مدنهم حتى بعد أن يحصلوا على حرياتهم ، وهو الأمر الذي كثيرا ما يحدث ؛ بل ويصبحون أفرادا من هذه العائلات [2].

وإن كان بوايي يجعل لذلك أسبابا وتفسيرات مختلفة ؛ إلا أنّه لا يعطي على تفسيراته أدلة ، وبالتالي فلا تعدو أن تكون تخمينات.

يعيش الزنوج الأحرار والذين غادروا عائلات ملاّكهم تحت سلطة أمين يعرف بأمين الوصفان ، ولهذا الأمين نفس صلاحيات أمناء الطبقات الأخرى ، وكذا أمناء الحرف مع الطبقة التي يمثلها .

وتعتبر القصابة أهم وظيفة يمارسها هؤلاء الزنوج ، وذلك في قصابات أسيادهم القدامى ، وأما وقت فراغهم فيقضونه في الترفيه عن أنفسهم بالاستماع إلى موسيقاهم التي ما تزال مشهورة إلى يومنا هذا لدى سكان الصحراء الجزائرية والمعروفة بفرق (قرقابو) ، حيث يطوف مجموعة من الزنوج يحملون طبولهم وقطعا حديدية يقرعونها ، محدثين أصواتا إيقاعية بالأحياء ، فيدخلون عليها نوعا من

---

[1] أحمد السليماني ، مرجع سابق ، ص : 92 .

[2] P. Boyer , op cit , PP : 166 _ 167.

البهجة والترفيه ، ويكسرون بذلك روتينها ، مقابل قطع نقدية تتساقط عليهم مكافئة على صنيعهم هذا [1] .

ويذكر لوكيل يوسف أنه لم يعد لهؤلاء الزنوج وجود في مدينة مازونة ، وليس مرد ذلك إلى انعدام العبودية فيها ، فلا يكاد يخلو بيت من بيوت الأغنياء من عبيد وخدم ، لكن تدهور حال المدينة وضعف اقتصادها مع نهاية العهد العثماني؛ جعل وجودهم يتناقص إلى درجة الانعدام مع بداية عهد الاستعمار الفرنسي ، كدلالة على ذهاب مظاهر الغنى التي يعتبر وجود العبيد الزنوج واحدا من أهم معالمها [2] .

اليهود :

قدم اليهود الأوائل إلى الجزائر فارّين من التطهير العرقي الحاصل في الأندلس بعد سقوط غر ناطة [3] فقد قطعوا البحر بقيادة الحبرين راشباز وبرفات ريباش ، وقد كانت بدايتهم متواضعة فقد سمح لهم خير الدين بالمقام مقابل دفع الجزية ، على أن يحقّ لهم فتح عدد محدود من المحلات الحرفية فقط ، في الأسواق التي يسكنونها ، ولم يكن لهم أي أثر في الحياة السياسية خلال القرن السادس عشر.

ويقسّمهم هايدو إلى ثلاثة أقسام :

1. القادمون من إسبانيا .

---

[1] P. Boyer , op cit , PP : 167 _ 168.
[2] Y Loukil , op cit , p : 26.
[3] H.A de Grammont , Histoire d’Alger sou la domination turque (1515-1830) , imp Baudin et Cie , Paris , 1887, p : 233 .

2. القادمون من جزر البليارد .

3. المقيمون في البلد منذ الجلاء ؛ أي سقوط أورشليم في يد الرومان .

وكان عددهم (في سنة : 1550) 150 عائلة ، وقال أنهم يمارسون مختلف الحرف وخاصة صيارفة وباعة متجولون .

أمّا أغنياؤهم فكانوا يحترفون الوساطة في بيع الغنائم وإبرام الصفقات مع تونس و الباب العالي ، كما كان لهم معبدهم وقاضيهم الخاص ، لكنهم كانوا عرضة لبعض المضايقات من قبل الأتراك ، الذين كانوا يسيئون معاملتهم ويغرّمونهم لأتفه الأسباب ، كما كانوا مجبرين على لبس لباس خاص عادة ما تكون بلون داكن .

ويصفهم الأب دان الذي رآهم في سنة 1684م بنفس الوصف لكن عددهم قد تضاعف بشكل بارز إذ يعدهم عشرة آلاف ، ومرد هذه الزيادة إلى ما كان يلاقيه اليهود من العنت في أواسط أوربا " [1] . وعدهم لوجي دو تاسي في سنة 1725 م خمسة عشر ألفاً .

واليهود كما يرى دوتاسي وغيره من المؤرخين ينقسمون إلى قسمين هما :

أ/ اليهود الأهالي :

وهم اليهود من الأصول المغاربية القديمة ، أو الذين فرّوا مع الموريسكيين من الأندلس ، وهم يعانون من سوء معاملة الأتراك ، والذين كانوا يمارسون مهناً وتجارة

[1] De Grammont ، op cit ، P : 233 .

بسيطة ويعيشون في مخيمات في نواحي المدينة ، ولا يسمح لهم بالسكن خارجها ، ولا بلبس ما يحلو لهم من اللّباس ، كما هو الحال مع يهود أوربا .

أما نساؤهم فلا شرط على لباسهن غير وجوب كشف الوجه ؛ للتّميز عن المسلمات وكانوا يعاقبون أشد العقاب أمام أيّ هفوة في احترام هذا القانون ، وهؤلاء هم الأغلبية .

ب/ اليهود الفرنج :

وهم القادمون من إيطاليا ، خاصة من ليفورن حيث سمح لهم دوقات توسكانيا من إقامة عنابر للعبيد والبضائع القادمة من الجزائر ، وقد وفّرت لهم الحماية التّي يعطيها حكام هذه المقاطعات لمثل هذه التجارة من جمع مبالغ لا بأس بها ، وقد استمرت العلاقات بين يهود ليفورن ويهود الجزائر الذّين كانوا يشترون لفائدة بني عمومتهم كلّ البضائع التّي كان يصعب بيعها أو تحرم في بلاد المسلمين، ولاحقاً جاء هؤلاء اليهود الليفورنيون ليستقرّوا بأنفسهم في الجزائر ، حيث جمعوا أموالاً طائلة ، ثمّ حملت مشاكل الدايات المالية إليهم حق احتكار تجارة الصوف والجلود والشمع .كما حملت لهم أصولهم حق التحاكم أمام قناصلهم والاستفادة من امتيازات دولهم باعتبارهم رعايا أجانب .[1]

لقد كانت ميزانية الدولة عند مجيء موعد دفع الأجور تعاني دائماً عجزاً يساوي 50000 قطعة ذهبي piastres ، وكانت الدولة تعوضه ببعض الإتاوات التي تفرضها على الدول الصغيرة مثل السويد ، الدانمارك ، هولندا ، توسكانيا والبندقية

[1] Laugier De Tassy , op cit , pp : 55 _ 57 .

وغيرها ... لكن هذه الفوائد لم تكن تصل إلاّ في فترات غير منتظمة ، وهو ما لم يكن اليولداش لينتظروه ، ولذلك فقد اعتمد الدايات على الأموال اليهودية فأصبحوا في البداية يمثلون بنوك الدايات ثمّ وسطاءهم السياسيون ، ثمّ مستشاروهم وأخيراً وزراءهم .

ويعتبر التطور السريع لدور الأقلية اليهودية في الجزائر من الصفحات الغامضة، وغير المعروفة في تاريخ هذه الإيالة [1] .

كانت الطائفة اليهودية ترتدي إلى جانب ألبستها الخاصة الداكنة اللون ؛ مختلف الأزياء الجزائرية التي سادت في المجتمع بالمدن والأرياف ؛ إلاّ أنّه وجدت بعض الاختلافات الطفيفة فيما بين اليهود أنفسهم ، تبعاً لأصولهم .

فالميغوريشم وهم يهود الأندلس كانوا يغطّون رؤوسهم بقبعات غريبة عن الجزائر ، أمّا اليهود الأتراك والليفورنيون فيلبسون حسب المناطق التي جاءوا منها ، بل حتى المرأة اليهودية لبست نفس ما تلبس المرأة الجزائرية المسلمة ؛ من فوطة ووشاح لستر شعر الرأس ، رغم أنّ الدّيانة اليهودية لا تفرض ذلك عليها ، ولم تتميّز عن المرأة الجزائرية إلاّ بحريتها في الخروج من البيت .

أمّا الزعم أنّ لباسهم كان إجباريا فهو زعم خاطئ تكذبّه حريّتهم في لبس أنواع مختلفة من الألبسة دون أن يتعرّضوا لأيّ عقاب .[2]

---

[1] De Grammont , op cit , pp : 232 _ 233 .

[2] أنظر هامش رقم : 73 من كتاب فوزي سعد الله ، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون ، ذار الأمة ، الجزائر ، 1996 ، ص : 238 .

غير أنه ومع نهاية عهد الدايات عرفت الأقلية اليهودية وضعا صعبا جعل شالير يعتبر الطائفة اليهودية في الجزائر واحدة من الطوائف اليهودية الأقل حظوظا وثروة في العالم [1] وذلك بخلاف ما كان عليه الوضع فيما سبق من عهود ، إذ يذكر بوايي أن المهاجرين اليهود من إسبانيا استقبلوا بشكل حسن من قبل حكام وشعب المغرب الأوسط ، واندمجوا في المجتمع بكل سهولة فقد اعتُبروا من أهل الذمة كما ينص على ذلك الدين الإسلامي.[2]

لم تحدّد أغلب الدراسات عدد اليهود أو وضعهم الاقتصادي في مدينة مازونة ، بخلاف الحال مع باقي مدن بايليك الغرب ، مثل معسكر التي كان بها حوالي : 450 يهوديا، ومدينة تلمسان التي حوت ألفين منهم ، أو مدينة وهران التي كان بها ألفين وثمان مائة يهودي عرف وضعهم جملة من الامتيازات حصلوا عليها بفضل علاقتهم الجيدة مع الحكام العثمانيين ، ومع طبقة الحضر الذين يجمعهم بفرع منهم الأصل الأندلسي [3].

غير أن بلحميسي يذكر أنه كان ما يزال باقيا في حي أبي ذلول أقلية يهودية مع نهاية العهد العثماني لكنهم غادروا المدينة مع دخول المستعمر الفرنسي[4].

[1] شالير ، مصدر سابق ، ص : 91 .

[2] P Boyer , op cit , p : 170 .

[3] Emirit m , l'Algerie a l'epoque d'Abdelkader , Larousse , Paris , 1951.p :78

[4] يحدد بلحميسي أن هذه الأقلية لم تتجاوز 12 فردا سنة 1779م ، ولم يعد لهم أي وجود سنة 1833م بخلاف ما ذكره الجيلالي صاري الذي يزعم دون أن يقدم مصدرا أنّ المدينة كانت تحوي أحد عشر يهوديا سنة 1879م .

ينظر : M Belhamissi , op cit ,p 57 .

الطبقات الاجتماعية بالريف:

لقد ظل الريف الجزائري إبان الفترة العثمانية يكتنفه الإهمال ؛ إذ لا تكاد تجد موضوع بحث يفرده بالدراسة ، بل وحتى الدراسات التي تعرج عليه غالبا ما يحيط بها الغموض ، ولا تكاد تشفي غليلا ، فجل الدراسات عن الجزائر العثمانية تركز على العاصمة لوفرة المادة العلمية حولها وحول أهم المدن مثل قسنطينة وتلمسان ووهران وعنابة .

أما الريف ؛ فلا نجد له إلا نتفا هنا وهناك ، رغم أن نسبة سكان المدينة إلى سكان الريف قليلة جدا إذ لا يمثل سكان المدن إلا نسبة 6% بينما سكان الريف يمثلون 94% من مجموع السكان [1] .

ويمكن تصنيف سكان الريف من حيث نوعية نشاطهم الاقتصادي إلى سكان سهول يشتغلون بزراعة الحبوب أو سكان جبال يشتغلون في البساتين وغراسة الأشجار المثمرة أو أُجراء في فحوص المدن أو خماسة لدى ملاك الأراضي أو رعاة ينتشرون في السهوب أو رحلا يجوبون الصحراء يطاردون الكلأ لأنعامهم أو يتاجرون مع أيالة تونس و مملكة فاس [2] .

غير أنّ هذا التقسيم لا يمكن أن يوضح لنا الحياة الاجتماعية في الريف الجزائري في ذلك العهد كما يوضحها التقسيم المبني على أساس علاقة هذه

---

[1] ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث ، مرجع سابق ، ص : 97.

[2] Laugier de Tassy, op cit , p : 53

الأقسام أو الطبقات مع السلطة التركية الحاكمة ، أو بصورة أوضح على أساس المطالب المالية والضريبية والخدماتية تجاه هذه السلطة .

وسكان الأرياف بهذا الاعتبار إما قبائل متعاونة مع الأتراك تقدم للبايليك خدمات معينة مقابل حظوتها بامتيازات محددة ، وإما قبائل متحالفة تؤخذ منها اللزمة ، ويطلب منها تقديم المعونة للبايليك ، ولقاء ذلك تقدم الحكومة الخِلع والهدايا والترضيات لشيوخها ومرابطيها وإما قبائل ممتنعة عن سلطة البايليك متحصنة عن سطوة محلاته بمواقعها الجبلية وإما قبائل الرعية الخاضعة لجميع المطالب المخزنية .

إن العلاقة الاجتماعية بين هذه الطبقات فيما بينها وبين البايليك هي التي تمثل القاعدة الأساسية التي ينبني عليها التطور السياسي للجزائر العثمانية كما يفسر جملة من التحولات العامة بالأيالة خاصة في المرحلة الأخيرة من العهد العثماني .

قبائل المخزن :

تعتبر قبائل المخزن طبقة اجتماعية ريفية ، ذات صبغة فلاحية عسكرية وإدارية، كانت تشكل حلقة الوصل بين الحاكم والمحكوم ، وأبقت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية متماسكة بالريف الجزائري [1] .

[1] ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث ، مرجع سابق ، ص : 84 .

وقبائل المخزن لا تعود في أصولها إلى مصدر واحد ؛ بل هي تجمعات سكانية ذات تكوين اصطناعي ، فمنهم العبيد ، ومنهم الكراغلة وعرب الصحراء، كما أن منهم من أقرّه الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها لتكون سندا لهم ، ومنها من أعطيت لها الأرض لتستقر عليها ، ومنها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين في جهات مختلفة ؛ ليؤلف جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية [1] .

" وكما أن أصل هذه القبائل لا يخضع لأصل واحد ، فإن تنظيمها أيضا لا يعرف قاعدة واحدة متبعة ؛ بل بحسب ظروف كل منطقة وكل قبيلة ، المهم بالنسبة للحكومة هو أن تؤدي في النهاية نفس الدور المنشود منها ، وهو سلامة طرق المواصلات ومراقبة القبائل الممتنعة عن سلطة البايليك ، و كذا جمع الضرائب المترتبة على قبائل الرعية " [2] .

وبحكم أن هذه القبائل تشكلت بصفة غير طبيعية ؛ فإنه لم يعد يربطها بأصولها القديمة ومواطنها الأصلية إلا ما علق بتسمياتها ؛ مثل قبائل الصحاري التي علق اسم موطنها الأصلي باسمها الجديد ، وكذا قبائل العبيد التي يعود اسمها إلى أصولها العرقية ، وغير ذلك من القبائل والتسميات .

في حين استمدت الغالبية الكبرى من القبائل المخزنية أسماءها من مواطنها الجديدة ، أو من نوعية السلاح الذي تستعمله ، أو من الوظائف والمهام الإدارية

---

[1] ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث ، مرجع سابق ، ص: 98 .

[2] A M Boudia، op cit. p : 336

التي تمارسها ، فالزواتنة عرفوا بهذا الاسم لأنهم سكنوا بجوار واد الزيتون [1] ؛ رغم كونهم كراغلة في الأصل .

والمكاحلية فعرفوا بهذا الاسم تبعاً لنوع السلاح الذي يستعمله فرسانهم ، وأمّا قبائل الدوائر فأسماؤهم راجعة إلى طبيعة مهامهم والحيز الإداري الذي سكنوه[2].

وأما الزمّالة أو الزمول فهم قبائل مشردة من مواطنهم الأصلية ، تجمعت في الحدود الجزائرية ، فسمح لهم الدايات بالبقاء هناك لقاء تقديمهم خدمات عسكرية، بتدعيم المحلات ببعض الجنود والخيول عند الحاجة ، كما تقوم الدولة بحمايتهم ممن يلاحقهم [3] .

لقد عمل الأتراك على الإبقاء على تقاليد الولاء نفسها ، التي ورثوها عمن سبقهم من الحفصيين والزيانيين ، وتبعاً لنفس التقاليد عملت قبائل المخزن وذلك لأهميتها في استخلاص الضرائب ومعاقبة الخارجين عن القانون .

ومع تقدم الزمن ازدادت صلاحيات هذه القبائل ، فأصبحت تشارك في كل الحملات التي تشنها محلات الحكومة المتوجهة من العاصمة ، أو في المحلات التي

---

[1] يقع واد الزيتون على الضفة اليسرى لواد يسر جنوب شرق الجزائر العاصمة بين قبيلتي الخشنة وبني جعاد .
ينظر: ناصر الدين سعيدوني ، دراسات و أبحاث ، مرجع سابق ، ص : 98 .

[2] نفس المرجع ، ص : 98 .

[3] محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تقديم وتحقيق د. محمد بن عبد الكريم ، ط 2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981 م ، ص : 39 .

يوّجهها كل باي في بايليكه ؛ بل وأصبحت قيمة كل باي تقدّر بمدى سطوة وقوة مخزنه .

ومن ذلك ما أورده مسلم بن عبد القادر معلقاً على أمر الداي لباي الغرب بمهاجمة إحدى القبائل المتمردة على طاعة آغا الجزائر رغم أن هذه القبيلة وهي عريب لم تكن تابعة لبايليكه إذ يقول : " ... و عريب هو حي كبير من أحياء الأعراب البادية رعية آغة الجزائر ، ووطنه ما بين حمزة والدهوص ، ومنه الحد بين رعية باي قسنطينة وبين باي المدية ، وكان مسرار لشيخه بعض التقي على متولي أمره [1] ، فاعلم به الباشا ، ظهر له رأيه أنّه لا يفيد في ذلك إلا الباي محمد ومخزنه، لما يعرفه فيهم من الشجاعة والنجدة ، فبعث إلى الباي بالغزو عليه أمر لا يتصور في العقل لبعد المكان وعدم تصرف باي الغرب في غير رعيته لأنّه بينه وبين هذا الحي رعية باي المدية ، فنهض الباي من ساعته ، وكان صاحب حزم وعزم ..."[2].

وازداد اعتماد البايليك على قبائل المخزن ؛ بعدما برهنت على كفاءاتها الميدانية في مواجهة القبائل الممتنعة عن سلطة البايليك ، وفي تغطية العجز العددي للجند التركي ، ففرق الأوجاق لم تكن تتجاوز في حالات السلم 4000 جندي ، بينما لم تكن تبلغ في أقصى اتساع لها 12000 جندي[3] ، وهو عدد قليل يصعب

---

[1] في العبارات المستعملة أخطاء وركاكة في الأسلوب و الظاهر أنّها عامية .

[2] مسلم بن عبد القادر ، أنيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بونار ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1974 م ، ص : 99 .

[3] Laugier de Tassy، opcit ، p : 125.

عليه القيام بأعباء ثقيلة كالتي قامت بها قبائل المخزن ، والتي كان باستطاعتها أن توفر للبايليك ساعة الضرورة ما يقارب 30000 مقاتل بين فارس وراجل [1] .

وبالتالي فإن دور هذه القبائل ، لم يعد مقتصرا على المشاركة في المحلاّت ، ودعم الجيش التركي ، كما كان الحال في السابق ؛ وإنما أصبحت يد السلطة التي تؤمّن بها تدعيم إجراءاتها الإدارية والحربية ، التي كانت التحولات السياسية قد فرضتها في هذا العهد ، وبالتالي أصبحت سلطة الدّولة تقاس بمدى نشاط هذه القبائل ، خاصة وأن هذه القبائل تقدّم خدماتها للبايليك من غير أن تحمّله أعباءً مالية ، كالتي تفرضها فرق الأوجاق من رواتب وامتيازات ترتفع بارتفاع عدد الجند فتنقص من ثروة الأيالة ، وبالتالي من ثروات الأتراك أنفسهم [2].

وبفضل هذه القبائل ؛ استطاع الأتراك بسط نفوذهم على جهات واسعة من الأيالة ، من غير أن يضطروا إلى تسيير الجيوش إليها ، ويحافظوا على الحاميات بالقرب من المناطق الإستراتيجية والحسّاسة ؛ كالأسواق العامة والحصون وطرق المواصلات والسهول الخصبة .

كما ساعد تواجد هذه القبائل في هذه المناطق الحسّاسة ؛ على إبعاد خطر القبائل الممتنعة والحدّ من عصيانها ، وتهديدها للسهول الخصبة ، وقطعها للطريق أمام انسياب التجارة ، كما كان الحال قبل تواجد العثمانيين .

[1] سعيدوني ناصر الدين ، "دراسات وأبحاث..." ، مرجع سابق ، ص : 101 .

[2] نفس المرجع ، ص : 102 .

وبالتالي ؛ فإن دور قبائل المخزن كان أساسيا في توفير الأمن ، وحماية الاقتصاد الوطني للأيالة ، الأمر الذي جعل هذه القبائل تحظى بوضعية اجتماعية خاصة ومميزة في هرم الطبقات الاجتماعية بالريف الجزائري ، إذ تواجد العنصر التركي بالريف يكاد يكون منعدما بخلاف المدن .

ومنه فإن هذه القبائل كانت تمثل قمة الهرم الاجتماعي ، وبديلا عن العنصر الحاكم في غيابه ، وعلى هذا الأساس أصبحت هذه القبائل في وضع اجتماعي يشبه وضع الإقطاعيين في أوربا ، غير أن الأراضي التي كانت تستغلها لم تكن ملكا مطلقا لها تباع وتشترى ، وإنما كان لها حق استغلالها فقط كونها تابعة للدولة، وبالتالي فمن حقّ البايليك استعادة هذه الأرض ، وطرد القبائل التي تستغلها أو تحويلها إلى غيرها [1].

وحتى يسهل على البايليك عملية مراقبة هذه القبائل ؛ كانت تتعامل معها عن طريق قادة فرسانها ، والذين يستلمون من البايليك حق الانتفاع بالأرض المخصصة لرجالهم ، والتي تكبر أو تصغر ؛ تبعا لعدد الرجال القادرين على تأدية واجبهم تجاه البايليك ، والذين يفقدون حق استغلالها في حالة عزوفهم عن تأدية هذه الواجبات ، غير أنه وفي حالة الوفاة يحق لهم نقل ملكيتها إلى الابن الأكبر ، أو أيّ فرد من الأسرة يكون على رأسها ، ويحق لأيّ فرد من هذه القبائل بعدما يرشحه شيخ الدوار أو قائد الفرسان ؛ أن يتقدم إلى البايليك فيسجله الكُتَّاب في

[1] سعيدوني ناصر الدين ، "دراسات وأبحاث..." ، مرجع سابق ، ص : 114 .

سجل خاص بهذه الأراضي ، يعرف بدفتر المشاتي ، ومن ثمّ يحقّ له الانتفاع بها ، ولا يطلب منه إلا تقديم خدماته في الوقت المناسب [1].

وإذا لم يكن لقبائل المخزن حق تملك هذه الأرض ، والاكتفاء بالاستفادة منها في بداية الأمر ، فإن التطورات السياسية في البلاد سارت في صالح هذه القبائل ، إذ ازدادت حاجة الدايات وباياتهم إلى هذه القبائل ، بعد انعدام الأمن وكثرة الثورات .

" هذه الحاجة المتزايدة ؛ جعلت البايات يخرقون العرف – تحت ضغط الحاجة الملحة– إلى استرضائها ، ويعترفون لبعض القبائل بحق الملكية التامة على الأراضي التي تقيم عليها ، مقابل أموال ضخمة ، كانت الخزينة في أمس الحاجة إليها ، في وقت شحت فيه المداخيل بعد تقلص دور القرصنة في البحر المتوسط ، ونقص الإنتاج الزراعي لكثرة الثورات " [2].

القبائل المتحالفة :

تميزت هذه القبائل بعلاقتها الحسنة مع البايليك ، وذلك عن طريق شيوخها وكبرائها ، وتقوم هذه القبائل بمجموعة من الخدمات والمطالب المخزنية ، يتكفّل بجمعها هؤلاء الشيوخ الذّين تسعى السلطة الحاكمة إلى التقرب المستمر منهم ؛ بإسقاط هذه المطالب عنهم ، وتقديم بعض الهدايا والتّرضيات إليهم ، وإصدار فرمانات التعيين لهم ولأبنائهم من بعدهم ، ومقابل ذلك يحرص هؤلاء الشيوخ

[1] سعيدوني ناصر الدين ، " دراسات و أبحاث ... " ، مرجع سابق ، ص ص : 114 _ 115.

[2] نفس المرجع ، ص : 115.

على جمع الضرائب من المناطق التابعة لسلطاتهم ، وحماية المسالك والطرق المارة بأراضيهم من القُطّاع واللصوص [1] .

وبالتالي ؛ فإنّ هؤلاء الشيوخ وعائلاتهم كانوا بمثابة السلطة المحلية ، أو الواسطة بين الحكّام والمجموعات القبلية ، التي يصعب السيطرة عليها وإخضاعها لكل المطالب المخزنية .

وغالباً ما يستمد هؤلاء الشيوخ سلطتهم من أصولهم العرقية ، كما هو الحال مع "الأشراف" بجبال البابور وجرجرة ووادي الصومام ، أو كفاءتهم الحربية وقوة بأسهم ، كما هو الحال مع قبائل الأجناد بالتيطري ، وكذا بني عباس والحراكتة بالهضاب العليا القسنطينية أو الطابع الروحي الديني بالمناطق الغربية ، حيث حكمت عائلات المرابطين [2].

وقد كان الأتراك يشجّعون تناحر هذه القبائل المتحالفة ، حتى لا يستقرّ حالها فتقوى إحداها على حساب الأخريات ، وقد تدعو إلى التملص من سلطة الأتراك، أوالثورة عليهم صراحة ، ولذلك فكثيراً ما زالت قبائل بكاملها وتحولت إلى قبائل رعية ، وفقدت بالتالي امتيازاتها لصالح قبيلة أخرى ، كما حدث لقبائل عريب بعد وفاة شيخها ومرابطها سيدي هجرس ، فاضطرت إلى إعطاء الولاء لسيدي أحمد المقراني ، الذي كان يحكم قبائل مجانة ، واستطاع أن يضم منطقة الحُضنة التي كانت لقبائل عريب إلى سلطته ، غير أنّ صراعهم على مناطق النفوذ

[1] سعيدوني والبوعبدلي ، تاريخ الجزائر ، مرجع سابق ، ص : 109 .

[2] نفس المرجع ، ص : 108 .

مع قبائل متحالفة أخرى ، هي قبائل الجواب (أولاد عبد الله وأولاد علي بن داود) ؛ دفع بهم إلى الجلاء نهائياً عن المنطقة والتفرق في الأوطان [1] .

لكن قبائل عريب – ولبأسها – لم تتحول إلى قبائل رعية ، بل ساعدت البايليك في صراعه مع خصومها السابقين قبائل الجواب ، فأقطعهم البايليك وطن حمزة ، وضمهم إلى قبائل المخزن ، وأسقط عنهم بعض الضرائب وموّنهم بالسّلاح[2].

وهذا هو الأسلوب الذي يتبعه البايليك غالباً ، مع القبائل ذات البأس الشديد ، خاصة القبائل الممتنعة التي يعجز عن جرّها للطاعة .

وفي المناطق الشرقية من البلاد ؛ استطاع شيوخ هذه القبائل ضمّ مناطق واسعة إلى نفوذهم ، وقويت شكوتهم حتى خاف منهم البايات ، فاهتدى الدايات إلى خلق التنافس بينهم والدسّ لهم ، فتناحرت القبائل على الرياسة والحظوة لدى السلطات ، وقويت نزعة التعصب بينهم حتى تقاتلوا وكثرت الفتن بينهم ، و كثيراً ما تدخل العلماء والمرابطون لفض هذه النزاعات ، إذ يذكر الورتلاني في رحلته أنّه تدخل للإصلاح بين هذه القبائل غير ما مرة [3].

---

[1] Ber brugger , « Les Aribs» ، in Revue africainne , T 08 , ed Bastide , Alger , 1864 , P : 379 .

[2] Berbrugger , op cit , p : 379 .

[3] مختار بن الطاهر فيلالي ، رحلة الورتلاني ، عرض ودراسة ، دار الشهاب ، باتنة ، بدون ت ، ص ص : 99 _ 100 .

أما في جنوب البلاد ؛ فيذكر حمدان خوجة أنّ البايات يسعون إلى ربط علاقات مصاهرة مع شيوخ هذه القبائل ؛ ليضمنوا استمرار هذا التحالف ، ويضع الباي تحت تصرف أحد الشيوخ بعد تعيينه " ... عشرين خيمة من الجنود الأتراك وأعلاماً وجوقة موسيقى عسكرية ، ويكون هذا الشيخ كالملك بالنسبة لسكان الصحراء ... " [1] .

ويؤكد هذه السلطة التي يمتلكها شيوخ هذه القبائل ؛ أوجين هاتين في معرض حديثه عن البدو إذ يرى أنّ للبدو نظام حكمهم الخاص ، والذي هو في نفس الوقت نظام جمهوري أرستقراطي استبدادي ، فهو جمهوري لأنّ للمحكومين تأثيراً أوليا في كل القضايا ، وأنّه لا يمكن أنّ يحدث أيّ أمر أو يؤخذ أيّ قرار من دون موافقة الأغلبية ، و هو أرستقراطي لأنّ عائلات الشيوخ تمتاز ببعض الصلاحيات التي تمنحها القوة عادة ، وهو استبدادي لأنّ للشيخ سلطة واسعة جدا ؛ بل ومطلقة أحياناً ، ولكن لهذا الإطلاق حدودا في حالات استثنائية .

فإذا قام أحد الشيوخ بمظلمة ما ؛ فإنّه لا ينجو من تبعاتها مهما كانت سلطته، فالقتل لا تسقطه عنه غير الدية أو الثأر إن لم يدفعها ، وكذا إذا أثقل كاهل القبيلة فإنّ سكانها يهجرونه إلى قبيلة أخرى .[2]

غير أنّ هذه القبائل المتحالفة ؛ قد تحاول التّملّص من كل سلطة للبايليك عليها ؛ إذا رأت فيه ضعفاً ، كما أنّ البايليك إذا رأى فيها ضعفاً أو وهناً ، أو

[1] حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص : 76 .

[2] Hatin. E , op cit , pp : 38 _ 39.

وجد في نفسه القدرة على تحويلها إلى قبائل رعية خاضعة لكل الضرائب ؛ فإنّه لن يدّخر في سبيل ذلك جهداً .

فقد اعترف أهل الأغواط لباي الغرب محمد الكبير بالسلطة عليهم ، وفرضوا على أنفسهم فروضاً مغرية ، لكنه حين فطن إلى أن هذه الفروض أعطوها على أساس الحلف ، بحيث لا تكون عليهم بصفة دورية كل عام بعث إليهم من يوضح لهم ذلك ، أيّ أنّهم قبائل رعية وجب عليهم دفع اللزمة سنوياً ، فلمّا لم يقبلوا ذلك سار بجيوشه إليهم وخاصرهم واضطرهم بعدما هزمهم إلى قبول الوضع الجديد و تبعاته [1].

قبائل الرعية :

تمثل هذه القبائل قاعدة الهرم الاجتماعي في الجزائر العثمانية ، وبالتالي فهي القبائل الخاضعة لجميع المطالب المخزنية والفروض الضريبية ، ولقد عاش أفراد هذه الطبقة فروقا طبقية كبيرة ، ففي الوقت الذي يقوم على أكتافهم كل الجهد الفلاحي، فإنهم لا ينعمون إلا بالنزر اليسير الذي يعادل خمس الإنتاج فقط .

وبالرغم من أن دخل هذه القبائل كان محدودا جدا ؛ إلا أنها كانت خاضعة لجملة من الضرائب كما سبق الذكر ، والتي أعفيت منها قبائل المخزن والقبائل الحليفة ، كما أن هذه الضرائب الإضافية لم تبق كما كانت في العهود السابقة

[1] أحمد بن هطال ، رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري ، تحقيق وتقديم : محمد بن عبد الكريم ، عالم الكتب ، بيروت ، بدون ت ، ص : 53 .

مقتصرة على الخراج [1] ، زيادة على العشور والزكاة الشرعية ، بل أنها تطورت وشملت مجموعة من الالتزامات المالية الثقيلة ؛ **كالغرامة والمونة واللزمة** وغيرها من التسميات المختلفة .[2]

ومما يزيد في عنت هذه القبائل ؛ أن هذه الضرائب لم تكن تؤخذ منهم من أصل منتوجاتهم ، وإنما تؤخذ نقدا ، مما يضطر هذه القبائل إلى بيع محاصيلها بأثمان بخس للحصول على النقود اللازمة لمواجهة هذه الضرائب .

ويصف حمدان خوجة هذه المسألة قائلا : " وقبل تسليم الخُمس لهؤلاء العمال ، وذلك عادة أثناء جمع المحاصيل ، فإن قائد الدوار يخصم كل ما عليهم من ديون وتسبيقات ، ولا يعطى لهم إلا ما تبقى ، وعلى إثر التقسيم يذهب العامل إلى السوق لبيع محصولاته ، وبما أن الغلل تجمع في نفس الوقت تقريبا ، فإن الحبوب تكون رخيصة في فترة معينة من العام..."[3] .

وهذا ما يزيد في استنزاف طاقات هذه القبائل ومواردها ، ويزيد الهوة بينها وبين باقي طبقات الهرم الاجتماعي ، غير أن وفرة الإنتاج جعل هذا النزر اليسير المتبقي لهذه القبائل ؛ يفي بغرضها ويجعلها قانعة راضية بوضعها ، خاصة في العهود الأولى ، وفي عهود الدايات والبايات الأقوياء الذين عرفت البلاد في

[1] Y. Lacoste , A. Nouschi،et A. Prenant , L'Algérie passe et présent , éditions Sociales , Paris , 1960 , p : 153 .

[2] ناصر الدين سعيدوني ، " دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالجزائر " ، الأصالة ، ربيع 2 ، 1396 هـ / أبريل 1976م ، ص : 54 .

[3] حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص : 73 .

عهدهم رخاء ملحوظا ، ومداخيل بحرية كبيرة جعلت المطالب المخزنية تقلّ ؛ بل وتسقط نهائيا في ظروف استثنائية ؛ كالمجاعات والأوبئة وحال الحرب .

وبيان هذا ما حدث مع الباي محمد بن عثمان في حربه لفتح وهران ، إذ يروي ابن سحنون الراشدي أنه حين قرر وضع الرباط حول وهران : "... نادى في رعيته من ارتحل إليه سقطت عنه المطالب المخزنية وبقي محترما موقرا ، فاجتمعت فيه أُمّة من الناس من كل ناحية بأموالهم وأولادهم ، فنزلوا فيما بين سيدي معروف والبريدية إلى عين " تانسالمت " فقام لهم بكفايتهم من العدة والخيل وغيرهما ، وأباح لهم الحرث في تلك الجهة ، فكانوا يحرثون إلى قرب البلد الوهرانية ، وجعل عليهم قوّادا يقومون بأمرهم ، وكان يبعث لهم في كل شتاء وصيف ما يعمّهم به من وافر سببه ، مما كانت الأمراء قبله لا تسمح بعُشْره مرة في العمر فضلا عن مرتين في السنة ، ويوجه لهم مع ذلك من يقسّمه بينهم من خواص العلماء ... "[1].

ومما يلاحظ أيضا على هذه المسألة ؛ هي أن كثيرا من القبائل كانت تسعى بنفسها إلى البايليك ، وتعرض تبعيتها له ، وتفرض على نفسها المطالب والفروض المخزنية التي في مقدورها الوفاء بها .

ويذكر ابن هطال ـ واصفا رحلة باي الغرب إلى الجنوب الجزائري لتأديب بعض القبائل العاصية ـ ، كيف كانت ترد عليه وفود بعض القبائل في الطريق ؛ عارضة ولاءها وتبعيتها إذ يقول : " ... وقد كان ورد عليه أهل تاجموت ، وأهل

[1] ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1973 م ، ص : 198 .

عين ماضي بعلمائهم وكبرائهم يريدون خدمته كآحاد الرعية ويلزمون أنفسهم بشيء يرتضيه حتى تأتي على جميعهم المنية فقسّط لكل واحدة منهما قِسطا معتبرا يعطونه في كل عام إلى آخر الدهر" [1] .

وما يستوجب الملاحظة ؛ هو أنّ هذه الفروض والضرائب التي تقدّمها قبائل الرعية لم تكن في الأصل مغارم تؤخذ قهراً ؛ إنّما تُقدّم للبايليك في سبيل أن يمنح هذا البايليك حمايته لهذه القبائل ، ويوفر لها الأمان من هجمات الأعراب ، ويسمح لها بالرعي والفلاحة في الأراضي التابعة لسلطته .

وهناك دلائل كثيرة على ذلك ؛ منها ما أورده حمدان خوجة قائلا : " نظراً للأهمية التي يولونها للزراعة ولما يريدونه من حماية لغللهم وضمان لأملاكهم ؛ فإنّهم يدفعون طواعية ضريبة لرئيس الأيالة " [2] .

ومنها ما ذكره ابن هطال عن أهل الأغواط إذ قال : "... وعندما وصل المنزل قدمت مشايخ بني الأغواط وعلماؤهم وبأيديهم كتاب صحيح البخاري ــ رضي الله عنه ــ طالبين الأمان على أنفسهم وأهلهم وهم مدهنون [3] بالطاعة ، قائلون أن يكونوا رعية على أن يعطوا مائة خادم وخمسة آلاف سلطاني ، ومائة ثوب وأربعة أفراس .

[1] أحمد بن هطال ، مصدر سابق ، ص ص : 51 ــ 52 .

[2] حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص : 69 .

[3] كذا في الأصل ولعلها يذعنون .

فلمّا رأى حرصهم على هذا الأمر وتحملهم ورضاهم بذلك القدر قال لهم : إن أتيتم لما ذكرتم ووفّيتم لما وعدتم ؛ فلكم منّي الأمان وأيّ أمان ، ثمّ كساهم كلّهم كما كانت عادته مع غيرهم وزاد لكبيرهم منطقة [1] فائقة ، ورحلة رائقة ، وطلبوا منه أن يقيم في هذا الموضع حتّى يدفعوا له جميع ما التزموه وانصرفوا وبعث معهم المخازنية لخلاص ذلك على العادة المعلومة في الرعية ... " [2] .

ومن هنا يتضح بشكل جلي ؛ أنّ علاقة البايليك بهذه القبائل لم تكن علاقة جباية الضرائب فقط ؛ وإنّما هي علاقة تبادل مصلحة بين حاكم ومحكوم ، وإن كانت هذه العلاقة قد تدهورت في نهاية عهد الدايات ، فمرد ذلك إلى التغير الذي حصل منذ نهاية القرن الثامن عشر بسبب المتغيرات الخارجية الناتجة عن تكتل أوروبا لمحاربة القرصنة في البحر المتوسط ؛ إضافة إلى الحصار البحري المفروض على الجزائر في كل مرة ، وكثرة التحرّشات الأجنبية بالسواحل الجزائرية ، وهو ما أدى إلى ضعف غنائم البحر ، وزاد في حاجة الخزينة إلى المداخيل ، وبالمقابل اعتلى سدة الحكم مجموعة من الدايات غير الأكفاء ، الذين كثيرا ما رافق تنصيبهم حملة من شغب العسكر .

---

[1] كسوة يتمنطق بها أي يربطها على وسطه .

[2] ابن هطال ، مصدر سابق ، ص : 53 .

هذا الوضع دفع الحكومة إلى تعويض هذا النقص ؛ بزيادة الضرائب على القبائل التي لم تتحمل الضغط المالي ، فأدى كل ذلك إلى تدهور هذه العلاقة ، وقيام هذه القبائل بالثورة على السلطة العثمانية [1] .

[1] انظر تفصيل موضوع الضرائب في الفصل الثالث .

القبائل الممتنعة :

يعتبر كثير من المؤلّفين الأوربيين أنّ الأتراك لم تكن لهم السيادة على داخل بلاد شمال إفريقيا ، وأنّ سكّان الداخل غاضبون منهم جدا ؛ ومنهم براداي الذي كتب في القرن الثامن عشر يقول : " بلاد زواوة لم تكن في يوم من الأيام تحت حكم الأتراك الفعلي ، وهم الآن اكثر استقلالا ماداموا يملكون الأسلحة النارية . والطريقة الوحيدة التي كان التركي قادرا بها على فرض حكمه ، هي ــ فيما يظهر ــ تفضيل عنصر عن الآخر ، أو قبيلة على أخرى"[1] .

وهذا الحكم وإن كان فيه شيء من الصحة ؛ إلا أنّه بعيد عن الحقيقة الكاملة كما سنرى.

ويذكر باراداي أن قبائل زواوة مشكلة من حوالي 300 قرية ، لا تدفع أيّ نوع من أنواع الضرائب للبايليك ؛ لكنّهم في صراع دائم مع إخوانهم من فليسة الذين بدورهم ليس لهم ولاء لغير شيوخهم ، وأنّ هؤلاء القبائل في حصانة من هجمات الأتراك داخل أحيائهم الجبلية . لذلك فإنّ البايليك يدعم الضعيف منهم ، حتّى لا تكون الغلبة لفرقة ما ، قد يؤدي تفوّقها إلى بروز قوّة مناقضة للوجود التركي [2] .

أمّا ابن هطّال ؛ فيذكر واصفاً ــ منطقة القبلة أو الجنوب الشرقي لبايليك الغرب ــ كما يلي : " اعلم أنّه لما اتفق نظر سيّدنا المذكور [يقصد الباي محمد الكبير] ... في جهة القبلة رأى أنّها ذات بلدان كثيرة و أعراب راحلة ومقيمة غزيرة

[1] ج ب وولف ، مرجع سابق ، ص ص : 175 ــ 176 .

[2] سبق الكلام عن ذلك في المبحث السابق عند ذكر مجموعة القبائل .

إلا أنّها لم تنلها أيدي السلطنة ولم تكن منها لملك مصلحة ولا منفعة معينة كأنّها أمّة أبقت من أهلها أو حرة نشزت من بعلها فشمّر لها عن ساعد الجدّ ، عازماً على ردّ ما بها من الغفار والصمد ، فجمع جموعه وقواده ونشر أعلامه ولم يزد على أن كان جيشه حشمه وخدامه " [1] .

وفي الجملة ؛ فإنّ بعض القبائل التي تسكن المناطق الحصينة جغرافياً ؛ كالجبال والمناطق الصحراوية _ والبعيدة بالتالي عن طائلة المحلاّت التركية وفرسان المخزن _ تعتبر قبائل ممتنعة ، كونها لا تدفع المطالب المخزنية ؛ بل وتهدّد الأمن العام والمصالح الاقتصادية للبايليك ، وتحارب باقي القبائل (متحالفة أو رعية) .

والواقع ؛ أنّ مثل هذه المناطق لم تكن مستقرة ، فكلّما قوي البايليك جرّد عليها الحملات العسكرية ، وبالعكس إذا ضعف – لسبب من الأسباب – فإنّ هذه القبائل تزيد من تمرّدها على المناطق التي انحسرت منها سلطة البايليك .

ويذكر ابن هطّال – واصفاً إحدى هذه المناطق – أنّ باي التيطري حاول إخضاعها ، ولكنه فشل لقوّة وبأس رجالها ، غير أنّها لم تقدر على مقاومة هجوم باي الغرب محمد بن عثمان ؛ إذ يقول : "وهذه المدينة تسمّى زنينة قريبة من الدّبداب بنحو أربع سوائع ، وهي لبعض الأعراب الذين لا حكم عليهم لأحد ، وأهلها أصحاب قوة وعدة وعزة ، وقد ذكروا له أنّ باي تيطري نزل عليها فطردوه وقتلوا له رجلين ، وذهب مذموماً مدحوراً .

---

[1] أحمد بن هطّال ، مصدر سابق ، ص ص : 36 _37 .

فلمّا سمع كلامهم على هذا الوجه ؛ اشتدّ حرصه عليها وأراد النزول بقربها ... فلمّا رآه أهل تلك القرية ؛ علموا أنّهم لا قدرة لهم ولا طاقة لملاقاته ، فخرجوا منها بأجمعهم ولم يأخذوا شيئاً من أمتعتهم وقوتهم ... "[1] .

ويمكن اعتبار القبائل التي كانت تابعة لسلطة الإسبانيين المقيمين بوهران قبائل ممتنعة ؛ كونهم لم يكونوا خاضعين لسلطة البايليك ؛ إلاّ بعد إجلاء الأتراك الإسبانيين عن مدينة وهران ، وكانوا يشاركون الإسبان في حربهم ضد العثمانيين ، ويتحسّسون لهم ويمدّونهم بأعوان ويغيرون على قبائل الرعية الخاضعة لسلطة البايليك ، وقد فصّل في أنسابهم وأحوالهم عبد القادر المشرفي في تقييده بهجة الناظر .[2]

ولقد سعى حكّام الجزائر إلى إخضاع هذه القبائل ، أو على الأقل الحدّ من استقلالها وإجبارها على مهادنة البايليك ، معتمدين طرقا مختلفة ، بحسب قوة البايليك وقوة القبائل ، فمتى كان حصارها ودفعها إلى الجبال والقفار كافياً ؛ فإنّ البايليك كان يكتفي ولا يغامر بجيوشه في ملاحقتها .

كما أنّ الحكومة كانت تقيم حراسة مشدّدة على الأسواق ، وفرضت عليها رسوماً ، يضطرّ أفراد هذه القبائل حين يرتادوها للحصول على المؤن وبيع منتوجاتهم الزراعية إلى دفعها، فتكتفي بما يدفعون من رسوم في هذه الأسواق .

[1] أحمد بن هطّال ، مصدر سابق ، ص ص : 49_51 .

[2] عبد القادر المشرفي الجزائري ، مصدر سابق ، ص : 14 وما بعدها

كما كانت تحاصر مناطق تواجدهم ؛ بإقامة قبائل مخزنية على سفوح هذه الجبال وبالتالي تراقب تحركاتهم وتمنع اتصالهم بقبائل الرعية ؛ مخافة أن يؤثروا عليها ويدفعونها للثورة ، وفي الحالات التي تقوى فيها هذه القبائل وتكثر أعدادها فتصبح خطرا على البايليك فإنّها تجرِّد عليها الحملات العسكرية ؛ لكسر شوكتها وإيقاف خطرها المتنامي .

هذه الحال تنطبق على منطقة القعدة بالغرب الجزائري التي يقول عنها ابن هطّال : " وقد انحاز إلى هذه القعدة جميع من في هذه الجهة من الأعراب ، وامتلأت منهم الأودية والشعاب ، ظنّاً منه [1] أنها تنجيه ممن يطمع فيه وتحميه فاعتمد عليها ، وفوّض أمره إليها ، حتى أنه رقد بالنوم ولم يشعر بما قدره الحيّ القيوم ... ولما أصبح الله بخير الصباح ، وركب وقصد سبع أدوار [هي القعدة] بخيله ورحله ... فلما أحسّت به الأعراب إلى القعدة تحصّنوا في جبل وعر والحصين ... فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى أحاطت بهم القوم من كل جهة ، وجعلت تلتقط أنعامهم وتذهب خيامهم وأمتعتهم حتى أخذوا عن آخرهم ... " [2] .

وفي الحالات التي يصعب فيها القضاء على هذه القبائل ؛ أو إخضاعها بالكامل ؛ تُطرد من مواطنها وتشرد إلى مناطق بعيدة عن نفوذ البايليك ، أو إلى المناطق ذات المردود الاقتصادي القليل ، مع احتفاظ البايليك بالمناطق الخصبة وموارد المياه ، حتّى يضمن تبعيتهم له بصورة أو بأخرى ويتحكم في مصادر رزقهم.

[1] كذا في الأصل والصواب منهم .

[2] ابن هطال ، مصدر سابق ، ص ص : 46 _47 .

إن هذه الطبقات كما هو باد ؛ إنما فرضتها محاولات الأوجاق الحفاظ على امتيازاتها الاقتصادية ومكانتها الاجتماعية ، مع المحافظة على طبقات حليفة تتمتع بشيء من الرخاء ، يدفعها إلى محاولة الإبقاء على الأوضاع كما هي في حالة نشوب أي محاولة لزعزعة أتراك الأوجاق عن مركزهم ، وفي نفس الوقت لا ترقى إلى مكانتهم .

ولم يخالف العثمانيون سياستهم الدائمة في معاملة البلاد التي دخلوها في المشرق الإسلامي أو مغربه ، وهي المحافظة على الأوضاع الاجتماعية ، كما يجدونها ما لم تمس هذه الأوضاع سلطتهم السياسية ، وامتيازاتهم الاقتصادية ، والاكتفاء بالسلطة الاسمية عن السلطة الفعلية في الحالات التي تتطلب فيها هطه السلطة الفعلية مجهودات مكلفة لإقرارها ، خاصة في الأماكن البعيدة عن السلطة المركزية .

ولم تفلت السلطة الحاكمة أي واحدة من الطبقات الموجودة ، مهما كان وضعها من دون أن يكون لها دخل مادي تدره عليها بشكل مباشر ، كضرائب وعوائد ومطالب مخزنية ، أو بشكل غير مباشر عن طريق خدمات تقدمها بشكل مجاني للبايليك أو بالشكلين معا .

وإذا كان أساس التمايز بين هذه الطبقات في المدينة لا يظهر بشكل بارز هذا العامل الاقتصادي ، كون أغلب الطبقات تميزها __ زيادة عليه __ فروق عرقية؛ فإنّ هذا العامل يبدو بشكل صارخ في طبقات الريف ، لأنها لا تخضع للتفريق بينها إلا لهذا العامل .

الآفات الاجتماعية .

أثّر الوجود العثماني في مدينة مازونة – كغيرها من المدن الجزائرية – بوجود نسبة كبيرة من العزّاب الذكور ، على خلاف المدن الإسلامية ، إذ الأصل في العالم الإسلامي هو الزواج المبكر .

والواقع أن لهذا الوضع الشاذ ظروفا سياسية واجتماعية فرضته ، فقد فرض على البرانية القادمين إلى المدن وضع العزوبة ، كونهم غير قادرين على استقدام زوجاتهم إلى المدينة ، ولاهم قادرين على الزواج من بنات المدينة نظرا للحاجز الطبقي . كما فرض نفس الوضع على الزنوج .

وإذا كان هذا الوضع مفروضا على هاتين الفئتين ؛ فإنه بالنسبة لفرق الأوجاق وضع اختياري ، اختاره العثمانيون الذين يستقدمون إلى الجزائر ، مخافة أن يفقدوا سلطانهم وامتيازاتهم ، خاصة بعد محاولة الكراغلة مناجزتهم عليها ، فأصبح الدايات يحاولون منع تزوج الأوجاق من الجزائريات بشتى الطرق ، ويضعون في سبيل هذه الزيجات مجموعة من المثبطات ، منها منع الوجبة اليومية من الأكل ، ومنعهم حق الإيواء في القشلات .

ولقد ولّد هذا الاختلال الاجتماعي الذي فرضته هذه الشروط المخالفة للفطرة البشرية جملة من الآفات ، زيادة على العيوب التي تولدها حياة العسكرية المنغلقة في العادة .

أولا : ظاهرة اللواط و الزنا .

لقد ركّز الرواة الغربيون – وخاصة القناصل – على ظاهرة اللواط عند الجنود الانكشارية ، إما تصريحا كما هو الحال عند بوايي [1] ، أوتلميحا كما عند لوجي دو تاسي[2].

وإذا كان اللواط ظاهرة كتب عنها الأجانب فقط ، فإنّ ظاهرة الزنا قد تكلم عنها حتى المؤلفون العرب ؛ كالزهّار الذي أورد أن أول الأعمال الخسيسة لحسين داي – آخر دايات الجزائر – هو بناؤه لحارة خاصة بالمومسات يرتادها جنود الانكشارية [3] .

إن الكثير من المؤرخين الأوربيين ، يعتبر أن عدد هاته المومسات كان قريبا من 3000 في مدينة الجزائر وحدها ، وهو رقم مبالغ فيه لامحالة ، وقد استنتج بوايي أن عدد البغايا كان مرتفعا من خلال السعر المنخفض الذي كن يتقاضينه ، غير أنّه لم يحدد عددهن [4] .

ويعلّق الدكتور سبنسر على هاتين الظاهرتين بقوله : "... فبالرغم ممّا كان يشاع من ولع أعضاء الأوجاق بالصغار وخاصة اليهود ، أكثر من ولعهم بالفتيات، وتركهم لهن في كثير من الأحيان ؛ فإن ما نملكه من الوثائق كان فقط هو تواجد البغايا غير التركيات ، اللائي احتفظ بهنّ لإمتاع العزاب من اليولداش ،

---

[1] p Boyer , op cit , pp : 227-228.

[2] Laugier De Tassy,op cit , pp : 79-80.

[3] الزهار ، مصدر سابق ، ص : 144.

[4] p Boyer , op cit , p228.

وقد كانت تحت إشراف المزور ، وكنّ مراقبات بشدّة ويفتّشن بانتظام ، ومطلوب منهن أن يعشن في حي مدني خاص محجوز ومقفل على القادمين من خارجه ، وقبل زيارة الحي من قبل الزبون كان عليه أن يقدم طلبا إلى المزور ، يذكر فيه السعر الذي يستطيع الدخول على أساسه ، ويحدد اليوم الذي يريد الدخول فيه ..." [1] .

ومن تعليق سبنسر ؛ يتّضح أولا أنّ وجود الشذوذ كان مسألة عارضة لم تثبتها الوثائق، وربّما حدث بصورة انعزالية أمام أحد الأسرى ؛ فأقام حولها الرواة الأوربيون الأساطير ، كما هو الحال مع أيّ مسألة من شأنها أن تشين إلى الوجود العثماني بالجزائر.

كما يتضح أن البغاء كان محدودا ومراقبا من قبل السلطة ، بالشكل الذي يستحيل معه أن يكون الزنا ظاهرة متفشية في المجتمع ، لايكاد يسلم منه رجل أو امرأة ؛ كما يزعم بوايي [2] .

إن هذه السلطة المتهمة ذاتها ؛ كثيرا ما سعت إلى محاربة هذه الظاهرة في عهد بعض الدايات المصلحين ، مثل علي خوجة الذي يقول عنه الزهّار : "... ثم إنه أمر بإبطال الزنا والخمر ، ومن وجدوه مخمورا أو زانيا فيبعث به للقاضي لإجراء الحد الشرعي ، وأمر الناس بالصلاة مع الجماعة ونادى مناديه أنه من يبقى بدكّانه بعد الآذان فلا يلوم إلانفسه." [3] .

---

[1] وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص ص : 99-100.

[2] p Boyer , op cit , pp229-230.

[3] الزهار ، مصدر سابق ، ص : 136.

لقد كان النظام العام للدولة يفرض على الجنود ألا يقوموا بتجاوزات على الملأ، احتراماً للشعور العام وللمبادئ الإسلامية ، وإذا كانت الحكومة تسمح بوجود بعض المواخير التي يديرها اليهود غالبا ، فذلك حتى تمنع شغب الجنود الذين تدفعهم حياة العزوبة – التي اختارها الأتراك حفاظا على امتيازاتهم السياسية – إلى التعدي على حرمات السكان .

ويعلّق شالير على ذلك قائلا : "وإذا كان الأتراك يراعون حسن السلوك ، ويحترمون تعاليم الدين التزاما بمبدأ سياسي ؛ فإن التجربة أثبتت أن هذا لا يمنعهم من التحلل أحيانا ، والميل إلى المجون الذي يميّز الجنود في كلّ مكان .

وتبعا لذلك فإن الحكومة تسمح بفتح المواخير ... ، وكل ما من شأنه أن لا يؤدي إلى تعكير الهدوء السياسي ، ويسمح في نفس الوقت بإنعاش كبرياء الانكشاري وزهوه ؛ تطبّقه الحكومة بدون تردد..." [1] .

ثانيا : الرشوة .

ومن الآفات التي عرفتها مازونة ولم تسلم منها غيرها من المدن الجزائرية ، ظاهرة الرشوة، وهي ظاهرة ولدت مع عهد الباشاوات ، فقد كان هؤلاء يشترون مناصبهم رشوة من الباب العالي .

ولكّن في أواخر عهد الدايات ؛ وعندما شحّت مصادر الدخل في الأيالة ، نظراً لتقلص نشاط القرصنة ، وضعف الموارد البحرية ، أصبحت الرشوة واحدة من

---

[1] شالير، مصدر سابق ، ص : 55 .

المصادر الثابتة، إذ كل المناصب أصبحت عرضة للبيع ، كما كثرت المناصب فأصبح لكل نشاط يمكن أن يدر ربحا ما خوجة مسؤولا عنه ، وبطبيعة الحال يباع هذا المنصب رشوة لمن يمكنه الدفع ، والذي بدوره يأخذ رشوة ممن هم تحت سلطة منصبه الجديد ، ليستعيد ما خسره في سبيل الحصول على ذلك المنصب .

ويذكر ابن حمادوش صورة أخرى من صور هذا الفساد ، وإن لم تكن دفع رشوة مالا فهي استعمال النفوذ والمحسوبية ؛ إذ يقول :

"... وكان لي تلميذ ابن عمتي ، يصطحب مع خوجة الملح [مدير الجمارك]، وكان إذ ذاك علج الباشا ابراهيم ، طلبت منه أن يطلب من صاحبه إجازة سلعتي ، فنزل إليه وجلس عنده حتى وجهتها له هنا ، فأدخلها مخزنه وبعثها مع أحد خدّامه، فلم يمسكه صاحب الباب فسلمت من المكس " [1] .

ومن صور ذلك ؛ ما ورد في رسالة وجّهها الخليفة عثمان إلى (حاجي) حاكم مازونة، يرفع من خلالها العقوبة المسلّطة على أولاد السيد المهدي ، بعد توسّط أحد أعيان المدينة ، وهو سي عبد القادر ، ويُعِيدُهم بموجبها إلى مناصب عملهم بمسجد السيّد عبد الحق [2] .

---

[1] ابن حمادوش ، مصدر سابق ، ص : 114.

[2] ينظر نص الظهير كاملا في الملحق رقم : .10 ص : .271.

ويذكر الورتلاني – هو الآخر في رحلته – أخبارا عن انتشار الرشوة ، ويشدد في الوعيد لمن يقدّمها ابتغاء الحصول على ولاية من الولايات ؛ كالقضاء والافتاء، ويخبر عن أبيه أنه كان لا يصلي خلف مثل هؤلاء [1] .

ثالثا : الصراعات القبلية .

لقد حدث تدهور وانحلال للأخلاق والعادات الاجتماعية ؛ نظرا للاحتكاك بالجند العثماني صاحب السلوك السيّء ، الذي كان عدده كبيرا ، إلى درجة أنه قارب أن يعادل عدد بقية السكان في المدينة .

كما أن تنافس مختلف الأحزاب الدائرة في فلك كل قائد ؛ طلبا لامتيازات القرب من الحاكم ؛ ولّد حربا مستمرة بين مختلف الطبقات والفئات ، ينضاف إلى ذلك أثر تواجد عاصمة البايليك على أراضي الفلاحين ، التي اقتطعت منها مساحات كبيرة ، منحت كامتيازات للمغامرات الأتراك رأس الهرم الاجتماعي في الجزائر العثمانية ، ولزعماء الطرق الصوفية وعائلاتهم .

ويذكر لوكيل يوسف أن أثر هذا التنافس والشحناء التي ولدها وجود عاصمة البايليك في مازونة ؛ هو أن أصبح كل منزل عبارة عن قلعة محصّنة ، توجه منها فوهات السلاح الناري ، الذي لا تنقطع رصاصاته تجاه الأحياء المجاورة [2] .

[1] الورتلاني ، مصدر سابق ، ص :111 .

[2] Loukil youcef ، op cit ، p 17

بل إنّه يصف الوجود العثماني بصفة عامة ؛ بالمرحلة المظلمة من تاريخ المدينة؛ إذ انقسم فيه السكان إلى مجموعتين ، تضم الأولى كل من أحياء القصبة وبوعلوفة وتاساريت المتاحلفون مع قبائل مديونة .

أمّا الثانية فتضم أحياء بوماتع ، وأولاد السايح والحساسنة حلفاء قبائل صبيح، وتناحر الطرفان مما جلب للمدينة فوضى ورعبا كبيرين ، كل ذلك والسلطة العثمانية عن وضع حد لهذا الصراع الدامي ، أو غير مكترثة له [1] .

إن حدة هذا الصراع ؛ وصلت إلى درجة أن المدينة فصلت إلى قسمين بسور بُنِيَ في ليلة واحدة ؛ ممّا أثّر على الأوضاع الاقتصادية ، فقد اتخذ كل قسم من المدينة سوقه الخاص، فأخذت التجارة طابع المحلية ، الذي يَقْصُر التبادلات على الضروري من الحاجيات ، فتدهورت الصناعة والتجارة بشكل عام .

وبخلاف ذلك ؛ ازدهرت صناعة الأسلحة والذخائر الحربية بشكل استثنائي ، مواكبة لازدياد عدد الغزوات فيما بين الأحياء ، وانتشار اللصوصية والجريمة .

وللتدليل على سرعة التقاتل بين المتخاصمين ، يضرب لوكيل مثلا بمذبحة قامت بين الحيين كان نتاجها سبعين ضحية سقطت من الجهتين ، في معركة وقعت على بعد ثلاث كيلومترات من المدينة ، كان سببها سقوط عنزة في أحد مطامير القمح [2] .

---

[1] Loukil youcef , op cit , p :18
[2] ibid , p : 18

ورغم الجهد الكبير المبذول من قبل رجال الدين ، وعلماء وشيوح الزوايا ، ومعهم المرابطين والأشراف لعقد الصلح بين المتخاصمين ؛ إلا أن جهودهم لم تُكلل في معظم الأحيان إلا بالحصول على فترات من الهدنة ، سرعان ما يكسر هدوءَها طلقاتُ البنادق لأتفه شجار ، وذلك لأنّ الأحقاد الدفينة لا تحتاج جهدا لانتكاء جروحها وتأجيج لهيبها ، ففي كل بيت من الحيّين ثارات تترقب الفرصة للأخذ بها عند كل سانحة .

وأمام عجز بيوت الكراغلة الأربع الكبرى – التي كان يعين منها الباي قائدَ المدينة — ، عن وضع حد لهذه الخصومة المتجذرة ؛ اضطر الباي حسن — آخر بايات وهران — إلى تعيينم الحاكم إمّا من أتراك مدينة وهران ، أو من الجزائر مباشرة[1] . هذا الوضع المزري ؛ هوى بالمدينة إلى أدنى المستويات ، حتى لم تعد تذكر إذ لم يعدّدها حمدان خوجة [2] في مرآته خلال وضعه لجدول المدن الشهيرة لبايليك الغرب [3] .

---

[1] M Belhamissi ، op cit ، p 47

[2] هو حمدان بن عثمان الخوجة الجزائري الحنفي : ولد بالجزائر سنة : 1187 - 1773 م ، وتعلم بها ، ولما أمضت حكومة الداي الجزائرية اتفاق تموز (1830) مع الفرنسيين ، نظّم الجزائريون بزعامة صاحب الترجمة أول حزب وطني سياسي، عرف بلجنة المغاربة أو حزب المقاومة ، وقارع الاستعمار الفرنسي بقلمه ولسانه ، ونفاه الفرنسيون من الجزائر، فأقام مدة بفرنسة ، وسافر الى إسطنبول فعمل مترجما في مطبعة الحكومة إلى أن توفي بين سنة (1840 و 1845) له كتب ؛ منها (المرآة) و(المذكرات) و(حكمة العارف) ، وترجم معظم إنتاجه الى الفرنسية . ينظر : خير الدين الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 2 ، ص : 274 .

[3] حمدان خوجة ، المرآة ، تقديم وتعريب وتحقيق : محمد العربي الزبيري ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2005م ، ص ص : 57 - 59.

كما لم يذكرها شالير في مذكراته ، رغم أنه ذكر جارتها مستغانم ، التي أقرّ بأنها لم تعد بذات الأهمية التي كانت عليها قبل فتح وهران [1] .

[1] ويليام شالير ، مذكرات ويليام شالير ، ص : 35 .

العادات والتقاليد :

إذا صدّقنا روايات الرحالة الأوربيين ، الذين زاروا الجزائر في عهد الدايات ، من رجال دين ، وقناصل ، ووكلاء تجاريين ؛ مثل " دو تاسي " و" شاو " و" دي بوا تانفيل " ، فإن حياة الجزائريين كانت منحطة إلى درجة كبيرة .

أما الأسرى الذين كتبوا عن يومياتهم بالجزائر ؛ فإن رواياتهم تعتبر الجزائريين مجتمعا من الوحوش ، الذين جانبوا طريق الحضارة بعقود من الزمن ــ هذا في الغالب ــ ، غير أننا إذا قارناها بما وصل إلينا من كتابات الجزائريين آنذاك ؛ وجدنا البون شاسعا ، بل إننا عندما نتفحص كتابات هؤلاء الأوربيين أنفسهم ، ونقارنها فيما بينها ، نكتشف أن حياة الجزائريين لم تكن تختلف بسلبياتها وإيجابياتها عن حياة أي مجتمع في دولة آنذاك .

وها هنا جملة من العادات التي اتصفت بها حياة أهل مازونة ، سيتضح من خلالها ما يؤكد فعلا ؛ أنهم لم يكونوا بدعا من المجتمعات ، بل شابهوا في سلوكاتهم غيرهم من المجتمعات المعاصرة لهم .

وإذا كان وضع الجزائر عامة ومازونة خاصة ؛ فيه بعض الاختلافات من حيث العادات والسلوكات ؛ فإن مرد ذلك يعود إلى ظروفها الخاصة ، فلقد اعتبرت مازونة أرض الجهاد ومقاومة حركة الاسترداد ، التي خاضتها الكنيسة في محاولة لاستعادة كل الأراضي الإسلامية ، التي خضعت في يوم من الأيام إلى سلطة المسيحيين ، ومثّلت وهران التي بقت تحت حكم الاسبان شوكتها المغروسة

في خاصرة الجزائر العثمانية ، وإذا اختلف أهلها عن غيرهم في بعض الجزئيات ؛ فإن ذلك من طبيعة التمايز التي خص الله بها البشر .

يتكلم المؤرخون الأوربيون في وصفهم للحياة الاجتماعية بالجزائر العثمانية ، عن بعض الآفات ويهملون الحديث عن الميزات الإيجابية ، وعن الروابط الحميمة التي اتصف بها المجتمع الجزائري آنذاك[1] .

وربما يعود ذلك إلى إغفال المؤرخين الجزائريين الحديث في مؤلفاتهم عن هذا الجانب ، واهتمامهم بالتأريخ للأحداث السياسية التي عاصروها ؛ الشيء الذي أخلى الساحة لغيرهم ممن يرى الأمور بغير أعينهم .

صحيح أن الأوربيين يصفون كرم سكان البوادي وحسن ضيافتهم ، وصحيح أيضا أن جزءا من الآفات التي يتكلمون عنها كان موجودا ، وتكلم عنه المؤرخون الجزائريون أنفسهم ، غير أن حكم الإطلاق هو الخطأ .

كما أن تقييم الظواهر الاجتماعية بقيم غير القيم التي تحكم المجتمع ذاته ، وإغفال الحديث عن قيمة هذه الظواهر بالنسبة إلى ظروف حدوثها في الزمان والمكان ؛ يعتبر خطأ منهجيا ، كثيرا ما ترتبت عليه أحكام ظالمة ، خاصة فيما يتعلق بحياة المرأة وكذا أحكام الزواج والروابط الاجتماعية بصفة عامة .

وإذا اعترفنا بوجود جملة الآفات المذكورة ، فإن الموضوعية تقتضي أن نقيس حجمها بالنسبة إلى ما كان شائعا في المجتمعات المجاورة آنذاك ، ثم أن نقيسها أيضا بقدر شيوعها في المجتمع وبنسبتها إلى حجم العلاقات الاجتماعية الأخرى .

---

[1] De Tassy , op cit , p : 105.

أ/ الزواج :

يعتبر الحمام المكان المناسب لاختيار الزوجات للأبناء والإخوة ، لأن التقاليد الإسلامية كانت تمنع اختلاط الرجال بالنساء ، زيادة على أن الشكل العمراني كان يسمح للمرأة بإن تتنقل عبر سطوح المباني إلى كل أنحاء المدينة ، من غير أن يراها الرجال [1] ، بل وحتى اللواتي تدفعهن الضرورة إلى الخروج ، فإن الحجاب الذي ترتدينه يمنع الإطلاع على جمالهن .

وبالتالي كان الحمام هو المكان الوحيد الذي تلتقي فيه النساء مرة كل أسبوع على الأقل ، وغالبا ما يكون الموضوع الأساسي للمناقشة هو اختيار زوجات مناسبات ؛ إذ يذكر "وليم سبنسر" أن هذا اللقاء الأسبوعي لا يمثل تنظيفا تقليديا فقط ؛ ولكنه يعتبر " نوعا من إظهار الأزياء ، إلى جانب تبادل الأخبار العائلية ، وفي مثل هذه المناسبات تعرض الثروة العائلية ، فربما لبست بورجوازيات مدينة الجزائر [وغيرها من المدن الجزائرية] أشرطة ثقيلة الوزن من الذهب حول الوسط والعنق... وهناك قطعة من الحلي كان قد شاع استعمالها في شكل ماسة أو كرة ذهبية ، توضع عند نهاية سلسلة ذهبية ، وذلك علامة اعتماد المرأة على زوجها"[2].

[1] يذكر دو تاسي معلقا على طبيقة البناء أنه لا وجود لا إلى الحدائق ولا إلى ساحات عمومية ، بل إن البنايات متراصة فيما بينها بشكل يجعل سطوحها متصلة فيما بينها بالشكل الذي يسمح لك بأن تطوف على المدينة دون أن تضطر للنزول إلى الشارع وهذه الأسطح سالمة من اللصوص أو الغرباء لإن من يرتادها منهم فقد حكم على نفسه بالموت ، ينظر :.De Tassy , op cit , p : 105

[2] وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص : 91 .

وإذا كان الاتفاق على الزواج يتم مبدئيا في هذه الحمامات ؛ إلا أن الزواج كان يحكمه دستوره الخاص والمقدس الذي يراعى فيه جانب الترفيه والسياسة والاقتصاد والسلوك الاجتماعي ، زيادة على الأعراف والتقاليد ، هذه الأخيرة التي غالبا ما يتقدمها استمرار الارتباط العرقي الذي تفرضه العصبية.[1]

وينقل لنا الشيخ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري [2] في رحلته صورة عن صيغ عقود الزواج لبنت بكر [3] ثم لأخرى ثيّب ، ويظهر من خلال العقدين أن الفرق بين المهرين غير كبير .

ويفهم من ذلك أن الثيب كانت تتزوج بسهولة ، وأن للبكر اشتراط عدم التزوج عليها أو التسري معها إلا بإذنها ، وهو ما لم يذكر في عقد زواج الثيّب .

وقد ذكر ابن حمادوش هذه المسألة في عقد زواج بكر أخرى [4] ، وكيف اشترط في عقدها عدم الزواج عليها أو التسري معها ، واشترط مقابل ذلك أن

---

[1] وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص : 97.

[2] هو عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش: ولد سنة : 1107م. 1695 م ، عشاب فقيه رحالة. من أهل الجزائر. كانت حرفة أسرته الدباغة وعرف أبوه بالدباغ. حج حجته الأولى (سنة 1130) مارا بتونس. وقام برحلات إلى المغرب (1156) قرأ فيها على جماعة، منهم محمد بن عبد السلام البناني الفاسي.

وأشار في رحلة أخرى إلى أنه زار بلاد العرب والعجم والترك. وروى في مدينة رشيد بمصر (سنة 1161) وصنف كتبا، منها (كشف الرموز في بيان الأعشاب) ، و (رحلة) سماها (لسان المقال، في النبأ عن النسب والحسب والحال) ، وله (تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج) . توفي عام : نحو 1195 هـ . 1780 م . ينظر : خير الدين الزركلي ، مرجع سابق، ج :3 ، ص : 352 .

[3] عبد الرزاق بن حمادوش ، رحلة بن حمادوش الجزائري ، تحقيق وتقديم د/ أبو القاسم سعد الله ، (الجزائر : الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ، 1983) ، ص : 238.

[4] عبد الرزاق بن حمادوش ، مصدر سابق ، ص : 241.

يكون على والدها إيواء الزوجين دون أجر مدة الزوجية ، وهي ملاحظات تُظهر لنا طبيعة العلاقة الزوجية في ذلك العهد و بعض الظواهر الاجتماعية الموازية لها مثل كتابة العقود بعد الزواج بمدة عندما تتزوج البنت صغيرة السن على طريقة الجماعة ، كما هو الحال مع أخته التي كتب عقدها سنتين ونصف بعد زواجها[1] .

وفي ذكره لاشتراط الزوجات عدم التزوج عليهن أو التسري معهن ؛ تكذيب لمزاعم بعض الكتاب الأوربيين الذين يصفون المجتمع الجزائري آنذاك بالفوضى الجنسية ، ويبالغون في وصف ما يعرف عندهم بمصطلح الحريم (harem) أو نساء الرجل وجواريه [2] .

ويلاحظ من مجموع العقود التي أوردها ابن حمادوش ؛ أن المهور كانت جد معتبرة ، وأنها كانت تنقسم إلى مقدَّم ومؤخر يدفع بعد انقضاء مدة من الزواج ، وتضبط هذه المدة بدقة في العقود [3] .

وذكر المؤلف نموذجا لعقد زواج أندلسيين [4] يختلف عن سابقيه ، بكونه أثبت في العقد ما وهب كلا الوالدين للعروسين من أملاك كهدية على زفافهما ، ومن خلال هذا العقد يظهر جليا أن الأندلسيين كانوا في حال ميسور ، ولذلك نجد بعض المغالاة في مهورهم ، وهو ما قد يفسر لنا ارتفاع المهور في بعض المدن

[1] عبد الرزاق بن حمادوش ، مصدر سابق ، ص : 244.

[2] P Boyer,opcit,p: 226 .

[3] عبد الرزاق بن حمادوش ، مصدر سابق ، ص : 238 وما يليها.

[4] نفس المصدر، ص ص : 246 -248 .

الجزائرية اليوم ، أمثال تلمسان وغيرها ، ربما لكون المدينة إحدى محطات الأندلسيين الكبرى في الجزائر في ذلك العهد .

ويصف لوكيل يوسف كيفية إعلان عقد قران بين عائلتين مازونيتين ، إذ وبعد الانتهاء من إبرام العقد ، تنطلق نسوة تتقدمهم والدة العروس أو إحدى قريباتها ؛ ويتبعهم لفيف من الفتيات الصغيرات تلبسن أحسن الثياب ، وتتزينّ بالحلي ، وتطرقن أبواب منازل المدينة ، معلنات الخبر السعيد للأقارب والأحباب ، وتدعين عائلات المدينة للمشاركة في حفلة الحناء التي تعقد في بيت العروس في نفس اليوم الذي عقد فيه القران ، كل ذلك يرافقه زغاريد النساء وطلقات البارود[1] .

وفي مساء نفس اليوم ، وبعد الانتهاء من إطعام المدعوين إلى مأدبة الغداء ؛ تباشر النساء طقوسهنّ الخاصة بحفلة الحناء ، بحيث تحمل امرأة قوية البنية العروس على ظهرها وسط المدعوات ، ثم تضعها على كرسي ليراها الجميع ، وتقوم أسنّ النساء برفع نقابها عن وجهها ، ثم تزيين يدها بالحناء ، بعد أن تضع في يدها اليمنى قطعة ذهبية ، جلبا للحظ السعيد [2] .

وقد تمتاز مدن الجزائر عن باديتها بارتفاع عدد الذكور ، نظرا لتواجد الأوجاق بها ، وكذا جماعات البرانية الذين يدخلونها بحثا عن عمل ، وقد يكون

---

[1] Loukil youcef , op cit , p : 32 .
[2] ibid , p : 33 .

هذا أحد الأسباب التي تسمح للمرأة باشتراط عدم التعدد أو التسري بغيرها ؛ إلا بإذنها كما سبق الذكر.

وهناك ظاهرة اجتماعية تابعة لمسألة الزواج ؛ عرفتها مدن الجزائر وهي ظاهرة التوسط ، وتمثله غالبا امرأة مسنة تربطها علاقة قرابة أو صداقة بالعائلتين المتصاهرتين ، ونظرا لحياة التكتم والحشمة التي تطبع حياة المرأة في العالم الإسلامي؛ فإن دور تلك النسوة كان ذا قيمة كبيرة ، إذ كن يجبن الديار يستطلعن أخبار الفتيات اللاتي بلغن سن الزواج ، كما ينقلن أخبار الأصهار الاجتماعية والاقتصادية [1].

ولذلك فإنهن كن يفزن بجائزة معتبرة في حال نجاح الوساطة ، ولازالت هذه الظاهرة مستمرة إلى اليوم ، غير أن حدّتها قلت نظرا لتطور الحياة ، وخروج المرأة من تلك العزلة .

وتقام حفلات الزواج تبعا للمكانة الاجتماعية والاقتصادية للعائلات المتصاهرة ، فإذا كان زواج الريفيين بسيطا يطبعه مشهد واحد ، يجمع الزوجين ويحمل كل منهما إلى شفتي الآخر كأسا من الحليب ؛ فإن الزواج عند العائلات الحضرية أو الكرغلية يدوم أسبوعا كاملا، تتخلله مجموعة من المراسيم .

يذكر " بانانتي ، pananti" جزءا من هذه المراسيم قائلا : " يتجول الزوج بضعة أيام قبل الحفل ، في نواحي المدينة على أصوات الطبول والمزمار... ، وفي

---

[1] وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص ص : 97-98.

يوم الزواج يقوم بجولة أخرى مرتديا جلبابا أحمر ، وبجانبه سيف رفيع ، كما يوجد خمار ملقي على وجهه للحيلولة دون تأثير عين الشيطان ، وخلال الثلاثة أيام التي يجري فيها الاحتفال ، يؤخذ العريس إلى الحمام حتى اليوم الذي يتم فيه الزواج ، وفي ذلك اليوم يجتمع الأصدقاء والأقرباء ، فيقوم العريس بالصلاة بمحضرهم ، وينصرف بعدها ليلتحق بالزوجة في بيتها ، وهنا يعلن عن أنهما زوجان لبعضهما بواسطة بعض الصلوات التي يقوم بها الزوج والأئمة..."[1].

والمقصود بالصلوات في نص باناتي ؛ هو عقد القران أو ما يعرف عندنا بقراءة الفاتحة ، والذي تصبح الزوجة بعده حلالا لزوجها شرعا ، تنتقل بعدها الزوجة إلى دار زوجها على ظهر حصان مزين بالهودج [2] ، يرافقها ركب من الأهل والأصدقاء في موكب بهيج ، يحملون المشاعل والمزامير ويقرعون الطبول ، وعند وصولها إلى باب الدار تؤخذ بعناية شديدة كي لا تطأ قدماها الأرض ؛ الشيء الذي يعتبر فألا سيئا عندهم [3] .

أما في مازونة ؛ فيذكر لوكيل يوسف أن موكب العروس إلى بيت زوجها يسبقه موكب نسوي تدوي فيه الزغاريد وتقوده عجائز يحملن جهاز العروس

[1] وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص : 98.

[2] يذكر لوكيل يوسف أن هذا الهودج ذي اللون الأحمر يُحمل على ظهر بغل ، ويقوده أحد العبيد السود القلائل الباقين بمازونة . ينظر : . Y Loukil , op cit , p : 33

[3] Laugier De Tassy,op cit, pp 47-48.

وحليها ، يرافق هذا الموكب مجموعة من الرجال يطلقون البارود ، ولكن دون أن يختلطوا بالنساء [1] .

ب/ المرأة:

يعتبر الأوربيون مجتمع الجزائر في العهد العثماني عامة ؛ مجتمعا رجاليا لا دور للمرأة فيه، ففي الوقت الذي يقوم فيه الرجل بمختلف الأعمال السياسية والاجتماعية والدينية وغيرها ، يقتصر عمل المرأة على غسل الأواني ، ونفض الزرابي والأفرشة ، وتحضير الطعام ، ولمواجهة هذه الأعباء ؛ كانت النساء ترتدين ملابس بسيطة تساعد الأمهات على إرضاع أطفالهن رضاعة طبيعية ، ولمدة تتجاوز الثلاث إلى أربع سنوات أحيانا .

أما أرجلهن وسيقانهن فتبقى عارية لا تسترها سوى فوطة مخططة معقودة من الأمام .

ولكي تخرج المرأة المسلمة من بيتها ؛ عليها أن تستر وجهها عدا العينين بمنديل مربع أو مثلث تعقده في القفا ، ثم تضع على كتفيها لحافا يربط في مقدمه ، يعين على تدعيم سترة الثياب ، التي غالبا ما تكون خفيفة وغير ساترة ، ثم تحيط المرأة نفسها بحايك من الصوف الخفيف أو من الحرير أو القطن يسمى ب " فوطة نتاع السنانيق "[2].

---

[1] Y Loukil , op cit , p 33.
[2] P Boyer , op cit , p : 159 .

وعلى عكس ما يرى "بوايي" ؛ فإن المؤرِّخ الألماني " فيلهلم شيمبر" يرى : " أن المرأة تعيش كالسجينة تقريبا ، وليس مرد ذلك إلى غيرة زوجها ، وإنما مرده إلى العادة المتبعة . فالرجل الجزائري ليس غيورا جدا ، بل هو في غيرته لا يختلف عن أي إنسان ينتمي إلى شعب آخر ، وإن هو وجد رجلا في بيته ، فإن تصرفه في هذه الحالة لا يختلف عن تصرف رجل ألماني مثلا " [1].

هذه الآراء الأوروبية لا توافقها أوضاع المرأة المازونية التي كانت تشارك على اختلاف الفترات التاريخية في المجالس العامة وتبدي رأيها في المسائل الخطيرة التي تهم أمر المدينة ، بل وكثيرا ما انتهت هذه المجالس باختيار إرادة النساء المشاركات فيها [2] .

والجدير بالذكر أن الأسرة الجزائرية لم يختلف فيها وضع المرأة كثيرا عن بقية الشعوب الأخرى ؛ ففي حديث " فيلهلم شيمبر " عن الأسرة والسعادة التي تسود حياتها المنزلية يقول: " وقد أتيح لي أن أراقب أسرة كانت تسكن بجواري ، فحين يعود الرجل إلى البيت تستقبله الزوجة معانقة إياه مقبلة ، وتجلسه قربها فوق الأريكة وتحدثه ويحدثها ، ويسرع الأطفال كذلك إلى أبيهم فرحين ، فيضمهم إلى صدره في حنان وحب ، ويأخذ في مداعبتهم ..." [3].

---

[1] أبو العيد دودو ، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855م ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989، ص : 13.

[2] Y Loukil , op cit , p : 28 .

[3] أبو العيد دودو ، مرجع سابق ، ص : 12.

وفي هذا الكلام تكذيب قاطع لمن ادعى أن رباط الزوجية لا قيمة له ، وأن للرجل حق التخلص من المرأة ؛ إن هو قدّر عدم صلاحيتها له ، وأنه لا وجود للمحبة بين الزوجين ، وإنما هناك العلاقة الجنسية .

وفي العائلات الغنية يعتبر الاهتمام بثياب المرأة ومظهرها أهم عمل بالنسبة لها، ولذلك فإن الوقت الذي تصرفه النساء الغنيات للاهتمام بأشكالهن لا يحسب عندهن غير أن عقاقير الزينة هي الحناء والكحل .

وإن كانت النساء الجزائريات لا تستعملن مساحيق التجميل الأخرى ، التي تشتهر عند الأروبيات ؛ فليس لأن هذه المساحيق كانت مجهولة في الجزائر ؛ بل لأن الأذواق كانت تفضل هذه الوسائل البسيطة والتقليدية .

ولهذا الاختيار ما يبرره ؛ فقد شهد " شالير " أن المرأة الجزائرية قادرة على منافسة نساء أي بلد آخر في العالم (في الجمال) ، وما يميّز جمالهن هو العيون والحواجب والأسنان [1]. وهي المواضع التي تركّز عليها النساء الجزائريات في تجميلهن، باستعمال الكحل للعيون والسواك أو ما يعرف محليا بالمسواك للأسنان ، فإن هذا الأخير ينقي الأسنان ويزيد في صفائها ، كما يعطي للثة الفم لونا برتقاليا براقا [2].

[1] وليام شالير ، مصدر سابق ، ص : 79.

[2] P Boyer, op cit, p159

ث/ وسائل الترفيه

يروي كثير من الأوربيين – الذين زاروا الجزائر في العهد العثماني – في مؤلفاتهم ؛ أن زائرها لا يجد أي متعة ، لأن الحياة في مدنها مملّة ، من كثرة رتابتها وقلة وسائل الترفيه عند الجزائريين .

ولكن الحقيقة بعيدة عن ذلك كل البعد ، وربما يعود هذا الحكم كما يرى بوايي [1] " إلى غياب العنصر النسوي في وسائل الترفيه ، كون البيئة الإسلامية تفرض عدم خروج المرأة واختلاطها بالرجال إلا لضرورة ، بخلاف الأمر في المجتمعات الغربية .

ويعتبر المقهى أهم مؤسسة ترفيه لسكان المدينة ، ويكون في الغالب تحت إدارة أحد الأعلاج ، أو الأرقّاء المسيحيين الذين يدفعون للبايليك جزءا من الفائدة، وتقدم فيه القهوة والشاي ، لكن أهم ما يجتمع عليه في المقهى هو مقابلات لعبة (الدامة) ، وعروض (القرقوز) ، كما تقوم الفرق الموسيقية بتقديم وصلات تطرب بها الحضور .

ولقد اختلفت المناسبات التي تقوم فيها هذه الفرق بعروضها من حفلات زفاف وختان، إلى احتفالات بتولية داي جديد أو باي من البايات ، أو انتصار كبير على الأعداء وغير ذلك .

---

[1] P Boyer, op cit , p : 114.

وكانت السلطة السياسية تجازي هؤلاء الموسيقيين بالهدايا في هذه المناسبات ؛ الأمر الذي جعل الكثيرين من العوام رجالا ونساء يهتمون بعزف الموسيقى ، زيادة على الفرق العسكرية التي تعرف موسيقاها بـ : " النوبة " [1].

ومن الأماكن التي يجتمع فيها عدد كبير من الناس الحمامات الجزائرية ، التي اتفق الزوار الأوربيون على مدحها ، ووصف دوام الجزائريين على زيارتها للاغتسال، وهو ما جعل الكثير من الكتّاب الأوربيين يشيدون باهتمام المسلمين بمسألة النظافة في هذه الحمامات [2].

أما رياضة المصارعة ؛ فهي من الرياضات التي يهتم بها الجزائريون كثيرا ، والتي يجتمع على مقابلاتها التي تجرى في ميدان خاص ، ويحضرها عدد لا بأس به من المشاهدين .

وقد وصف كثير من الأوربيين هذه المقابلات ، وعلّقوا على مهارة المتصارعين، الذين لا يغفلون مناسبة دون المشاركة بعروضهم في اتحاف الجماهير[3].

ومن وسائل الترفيه التي تفردت بها مازونة ما سمّاه لوكيل يوسف مهرجان الضباع ، ووصفه وصفا دقيقا مفصلا ، بيانه أن ينتدب مجموعة من شباب مازونة، فيكلّفون باصطياد ضبع من الفلاة ، ثم يأتون به حيّا ، فيخرج أهل المدينة لاستقبالهم استقبال الأبطال ، وهم يردّدون " جابوه ، حمْصُوه " ، وفي اليوم الموالي

---

[1] أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر. ، مرجع سابق ، ص : 455.

[2] ج ب ، وولف ، مرجع سابق ، ص : 152.

[3] وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص : 103.

تستيقظ المدينة باكرا ، وينتظر الأطفال وكلابهم معهم أن يطلق الضبع الذي ربط ذيله بحبل حتى لا يتمكّن من الفرار ، وتنطلق الفرجة للجميع ، الناس بفرّون من أمام الضبع ، وهو يفر من الكلاب ، دون أن يتمكن من الخلاص بسبب الحبل المربوط بذيله ، إلى أن يلقى مصرعه في نهاية الأمر [1] .

[1] Y Loukil , op cit , p : 42 .

العادات الدينية :

يشترك الجزائريون مع غيرهم من المسلمين في بعض العادات الدينية ؛ كالاحتفال بالأعياد الدينية ، مثل المولد النبوي وعيدي الأضحى والفطر ، ويتميزون عنهم ببعض الفروق التي فرضتها ظروف الجزائر .

فلقد اجتمع في الجزائر العنصر الأصلي من عرب وبربر ، والعنصر التركي ، والعنصر الأندلسي ، ولكلٍ خصائصه . غير أن الطابع التركي هو الذي كان يغلب على المدن ؛ كون تأثير الحاكم فيها أكبر ، لوجود السلطة المركزية للمدن ، ولوجود حاميات من الأوجاق الأتراك .

أما سكان البوادي ؛ فإن تأثير العثمانيين في عادتهم لم يكن بالشيء المذكور، لأنهم كانوا يتّبعون في عاداتهم توجيهات شيوخ الزوايا ، وأئمة الطرق الصوفية ، بالإضافة إلى تقاليدهم التي ورثوها عن آبائهم ، والتي لها قداسة لا تضاهى .

ومع الأسف الشديد ؛ فإن المؤرخين اهتموا بذكر عادات أهل المدن وأهملوا الريف ؛ إلا ما كان نتفا في كتب الرحالة الذين جابوا البلاد وهم قلة مثل فلهلم شيمبر وموريس فاغنر الالمانيين ، وشاو الإنجليزي .

زيادة على هذا ؛ فإن الرحّالة يستقرّون في المناطق التي يصفونها لمدة قصيرة ، لا تكفي لملاحظة جميع العادات ، مثلما هو الحال مع الذين كتبوا عن المدن ، فإن منهم من عاشوا فيها لسنوات عدة ، مثل الأسرى والقناصل ، وللأسف الشديد ليس هذا حال مازونة التي لم يكن فيها وجود لهؤلاء الأسرى المسيحين

ولهذه الأسباب فإن العادات الدينية التي سيرد ذكرها بعد قليل ، تتعلق بسكان المدينة أكثر منها بسكان الريف.

الاحتفال بعيد الأضحى .

إن الاحتفال بعيد الأضحى ، يبدأ بإطلاق طلقات من المدافع والبنادق ؛ إيذانا بطلوع فجر يوم العيد ، فيعمد الداي في العاصمة " ... ليستقبل تهاني وهدايا أعضاء حكومته ، وممثلي الحكومات الأجنبية المقيمين في العاصمة ، [وكذلك يفعل البايات في بايليكاتهم] ، ثم يقود ذهاب الوجهاء وسكان المدينة وأعضاء الأوجاق إلى جامع الحواتين ، حيث يقع ذبح التضحيات [1] .

وأثناء ذلك تكون طلقات البنادق على أشدّها ، والفرقة العسكرية للموسيقى تعزف الموسيقى الحربية ، وعند انتهاء الصلاة الرسمية ؛ تفتح أبواب قصر الداي على مصراعيها للعامة ، فيقدم الكوسكوسو [2] المطبوخ بعناية لكل من حضر " [3].

ويذكر " كاثكارت " – أسير الداي – في مذكراته ما يؤكد هذا الوصف ليوم العيد ويزيد عليه ، إذ يؤكّد أن العيد يحتفل به في القصر بالمآدب والموسيقى ومباريات المصارعة والصواريخ والمفرقعات ، وتبعا لوصفه فإن هذه الاحفالات تبدأ قبل يوم العيد وتنتهي باليوم الثالث للعيد .

---

[1] كذا في الأصل والصواب الأضحيات.

[2] كذا في الأصل ؛ والمقصود طعام الكسكس . وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص :101.

[3] وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص :101.

ففي اليوم الأول يرفع العلم التركي على القصر ، وعلم الجزائر على تحصينات المدينة وتطلق مدافعه هذه التحصينات نيرانها والمدافع المسددة إلى البحر قذائفها . وبعد مباريات المصارعة التي تقام في المدينة ؛ يأتي كبار الموظّفين في الدولة وأعيان المدينة إلى قصر الداي ، – وكذلك الشأن مع البايات في بايليكاتهم – لتقبيل يديه، وتقديم التهاني بيوم العيد ، كما يحظر هذه المراسيم القناصل ، وشيخ البلد ، وأمناء الطوائف ، ومنهم أمين طائفة اليهود ، وعقب هذه المراسيم ؛ يدعي كبراء القوم لتناول الغداء مع الداي على مائدته [1] .

وفي اليوم الثاني ؛ يعطى العبيد عطلة ليحتفلوا هم بدورهم بالعيد ، من غير أن يكونوا ملزمين بالخدمات التي يقدمّونها لسادتهم في سائر الأيام .

أما اليوم الثالث فيحتفل به بنفس الكيفية التي احتفل بها في اليوم الأول ، عدا إطلاق الصواريخ ومعايدة القناصل للداي [2] .

وهو نفس ما يؤكّده لوكيل يوسف عن مازونة ، يضيف إليه فقط ألعاب الفروسية ، ممّا يبيّن أنّ فلسفة الاحتفال بالأعياد الدينية ، بل وحتّى بعض تفاصيل هذه الاحتفالات كانت سياسة عثمانية متّبعة في سائر مدن الأيالة [3] .

ويذكر بوايي أحداث اليوم الأول بشيء من التفصيل والترتيب ، إذ يؤكّد أن اليوم الأول يبدأ بخروج الداي إلى المسجد ، وبعد أداء الصلاة يذبح الداي كبش الفداء في القصر، وبعد انتهائه يرفع العلم على سطح القصر ، وعندها تطلق

---

[1] كاثكارت ، مصدر سابق ، ص : 32.

[2] نفس المرجع ، ص : 32.

[3] Y Loukil , op cit , p : 37

مدافع البحرية طلقات تعلن للرعية أنّ الداي قد فرغ من الذبح ، وأنّه يمكنهم أن يذبحوا أضحياتهم الآن .[1]

وفي هذا الإجراء اتباع واضح للسنة النبوية ، بعدم الذبح قبل فراغ الإمام من ذبحه ، فقد أورد غير واحد من الفقهاء أن من ذبح قبل الإمام فإنه خالف السنة[2].

أما عيد الفطر ؛ فإن الاحتفال به لا يخالف كثيرا الاحتفال بسابقه ، فهو الآخر يحتفل به لمدة ثلاثة أيام ، ولا يفرق بينهما ، غير غياب الأضحية والاستعاضة عنها بمظاهر الفرح الأخرى ، كلبس الجديد ، وتبادل الزيارات والهدايا وقطع الحلوى ؛ التي تتفنّن النساء في صنع أطباق مختلفة منها ، لذلك يسمّيه الأتراك بعيد السّكّر (seker bayram) .

أ- الاحتفال بالختان .

يحتفل الجزائريون بختان أولادهم احتفالا كبيرا ، خاصة إذا كانت العائلة من طبقة اجتماعية رفيعة ، أو كانت ميسورة الحال ، ومن العادة أن ينتظر الفقراء والبسطاء من الناس فرصة ختان واحد من أبناء هذه العائلات ، ليختنوا أبناءهم في نفس اليوم ، وتتكفل هذه العائلات بمصاريف الاحتفالات للجميع .

ويذكر " الشريف الزهّار " أن احتفالات ختان ابن الداي مصطفى كانت منقطعة النظير ؛ فقد : " أخرج الطبّاخين من دار الملك ، وأضاف إليهم آخرين ، وكذلك طباخي وزرائه ، ودعا أهل البلد من الخاص والعام وكافة الفقهاء والطلبة ،

[1] p Boyer , op cit , pp : 225 -226 .

[2] ابن أبي زيد القيرواني ، متن الرسالة ، مكتبة رحاب ، الجزائر ،1987م ، ص : 82.

وكافة أهل الجهاد من رؤساء وغيرهم ، وجمع كل أهل الآلات من ترك وعرب ....، ورتّبوا في كل ليلة من أنواع الملاهي على اختلاف أنواعها..." [1] .

فكان الإطعام للجميع ، وكذا ضروب الغناء والترفيه ، وإطلاق المدافع وعروض الفروسية والبهلوانات ، ودامت الأفراح سبعة أيام ؛ نال خلالها الناس غاية من الإنعام ، خاصة طلبة العلم والزوايا .

" وأمر بختان أولاد الفقراء ، فاجتمع منهم خلق كثير ، ورسم لكل واحد عشرة محبوب، واستمرّ الختان في أولاد الفقراء من العمالة نحو الشهر ، ويعطيهم مثل ما أعطى الأولين من الصبيان " [2] .

ويذكر "ابن حمادوش" قصة ختان ابنه بصورة يتجلى من خلالها أهمية الاحتفال بالختان، وكيف لامه أهله لأن فقره دفعه إلى البعد عن الاحتفال فيقول : "...وفي يوم الجمعة لقيت حجّاما فأخذته معي إلى داري ، وظننت [3] أن ابني لا يعرفه ، فدخلنا الدار ، وقلت له اصعد مع عمك للعلوى [4] ، ففرّ إلى خارج الباب، فأتبعته أنا والحجّام ، ولم يعلم أهل المنزل ما هو الأمر ، فقبضته وأتيت به العلوى ، فأمسكته فطهّره وكان ختانا لم يعلم به أحد ، وكان أهلي طامعين أن يجعلوه وليمة عرس ، فسقط في أيديهم ولاموني عليه " [5] .

---

[1] الزهار ، مصدر سابق ، ص : 83.

[2] نفس المصدر ، ص : 83.

[3] في الأصل وظنت .

[4] المقصود الطابق العلوي .

[5] ابن حمادوش ، مصدر سابق ، ص : 118.

ب- الاحتفال بالمولد النبوي الشريف .

مثلما هو الحال مع العيدين ؛ كذلك كان حال الجزائريين في الاحتفال بعيد المولد النبوي ، فقد كانوا يولونه اهتماما بالغا ، ويحيون ليلته في المساجد ؛ يتلون القرآن ، ويرشون ماء الورد .

كما تُعِد النساء أكلات شبيهة ؛ كتلك التي تعدها من رزقت بمولود جديد، وإن كان "ابن حمادوش" ذكر في رحلته وصفا لاحتفال أهل فاس بالمولد ، وعلّق عليه بأنه أحسن مما يحدث في الجزائر فقال : " وفي ذهابي له ؛ لقيت الطبّالين والعيّاطين ، وآلات الطرب ؛ كلها في السوق ذاهبين بأربع قباب من شمع ، كل واحدة من لون ، أحدها خضراء ، وأخرا [1] بيضاء ، وأخرى حمراء ، والرابعة نسيت لونها ، أحسن مما يجعل في الجزائر عندنا " [2] .

وفي مازونة ينطلق أهلها في الشارع إلى سيدي عمّار تسبقهم جوقة موسيقية مشكلة من ضاربي طبل ، وعازفي مزامير تعزف الالحان ، ويحمل أحد أفرادها راية حريرية عتيقة ، يلتفّ حولها جمع من الأطفال متفاعلين مع هذه الموسيقى بهتافاتهم وأهازيجهم .

ثمّ يتوقّف الجميع على صوت البرّاح الذي يعلن أن موعد المهرجان الخاص بالمولد النبوي الشريف قد حان . بعد ذلك يتدفّق هذا السيل من الجموع التي

---

[1] – كذا في الأصل والصواب أخرى بالألف المقصورة . وفي النّص ركاكة في الأسلوب ، لا يعرف أصلها ؛ أهي من الناسخ ، أم من الكاتب نفسه .

[2] – نفس المصدر ، ص : 84.

تقاطرت على صوت الموسيقة باتجاه الولي الصالح سيدي عمّار . وعلى شبابيك السكنات وأسطحها ترتفع الرايات وكل مظاهر الزينة والفرح .

أما في ساحة المدينة ووسط الحلقة الملتفة حول الجوقة الموسيقية فيلعب البهلوانات ألعابا تدخل السرور على المتفرجين ، وبين الفينة والأخرى يدوي صوت طلقات البارود ليقطع أجواء الموسيقى التي سرعان ما تعود إلى سابق عهدها [1] .

ت- قراءة البخاري :

يذكر " ابن حمادوش " في غير ما موضع من رحلته ؛ ولع الجزائريين بقراءة صحيح البخاري في المناسبات وفي غيرها ، ويذكر طرق هذه القراءة ، وكذا الاحتفال بختمها ، مما يجعل هذه القراءة من الأهمية الدينية بمكان عندهم ، خاصة في شهر رمضان ، وأثناء تعرض البلاد لهجمات الأعداء .

وعادة أهل الجزائر أنهم يقرؤون صحيح البخاري بحضور كبار شيوخهم ، ممن يرْوُونه دراية ، فيقرأ المسمِّع من كتابه جزءا متفقا عليه كل ليلة ، ويتابعه الحضور من الطلبة والعامة من خلال كتبهم التي بحوزتهم . والغالب أن هذه الكتب مقسمة إلى أثمان ، ويقوم الشيخ بشرح ما أشكل على الحضور [2].

وقد ذكر الشريف الزهّار هذا الاهتمام من أهل الجزائر برواية البخاري ، وتفضيلها على غيرها ، رغم اهتمامهم بصحيح مسلم والسنن الأربعة ، إذ يقول : "...أما صحيح مسلم فكانت له ختمة واحدة ، لأن رواية البخاري عندنا أشهر

---

[1] Y Loukil , op cit , p : 37

[2] ابن حمادوش ، مصدر سابق ، ص ص : 122-125.

وأظهر ، وإن كانت بقية الأسانيد الستة كذلك ، إلاّ أن أهل الجزائر لهم ولوع برواية البخاري ، والمشاهير من علمائهم يقرؤونه دراية ، ويبتدئون قراءته من أوله إلى آخره ، مدة ثلاث أشهر من اليوم الأول من رجب ويختمونه في أواخر رمضان وفق المراد ، فيكون الختم على بابه..." [1] .

ومن عادة أهل الجزائر ؛ أنّهم يحتفلون بختم رواية البخاري في الجامع الكبير ، فيرش الخدم ماء الورد ، ويتبادل الناس التهاني بتيسير الله لهذه الرواية ، كما يصلّون على النبي جماعة ، صلاة معلومة لهم معهودة ، يوردها ابن حمادوش في رحلته وهي: " اللهم صل أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، عدد معلوماتك ومداد كلماتك كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون ".[2]

---

[1] الزهار ، مصدر سابق ، ص : 182.

[2] ابن حمادوش ، مصدر سابق ، ص : 125.

ث- الاحتفال بليلة القدر .

يهتم الجزائريون بشهر رمضان ، ويحتفلون بقدومه ، ويحيون لياليه ، غير أن احتفالهم بليلة القدر – وهي عندهم ليلة السابع والعشرين – تفوق غيرها من الليالي ؛ إذ يقوم القائم بالجامع بإخراج كميات لا بأس بها من الشمع ، ويوزّعها على الناس ، فيأتون بها إلى دار المفتي ، فإذا صلي العصر خرج المؤذنون وغيرهم يحملون هذه الشموع ، فيطوفون بها المدينة إلى غاية دار الإمارة ، ويعودون من طريق غير التي جاؤوا منها ، يسبقهم الحادي بالإنشاد والصلاة والسلام على النبي حتى يصلوا إلى المسجد فتعلق هذه الشموع في قناديل معدة لذلك ويحيون ليلهم إلى الفجر .

وفي صلاة الفجر يفتح الإمام كتابه ويقرأ ما تيسر من القرآن ثم يختم بذكر أوراد من الدعاء معلومة لمثل هذه المناسبات والناس تعيد بعده التسبيح كل هذا والخدم يرشون ماء الورد فإذا فرغوا قام الإمام بالدعاء للجميع والناس رافعة أيديها بالتأمين ، كما يذهب الناس إلى ضريح " سيدي عبد الرحمن الثعالبي "[1] فيحضرون

---

[1] هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري ، المكنّى بأبي زيد ، مفسر من أعيان الجزائر ، ولد سنة : 786 هـ -1384م ، زار تونس والمشرق . من كتبه (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) ، و(الأنوار) في المعجزات النبويّة ، و(روضة الأنوار ونزهة الأخيار) ، و(جامع الأمهات في أحكام العبادات) ، و(الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز)، و(الإرشاد في مصالح العباد) و(رياض الصالحين) . توفي – رحمه الله تعالى – سنة : 875 هـ - 1470 م . ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج :3 ، ص : 331 .

ختم البخاري هناك بنفس الطريقة التي تحدث في داخل المدينة و يتهيؤون لعيد الفطر[1] .

وإذا كان هذا حال المساجد فإن أيام رمضان لدى العامة لا تقل احتفاء، فبعد إيذان المدافع بطلقاتها عن ميقات الإفطار وفراغ الناس من إفطارهم تتحول طرقات المدينة على غير العادة ليلا إلى ميدان للهو والتجوال وحضور حلقات المدّاحة والقوالين وعرائس القراقوز وقد ازدانت الشوارع بقناديل الشموع واجتمع الناس في المقاهي يشربون ويستمعون إلى جوق الموسيقى والغناء والرقص إلى منتصف الليل حين تدق فرق من الزنوج موسيقاها معلنة نهاية السهرة فينصرف الناس إلى بيوتهم استعدادا ليوم جديد يبدأ باكرا[2] .

أما النساء في البيوت ؛ فيتزاورن فيما بينهن ، ويجتمعن في حلقات – يشارك فيها الصغار – حول مسنّة تروي قصصا وأساطير من التراث[3] .

[1] ابن حمادوش ، مصدر سابق ، ص : 126.

[2] P Boyer, op cit , p 224.

[3] ibid, pp224-225.

العادات السياسية

هناك مجموعة من العادات فرضتها السياسة على الجزائريين ؛ منها عاداتهم في ترتيب الدّنوش ، أو واجبات البايات نحو الخزينة العمومية ، ومنها عاداتهم عندما تتعرّض المدن الساحلية لحصار وقصف المدفعية – وكثيرا ما تعرضت هذه المدن وخاصة العاصمة لهذه الهجمات الأوربية – ، ومنها الاحتفالات التي تفرضها أفراح الباب العالي .

ولكون الجزائر أصبحت في عهد الدايات ؛ مستقلة استقلالا شبه تام عن الدولة العثمانية ، وأصبحت في مقام الحليف السياسي والعسكري لها – أكثر منها في مقام الولاية التابعة – ؛ فإنّها أصبحت في حلّ من جملة الأعراف والضوابط السياسية التي كانت تخضع لها سابقا ، لكن ذلك لا يعني لا مبالاة الجزائريين بالباب العالي ، فإن الشواهد تؤكد احتفال الجزائر بكل أفراح الباب العالي ، ومشاركاتها المستمرة في حروبه .

وإذا كان حكّام الجزائر قد استقلوا عن سلطة الباب العالي ؛ إلاّ أنّهم بقوا ملتزمين بالولاء لسلطة أخرى ، هي سلطة المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية ، فقد كان لهؤلاء المرابطين سلطان كبير على العامة ، ولذلك فإنّ الحكّام كانوا بحاجة ماسة إلى مساندتهم ، ولولا هذه المساندة لما استطاعت الأقلية التركية المحافظة على سلطانها في الجزائر طوال هذه المدة . ولكن هذه المساندة سرعان ما تحوّلت إلى مواجهة في العقود الأخيرة من حكم الدايات .

أ/ عاداتهم عند الحرب :

يذكر الشّريف الزهّار في معرض حديثه عن فترة حكم الداي محمد عثمان باشا ؛ واصفا حال الجزائريين أثناء تعرضهم لهجوم عمارة أوربية سنة : 1184هـ ، فيقول : "... ولما قدم الإسبانيون ، وشاهد الناس عمارته ، بحيث غاب البحر لكثرة المراكب ، دهش الناس وقالوا ما لنا منجى ولا ملجأ إلا الله ، وهذا شيء لا نكاد نقدر عليه ، وما لنا إلا الصبر والدعاء ، فقرأوا البخاري وختموه ، وتضرعوا لله، ثم صبروا وثبتوا حتى نصرهم الله " [1] .

أما في حالة الاستعداد لغزو العدو ، فقد أورد " ابن سحنون الراشدي " ما مفاده أن الجزائريين كانوا يغتبطون لرؤية استعداداتهم الحربية ، ويشاركون مع الجيش النظامي بقدر استطاعتهم ، فأثناء حصار مدينة وهران شارك الأهالي في جر مدافع الباي ، وتعبيد الطرقات لها .

وصف ذلك فقال : "... ثم أصبح في اليوم الثامن من رجب من السنة المذكورة ، يخرج تلك الآلة من بلده ، فأخرجها إلى موضع يعرف بعقبة خدة ، بينه وبين البلد نحو الثلاثة أميال ، فكان يوم إخراجها من أيام النزهة العجيبة ، وأوقات السرور الغريبة ، خرج فيه الصغير والكبير ، ولم يتخلّف أحد عن ذلك الفضل الأثير ، فجرّها الناس بأيديهم فرحين مستبشرين ، وهم ما بين صارخ من الفرح ، ومكبّر ومصلّ على النبي – صلى الله عليه وسلّم– ، وكلّهم يبادر صاحبه ليفوته بما يجره وهو راكب معهم ، وطبوله ترعد خلفهم ، ولما وصلوا بها المحل المذكور ؛

[1] الزهّار ، مصدر سابق ، ص : 27 .

لحقهم ما كفى جميعهم – وفضل أكثره عنهم – من الطعام المعتاد ، وقدور اللحم المطبوخ بأنواع التوابل ، وصواني الحلاوات ، وغير ذلك ممّا لفظه بحر داره الكريمة ، وأما الخبز والفواكه اليابسة ، فلا يعد ما أخرجه من ذلك يومئذ..."[1].

ب/ الدنوش :

كان بايات الجزائر يدنّشون كل ثلاث سنوات ، أي يدفعون مستحقات بايليكاتهم لدى الخزينة العمومية ، أما خلفاؤهم فكانوا يدنّشون كل ستة أشهر ، ما عدا حين يكون هذا الموعد يوافق دنوش الباي .

وتحكم هذه العملية طرقٌ متعارفٌ عليها ، وتقاليد رسمية يحترمها جميع البايات، فإذا حملها الباي كل ثلاث سنوات عرفت بالدنوش ، ورافقها هيلمان كبير قاده الباي ورجال حاشيته ، وإذا حملها خليفة الباي ؛ عرفت بالدنوش الصغرى أو العوائد [2] .

وقد قدّم كثير من المعاصرين وصفا دقيقا لمراسيم تقديم هذه الدنوش ، ومنهم "الشريف الزهار" الذي يصف دنوش باي الغرب قائلا : "... تقدم الباي محمد باي وجاء معه بتحف وأموال وهدايا كثيرة ؛ من الخيل العتاق والعبيد والمصوغ والأثاث الفاخر...خرج من معسكر وقومه يلعبون بالسلاح بين يديه ، ويضربون البارود ، والصناجق ترفرف ، والطبول تدق حوله ، إلى أتن وصلوا موطن المبيت ، فنصبوا خيامهم ، وبنوا فساطينهم الملونة ، وباتوا ليلتهم على أكل وشرب ...

---

[1] ابن سحنون ، مصدر سابق ، ص : 249.

[2] سعيدوني ، النظام المالي ، مرجع سابق ، ص : 100.

فلما أصبح الله بخير ؛ قاموا بفريضة الصبح ، ركبوا وساروا وهم يلعبون ويضربون البارود، والناس تتلقاهم بالهدايا للباي ، وهو يكافيهم على حسب المقامات ، ... وكل يوم عندما يصل جهة المبيت يوزع عليهم الدراهم ... وهكذا كل يوم حتى يصل إلى الجزائر خصوصا عندما تكون بينه وبين الجزائر مرحلتان أو ثلاثة ؛ فإنه يجتمع عليه خلق كثرة للطمع..." [1] .

وعنما تصل القافلة إلى العاصمة ؛ يستقبلها آغا العرب ومعه كبار الموظفين وعلية القوم ، في مكان يبعد نصف ساعة عن الجزائر ، يقال له عين الربط ، ومنه يسير موكب مهيب نحو دار الإمارة للقاء الداي .

وفي الطريق يوزِّع الباي المال على الفقراء ، فيرمي لهم بالدراهم في الشارع يمنة ويسرة ، إلى أن يصل إلى قصر الإمارة ، والبرّاح أمامه ينادي بالصلاة على النبي — صلّى الله عليه وسلّم – ، وعند وصوله دار الإمارة يخضع الباي والوفد المرافق له لمجموعة معقدة من التقاليد، أهمّها توزيع الهدايا على الداي ، وكبار الموظّفين بحسب الرتب .

ولهذه الهدايا الدور الحاسم في حفاظ الباي على منصبه ، والرضا عنه في حالة سخائه، وفي عزله والسخط عليه في حالة العكس .

---

[1] الزهّار ، مصدر سابق ، ص ص : 36-37.

ففي الحالة الأولى يبقى الباي في ضيافة الداي لمدة أسبوع ، ويدعى فيه لحضور مائدة الداي وموائد الوزراء ، وتقدم له هدايا بدوره من قبل الداي ووزرائه ، ثم يسايره الأغا إلى عين الربط ، ومنها ينطلق إلى بايلكه عائدا [1] .

ويقدم الخزناجي للباي قسيمات ، عليها كشف بالأموال التي قدمها للخزينة؛ كإثبات يحفظه في سجلات البايليك ، لمراجعة الحساب أو للاستشهاد في حال وقوع أي لبس ، وتعرف هذه القسيمات ب" تذاكر الخلاص" [2] .

وبطبيعة الحال فإن الطريقة نفسها تحكم دنوش البايات الآخرين ولا تختلف عنها إلا في قيمة " اللزمة " وهي القدر المفروض على البايليك من الضرائب وكذا في نوع الهدايا المقدمة .

ج/ الروابط مع الباب العالي :

تعرف الهدية التقليدية التي تقدمها الجزائر للسلطان العثماني ب : الباشكاش ، وكانت تبعث في العادة على ظهر سفينة إحدى الدول ، التي تربطها علاقات ود مع الجدزائر كفرنسا مثلا ، فيقابلها السلطان بالترحاب ، ويكرم وفادة مرافقيها ، ويبعث معهم بفرمان التعيين للداي الجديد ، وبهدية للدولة غالبا ما تكون عتادا حربيا لتدعيم الأسطول .

---

[1] سعيدوني ، النظام المالي ، مرجع سابق ، ص :101 . وانظر كذلك : الشريف الزهار ، مصدر سابق ، ص ص : 45 - 46 .

[2] الزهّار ، مصدر سابق ، ص : 29.

ويقيم الداي عند وصوله آغة الباشكاش بالخلعة والتقليد ، أفراحا يحضرها العامة والخاصة ؛ يصفها الزهّار بقوله : "... واجتمع الديوان والعلماء ونقيب الأشراف ومشائخ وأعيان البلد ، ومن لزم حضوره من الكرام ، ثم ألبس الخلعة للباشا ، وتقلد القلج [السيف] وقرئ الفرمان جهرا على رؤوس الملأ ، وانطلقت المدافع بإعلان البشارة ، وبسطت الأكف بالدعاء ، وابتهل بالطلب من المولى المنان بدوام نصرة السلطان . ثم جلس الأمير على كرسي المملكة ، وأجريت رسوم تقبيل يده ، وبورك له بالأمر الذي استولى عليه . وكان يوما معهودا بالسرور ، ولم يشهد مثله في غابر الدهور" [1].

ورغم أن البلاد أصبحت تتمتع باستقلال شبه تام عن السلطان العثماني في عهد الدايات ؛ إلا أنها حافظت على بعض المراسيم التي بقيت تضبط عاداتها السياسية ، ومنها مشاركة الجزائريين في أفراح الباب العالي .

فقد أورد الزهّار أخبارا عن اشتراك الجزائر سنة 1240 هـ في الاحتفال بمولد السلطان عبد المجيد ، ودامت المدافع مدوية بطلقاتها لمدة سبعة أيام ، وأرسل الداي إلى عمّاله في البايليكات بالبشارة .

وفي العام الموالي جاء رسول السلطان يخبر عن ميلاد ابنة للسلطان محمود ، فكان موقف الجزائر مماثلا إذ : " وقع مهرجان كبير في باب الجهاد ، ومن الغد أحضر الباشا العلماء ونقيب الأشراف ، وكافة أهل الديوان وأعيان البلد ، ولبس

[1] الزهار ، مصدر سابق ، ص : 145.

الخلعة السلطانية ، وضربت النوبة ، وأطلقت المدافع صباحا ومساء من جميع الحصون سبعة أيام ، وبعث البشائر لجميع البايات والقياد ..." [1] .

وفي سنة 1243هـ أرسل الداي حسين إلى السيد عبد الله حاكم مازونة ، يبشّره بازدياد مولود جديد للسلطان محمود ويدعوه للاحتفال به ؛ كما يتّضح من نص المراسلة الموقعة باسمه والمؤرّخة بأواسط شهر جمادى الثانية سنة : 1243هـ ، وممّا جاء فيها " ... وقد فرحنا بذلك غاية الفرح والسرور ، ونالنا ما لا مزيد عليه من الانشراح والحبور ، وضربنا المدافع من حصون البلاد ، وأعطينا الصايمة لأولاد العسكر والأجناد ، وحصل الفرح لجميع العباد ، وقد عرّفناكم بذلك لتأحذوا حظّكم ممّا هنالك ، ... " [2] .

---

[1] الزهار ، مصدر سابق ، ص : 158.

[2] ينظر نص الرسالة كاملا في الملحق رقم .5 ص : 266..

الفصل الثالث :

التاريخ الاقتصادي

المبحث الأول : الفلاحة .

المبحث الثاني : الصناعة والحرف .

المبحث الثالث : التجارة وحركة الأسواق.

المبحث الرابع : العوامل الطبيعية وأثرها في اقتصاد مازونة .

إن الاقتصاد – والمال بشكل أوضح – هو عصب الحياة ، وبالتالي فإن للعوامل الاقتصادية أثرا على مجريات الحياة كلها ، والحياة الاجتماعية بشكل أدق.

ومن ثمّ فإن هناك جملة من العناصر الاقتصادية ، ساهمت في التأثير على حياة سكان مازونة خاصة والجزائريين عامة ، أهمّها التطورات الاقتصادية التي ظهرت مع نهاية عهد الدايات كارتفاع الضرائب ، ونقص موارد الخزينة ، وظهور الشركات الاحتكارية الأوروبية واليهودية ، لكن قبل الخوض في هذه التطورات التي أصابت الوضع الاقتصادي للمدينة ، كيف كان هذا الوضع ؟

إن ما يميّز اقتصاد أي مدينة في ذلك العصر ، هو مؤهلاتها الزراعية ، وأهم الغلات التي تنتجها أراضيها ، ثم الصناعة أو بالأحرى الحرف ، ذلك أن النّشاط الصناعي في غير أوربا ؛ لم يكن قد جاوز حد الحرفة في العموم الغالب ، وأخيرا ما ينتج عن كلا النشاطين الزراعي والحرفي من تبادلات تجارية ، لتصريف ذلك المنتوج.

ويمكن الحديث أيضا عن موارد الخزينة التي كانت الضرائب تهيمن عليها في المدن الجزائرية غير الساحلية ، وفي داخل الجزائر عموما .

أما في المدن الساحلية ؛ فكانت تجارة الأسرى هي موردها الأساسي ، إضافة إلى ما تحصّله مكاتب الجمارك من رسوم على رسوّ السفن وتصريف حمولاتها .

الفلاحة

الزراعة :

غلب الطابع الزراعي الرعوي – الذي تمركز بشكل أساسي في أرياف الجزائر وفي تخوم مدنها – على المرحلة العثمانية من تاريخ الجزائر بأكملها .

وبالمقابل ؛ فقد انفردت المدن في الغالب الأعم بالنشاط الحرفي ، إلا ما كان ضرورة معاشية التجأ إليها سكان الأرياف لصعوبة العيش دونها ، أو انتظار الحصول عليها من أسواق المدن ؛ كالأواني المنزلية التي تحتاجها النساء لنشاطهن اليومي .

وكذلك كان شأن مازونة ؛ فقد قام النشاط الزراعي في أريافها وعلى تخومها؛ غير أن موقع المدينة كان له الدور البارز في تحديد هذا النشاط الفلاحي والرعوي ، الذي تميّزت به ، فهي تقع على مقربة من البحر الأبيض المتوسط ، وفي وسط جبال الظهرة ؛ ممّا وفّر لها ظروف العمل الزراعي المتنوع والملائم لاحتياجات السكان ، من أراضي جبلية خصبة ، صالحة لزراعة الكروم ، وغرس البساتين ، وزرع الحبوب .

وقد نوّه كلُ من كتب عن المدينة بهذه الميزات قديما وحديثا ؛ مثل الإدريسي الذي يقول : " ومدينة مازونة على ستة أميال من البحر ، وهي مدينة بين أجبل ، وهي أسفل خندق ، ولها أنهار ومزارع وبساتين ، وأسواق عامرة ، ومساكن مونقة، ولسوقها يوم معلوم ، يجتمع إليه أصناف من البربر ، بضروب من الفواكه والألبان

والسمن ، والعسل كثيرٌ بها ، وهي من أحسن البلاد صفةً ، وأكثرها فواكهَ وخصبا"[1].

ويذكر ابن حوقل ، أن بني وريقن لها كروم وهي كثيرة ، ومعظمها على نهر شلف [2].

أما الحسن الوزان ، الذي تجوّل عبر بلاد السودان ومصر وبلدان الشمال الإفريقي ، وأعطى معلومات مفيدة حول المزروعات في البلاد التي زارها ، فيؤكّد توفرَ القمح في كل من مازونة ومستغانم وتنس وقسنطينة ، ويذكر أن هذه المدن محاطة بأراضي جيدة ، صالحة لإنتاج الحبوب [3].

وينقل طاهر جنان عن كلٍ من التامقروتي ؛ ثم الكاتب اللاتيني بلان ؛ أن زراعة القمح كانت تكثر بناحية شرشال ، إلى درجة أنها كانت تبيعه .

كما أشار الى زراعة القطن قرب مستغانم ، واستنتج من هذا الأمر أن مازونة لم تكن خالية منه ، بحكم موقعها ما بين شرشال ومستغانم [4].

ويصف لوكيل يوسف الوجه المطل على البحر من جبال الظهرة بقوله : "... تغطيه أشجار غابية متنوعة ، أهمها الصنوبر والبلوط ، كما لا يخلو من الأشجار

---

[1] الإدريسي ، مصدر سابق ، ج : 1 ، ص : 271 .

[2] ابن حوقل ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1992م ، ص : 86 .

[3] الحسن الوزان ، مصدر سابق ، ج : 2 ، ص : 374 .

[4] طاهر جنان ، مرجع سابق ، ص : 33

المثمرة الأخرى ، وبه مساحات مزروعة كبيرة ، جعلت منه خزان قمح للجنوب والسهوب سنين عديدة ..." [1] .

فبالرغم من تدني تقنيات الانتاج ووسائل العمل ؛ إلا أن خصوبة الأرض ذات مردودية عالية ، وزادتها وفرة المياه عونا ؛ فكانت النتيجة منتوجا زراعيا وفيرا .

والملاحظ أنّ نوعية المحاصيل التي اختصّت بها المدينة ؛ قد انحصرت في الحبوب بشكلٍ كبير بوصفها " ... المادة الأساسية للاستهلاك المحلي والتصدير الخارجي ، فإنّها تزرع بكثرة في بايليك الغرب ، حيث كانت المساحة المخصّصة لها حوالي 3500 جابدة ، تنتشر في عدة جهات من البايليك ... " [2] .

ويذكر بياس ؛ الذي كتب حول دويلات الشمال الإفريقي الثلاث تونس والجزائر وطنجة – حسب تعبيره – ، أنّ مازونة تُعدّ أجمل مدينة في القطاع الوهراني، بين أجبل وخضرة لا متناهية ، تحفّها سلسلة من الأشجار المثمرة ، وحدائق الكروم والتين ، تزيّنها ألوان الزهور المتناثرة ، ومياه العيون المتدفقة عبر شوارع المدينة ، تحملها السيول إلى كل النواحي ، لريّ سكانها وسقاية حقولها [3] .

هذا التعبير الذي يستعمله بياس ، رغم غلبة الجانب الرومانسي عليه ؛ إلاّ أنه يصوّر لنا – بما لا يدع مجالا للشك – على وجود مساحات زراعية لا بأس

---

[1] Y. Loukil , op cit , p :11

[2] فارس العيد ، مرجع سابق ، ص : 22 .

[3] Louis Piesse , Itineraire de l'Algerie et de la Tunisie et de Tanger , Laibrairie Hachette et c ie , Paris , 1882 , pp : 284 – 285 .

بها، نعمت بها مازونة وأهلها على مرّ تاريخها ، فقد اشتهرت غابات جبال الظهرة بكثرة أشجارها ، خاصة أشجار الزيتون والبلوط .

أما التين ؛ فهو أكثر الأشجار وجودا في المنطقة ، مما جعل أسواق المدينة عامرة به ، يبيع أهلها منه إلى كامل الجزائر ، بل وإلى إسبانِ وهران ، الذين ترسو سفنهم في الشواطئ القريبة ، بعيدا عن رقابة البايليك .

أما قبائل مديونة – أغنى سكان المنطقة لاستيلائهم على أخصب الأرضي التي فلحوها بشكل جيّد – ؛ فلا تخلو بلادهم من بساتين جميلة ، مليئة بأشجار التين والزيتون [1] .

هذا الغنى دفع إسبان وهران إلى تجريد حملات بين الفينة والأخرى ؛ لسرقة سكان بايليك الغرب ، الذين نعموا بشيء من الرفاه ، فكانت الحملات الإسبانية تصل إلى حدود مازونة عاصمة البايليك ، لتسرق أحمالا من العملة الذهبية والفضية التي تفنّن سكان هذه المناطق في صناعتها ، كما يسرقون قطعان الغنم والبقر الكثيرة وبعض الجمال [2] .

ولم تكن هذه غنائم المنطقة وحدها ، ولكنّها كانت مما يسهل حمله ، أمّا الغلات الفلاحية فإنّها تستدرك لاحقا ، ذلك أنه وبعد عدّ الغنائم وإحصائها تقوم السلطات الإسبانية ببيع ما يزيد عن حاجة المدينة غالبا ، إلى نفس القبائل التي سرقت منها ، وهي حيلة يستعملها الإسبان للحصول على باقي المواد التي لا

[1] Louis Piesse , op cit , p : 186 .

[2] Malki Nordine ,Razzia,Butin et Esclavage dans l'Oranie du 16 ^{eme} siecle d'apres le manuscrit de Diego Suarez , ed: Dar el Gharb , Oran , 2003 , p : 104 .

يمكن للحملات سرقتها ، والتي كانت المنطقة تزخر بها ، مثل القمح والشعير والخضر والفواكه والسمن والعسل [1] .

لا تعطينا المصادر - مع الأسف الشديد - حجم المنتوج الزراعي للمدينة وجوارها ، ولا حتى حجم المساحة المخصصة لزراعة الأنواع المختلفة من الغلات ؛ كالحبوب والبقول والخضر وغلات الأشجار المثمرة ، مثلما هو الحال مع مستغانم مثلا "... التي كانت تنتشر فيها الأشجار المثمرة على مساحة 800 هكتار ، تتغذى من المياه المتوفرة بكثرة في المنطقة " [2].

ولعلمنا أن مازونة أحسن حالا — فيما يتعلق بوفرة المياه - من مستغانم القريبة منها جغرافيا ؛ يمكن الجزم أن المساحة المخصّصة للأشجار المثمرة ؛ تفوق التي بمستغانم أو تساويها على الأقل .

وللدلالة على هذه الوفرة ؛ نورد جزءا من ظهير ، وقّعه قادة الانكشارية بنوبة مازونة لصالح عائلة الكتروسي ، تعفيهم من خلاله من دفع الضريبة على المياه التي تسقي بساتينهم الكثيرة حول المدينة ، إذ جاء فيه أنّهم أنعموا على " ... السيّد المهدي ، وعلى أخيه الفقيه النزيه السيد أحمد ، والسيّد مصطفى ، والسيّد محيي الدين ، وعلى عمّهم السيّد محمد المهدي ؛ بتحرير ما بأيديهم من نوبة الماء التي

---

1 Malki Nordine , op cit , pp : 112 – 113 .

2 أندري برنيان وآخرون ، الجزائر بين الماضي والحاضر ، ترجمة رابح اسطنبولي ومنصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984 ، ص : 187 .

على بحايرهم التي نحو مسقي ، وبحيرة تانحسيت ، ونصف بحيرة مرجعة ، وربع في بحيرة العلج ، بحيث لا يطالبهم أحد بشيء ... "[1] .

إذا كانت هذه حال عائلة واحدة من العائلات ، التي فازت بالإعفاءات الضريبية ؛ ومنها ضريبة الماء ، يمكننا الاستنتاج أنّ حجم الماء الذي كان يسقي بساتين هذه العائلات وباقي بساتين المدينة كان كبيرا لدرجة الإعفاء من دفع ضريبته .

كما نستنتج كبر المساحة المخصّصة للمحاصيل المسقية ، ناهيك عن الأراضي الزراعية البور البعيدة عن مصادر المياه .

هذه الوفرة في المحاصيل ؛ جعلت أثمانها تنخفض باستمرار حتّى أصبح ثمن الطماطم الموجّهة للاستهلاك المحلّي بفرنك واحد للمائة حبة ، وهو ثمن زهيد .

أما المزروعات التي لها علاقة بالصناعة النسيجية ؛ كالقطن والكتّان ؛ فهي الأخرى عرفت رواجا ، ورخصت أسعارها لارتباطها بصناعة الحايك المشتهرة في المدينة[2] .

لم يستمر الوضع على حاله مع نهاية العهد العثماني ، فقد نتج عن كثرة المطالب المالية والجبايات على الأراضي الزراعية وتعدد المغارم ؛ إهمال الزراعة وتحول

---

[1] ينظر : الملحق رقم : 16 ، ص : 277 .

[2] فارس العيد ، مرجع سابق ، ص : 23 .

قسم من السكان من الاشتغال بالفلاحة إلى مزاولة حرفة الرعي ، وفي بعض الأحيان اضطر المزارعون إلى الثورة على الحكام [1] .

وقد انعكس هذا الوضع على الحياة السياسية ، فخلال الثورات ينصرف الناس عن خدمة الأرض ؛ مما يؤدّي إلى تضرر الزراعة ، وتحول كثير من الأراضي المنتجة للحبوب إلى ملكيات للبايليك ، أو مزارع مشاعة بين أفراد قبائل المخزن الداعمة للبايليك ضد الثائرين .

وتسببت الحملات العسكرية ، التي كانت تنطلق من مراكز البايليك لجمع الضرائب وأخذ الخطيات _ المسلّطة على المتمردين أو المتقاعسين _ ؛ في إلحاق أضرار فادحة بأهالي الريف ، وغالبا ما تستمر المحلة أو الفرقة العسكرية مدة طويلة، قد تصل إلى ستة أشهر ، تتجوّل أثناءها في الأرياف لجمع الضرائب ومعاقبة الممتنعين ، فمحلة بايليك الغرب تخرج من مازونة أو معسكر نحو سهول غريس ووادي مينا ، وجهات السرسو وتاهرت وغيرها [2].

وقد سبق الحديث عن خليفة الباي عدة بن فريحة ، الذي اعترضته قبائل الظهرة الداعمة لثورة ابن الشريف الدرقاوي ، وهو في إحدى جولات جمع الضرائب في الجهة الشرقية لبايليك الغرب ، وأدّى ذلك إلى استباحة المنطقة للثائرين وتبعيتها للدرقاوي بعد فرار الخليفة إلى وهران ، لكن البايليك استعاد

---

[1] ناصر الدين سعيدوني ، دراسات في الملكية العقارية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ، ص : 32

[2] نفس المرجع ، ص : 32 .

سلطانه عليها سريعا ؛ إلاّ أن سكانها اضطروا للجلاء عن أراضيهم ، وترك محاصيلهم طيلة المدة التي استمر خلالها الصراع بين البايليك والثائرين .

لم تكن الضرائب وما تبعها من ثورات ؛ هما وحدهما المؤثّران في تدهور المنتوج الزراعي ، فرغم إدخال الأندلسيين زراعات جديدة ، وتطويرهم وسائل الريّ ، وإنشاء الحنايا والسواقي في الفترة الأولى للعهد العثماني ؛ إلاّ أنّ الأوضاع الفلاحية لم تتطور ، واقتصرت على استعمال آلات بسيطة ، لا تتعدّى المحراث الخشبي للحراثة ، واستعمال المنجل البسيط في الحصاد .

وبهذه الأساليب البسيطة ؛ ظلّت أغلب الأراضي الخصبة تعاني الإهمال ، كما أن هذه الأساليب البدائية ؛لم تساعد على إنشاء السدود ، والالتجاء إلى الزراعات المروية ، عدا بعض السدود البسيطة ، التي كان الأهالي يقيمونها على الأودية ؛ مثل واد مينا وسيق والهبرا والشلف ، أو الأحواض التي أقامها أهالي مازونة على المجاري المائية المتدفقة من العيون الكثيرة بالمدينة [1].

كما لم تتطوّر وسائل تخزين علف الحيوانات ، لذلك لجأ الفلاّحون في مدينة مازونة إلى استعمال المطامير ، للمحافظة على الإنتاج الوفير من المحاصيل الزراعية الأساسية كالحبوب ؛ نظرا لأهميّتها ، كونها مادة رئيسية للاستهلاك المحلي والتصدير الخارجي .

[1] طاهر جنان ، مرجع سابق ، ص : 30 .

وقد عمل البايليك جاهدا للسيطرة على المساحات المخصصة لزراعة الحبوب، والتي كانت تنتشر حول مازونة وغريس وقلعة بني راشد ومستغانم وتلمسان ، لملء هذه المطامير التي اشتهرت بها مازونة منذ عهد أبي سعيد عثمان الزياني [1].

وقد قدّرت مساحات أراضي الحبوب التي يملكها بايليك الغرب بما يناهز 3500 جابدة – كما سبق بيانه من قبل – ، بالإضافة إلى 5212 جابدة موزعة على موظفي الدولة مقابل الأجور ، مع العلم أن مساحة جابدة الواحدة تتراوح بين 08 و 09 هكتارات .

الرعي :

يصف إسماعيل بركات وضع الثروة الحيوانية ، وأهم مناطق انتشارها في دولة بني زيان ، حسب ما استشفّه من دراسته لبعض نوازل المازوني ، وبعض مما كتب الونشريسي في المعيار ، كلها تدل على كون مازونة من بين أهم مناطق انتشار هذه الثروة ؛ فيقول : " حسب بعض الأبحاث ؛ فإن تربية المواشي اشتهرت أكثر في المناطق الجبلية وفي المرتفعات والهضاب ، خاصة في المنطقة المحصورة بين جبل السرسو ومنطقة الزاب ، على يد قبائل بني توجين ، وفي جبل عمور على يد راشد. أما ذوي عبد الله ؛ فكانوا يرتحلون بمواشيهم بين قصور اتوات وغرب

[1] اتخذ أبو سعيد المدينة خزانا للقمح ، الذي جمعته جيوشه من القبائل المنهزمة أمامها في أراضي بني توجين .

تلمسان ، كما اشتهرت المنطقة بين برشك ومازونة برعي أغنام سكان مزغران ، وأهل الظهرة عموما " [1] .

نفس الكلام أو ما يقاربه ننقله عن ريوس ؛ الذي وصف منطقة الظهرة ضمن وصف كامل للجزائر بعيد دخول الفرنسيين ، إذ وبعد أن يتحدّث عن ذلك الكم الهائل من النباتات بأنواعها المختلفة ، والتي تغطي الأراضي المحيطة بمازونة ، ثم مجموع العيون والسيول التي تسقي تلك المساحات ؛ يقول : " ... إنّ هذا الغطاء النباتي يسمح للسكان بتربية المواشي ، فقد كانت هذه الجبال تعجّ بقطعان الغنم والماعز والأبقار " [2] .

يتّضح من خلال القولين السابقين ؛ كيف وفّرت البيئة الغابية لجبال الظهرة ، وما تنعم به من غطاء نباتي ؛ جوّا مناسبا لازدهار تربية الحيوانات ، ورعي الأغنام التي تساهم أصوافها كمادة أوّلية في الصناعة النسيجية ، مما جعل العناية بهذه الحيوانات كبيرا .

واشتهرت المنطقة أيضا بجودة خيولها ، مما جعل الباشا يطلبها ضمن الدنوش الذي يقدمه البايليك للخزينة ، فكانت مساهمة مازونة لا تقل عن خمسين جوادا أصيلا كل سنة

---

[1] بركات اسماعيل ، مرجع سابق ، ص : 47 .

[2] L M Reuss , Atravers L'Algerie , Librairie Generale de la Vulgarisation , Paris , 1884 , p : 181

الري و مصادر المياه :

تلعب المياه الدور الأساسي في نجاح الزراعة في أي منطقة ، وقد كان لوفرتها بمازونة وضواحيها أثرٌ كبير في نجاح هذا النوع من النشاط ؛ إذ تتوفر المنطقة على ثروة مائية كبيرة ، تتمثل في ثلاث عيون مائية مشهورة هي : عين تنسري ، عين الذهب ، عين تامدة .

1. **عين تنسري** : تعطي من 10 إلى 12 لترا في الثانية ، وضع عليها الأهالي حوضان لتخزين المياه ، بطول 08 أمتار على 02 متر وعمق 03 أمتار .
ويذكر الطاهر جنان أن " ... هذه الأحواض كانت موجودة منذ القدم ، وبنيت لكي تتجمّع فيها المياه ، ثم توزّع على البساتين وعلى مدينة مازونة، وهذه الأحواض متقابلة واحدا مع الأخر منذ عهد الرومان ... ولكن في الفترة الإسلامية بنيت أحواض أخرى ، وهدّمت الأحواض القديمة " [1].
2. **عين الذهب** : تقع شمال غرب مازونة ، وسميت بهذا الاسم لصفاء مائها وعذوبته ، كانت تعطي حوالي 10 لترات في الثانية ، وكانت هذه العين تستعمل منذ القديم في سقي البساتين ، وتزويد السكان بالماء عن طريق السواقي والأودية الصغيرة ، وبعد ذلك بني لها حوض ، وأصبح يسيل منه الماء على ارتفاع 6 أمتار[2].

---

[1] طاهر جنان ، مرجع سابق ، ص : 30 .

[2] طاهر جنان ، مرجع سابق ، ص : 30 .

3. **عين تامدة** : تدل الآثار التي وجدت قريبا من هذه العين على أن القدماء استعملوا ماءها ، خاصة لوجودها في مكان عال ، فماؤها يتدفّق من ارتفاع 500 متر ، مشكّلا شلالات صغيرة ، يسهل توجيه مياهها إلى حيث يشاؤون دون جهد [1] .

4. **عين قدور** : كانت تقع في المدينة ، وكانت تصب في واد شلف ، تغذي أهل المدينة ، وتغذي البساتين المجاورة لمازونة وواريزان [2] .

وزيادة على هذه العيون الكبيرة ، تجري عدة وديان بين جبال الظهرة ، ففي الجهة الجنوبية يمكننا عدّ واد مازونة ، وحوضه يساوي 80 كلم^2 ، وواد مروي وحوضه 100 كلم^2 ، وواد خماسة وحوضه 70 كلم^2 ، وعدد من الأودية الصغيرة ليست لها أهمية كبيرة ، كون الماء يجري فيها في موسم الأمطار فقط [3] .

وهناك على طول سلسلة الظهرة ، وعلى سفوح هذه الجبال من الجهتين في بلاد قبائل مديونة العديد من العيون ذات التدفق المتوسط ما بين 10 و 20 لتر في الثانية ، والتي أحسن الأهالي استغلالها خاصة في مدينة مازونة التي تعتبر المركز العمراني الوحيد في الجهة تغذيه جملة من الأودية الصغيرة ، التي تجري إلى داخل المدينة حاملة مياه هذه العيون ، بما يعادل 40 لترا في الثانية [4] .

---

[1] M Belhamissi , op cit , p : 19

[2] طاهر جنان ، مرجع سابق ، ص : 31 .

[3] Bultin de la Societe de Geographie de France ,6 eme serie , Bibliotheque des Societes Savantes , Paris , 1871 , p : 59 .

[4] Ibid , p : 61 .

ويعدّ واد تامدة أهم هذه الروافد ، إذ يصل حجم تدفق مياهه إلى 30 لترا في الثانية ، ويسقي مساحة لا تقل عن 10 كلم^2 من الأراضي الفلاحية .

واد العبيد ؛ هو الآخر يحمل مياه مرتفع مديونة إلى المدينة ، ويسقي حقولها وبساتينها [1] .

[1] Bultin de la Societe de Geographie , op cit , p : 71 .

الصناعة والحرف في مازونة .

لا يعني شيوع الطابع الزراعي للاقتصاد الجزائري عموما ، والمازوني بصفة خاصة ؛ انعدام أي نشاط صناعي بالمدينة ، فقد عرفت أرياف الجزائر زيادة على النشاط الزراعي والرعوي بدايات لتخصص جزء من السكان في بعض الصناعات الحاجية ، كصناعة الأحذية من جلود الحيوانات والألبسة من أصوافها .

أما في المدينة ؛ فقد عرفت الحرف تنظيما اجتماعيا ، وتوزيعا محكما تضبطه قواعد ؛ إذ يقوم على كل حرفة نقابة تنظم أحوال المنتسبين إليها ، وتفصل في النزاعات بينهم ، يرأسها نقيب أو أمين . كما اشتهرت بعض المدن بتخصصها في حرفة بعينها .

وكما تخصصت مدن بحرف بعينها ؛ كذلك كان الشأن بالنسبة للشوارع داخل المدن ، فهناك شارع للحدّادين ، وشارع للنّسّاجين ، وآخر لصانعي النحاس والفضة . أما أحياء اليهود فاختصاصها صناعة الذهب والحلي .

وفي مازونة اختصّ حيّ تساريت في جنوب المدينة بمحلات الحرفيين والتجّار، وفي الشمال أولاد السايح الذين اختصوا في رعي الأغنام ، وفي الشرق بوماتع الذي سكنه الكراغلة والأتراك ولم يشتهروا بحرفة كونهم من أصحاب الجرايات الحكومية ، كما كانت لهم ملكياتهم العقارية بفحص المدينة تدرّ عليهم أموالا من بيع المنتوج الفلاحي ، أو كراء أراضيهم للخمّاسة ، بينما لم يكن مسموحا لغير

الأتراك ورأس السلطة -بايا كان أو حاكما- السكن بحي القصبة في الغرب ، وأخيرا حيّ بوذلول الذي سكنه العرب ومعهم اليهود [1] .

وإذا كانت السلطة تحتكر الصناعات الكبرى وذات الطابع الحربي ، أو التي تحتاج إليها ضروريات قوة البايليك ؛ فإنها بالضرورة احتكرت تجارة هذه المجالات الحيوية ، فمنعت بذلك تطور هذه الصناعات لدى الخواص ، ولم تشذ هذه القاعدة إلا مع نهاية عهد الدايات بدخول بعض الشركات اليهودية ميدان احتكار التجارة الخارجية بإذن من البايليك ، فلعبت دور الوساطة في الصفقات بينه وبين الدول الأوروبية .

أما الصناعة التحويلية ؛ فلم ترق إلى منافسة المنتوج الأوروبي الذي عرف تطورا مع الثورة الصناعية ، ولكنها كانت كافية للوفاء بالضرورات الحياتية لسكان المدينة ، خاصة ما تعلق منها باستخراج الملح من سباخ وهران وسبخة فارحة بعرش البرجية ، أو معالجة الجير والكبريت المستخرج من المحاجر المنتشرة في جبال الظهرة المحيطة بالمدينة .

وقد لعب الموريسكيون الفارّين من الأندلس ؛ دورا فعالا في دفع حركة النشاط الحرفي وتطوير الصناعة ، بما حملوه معهم من معرفة ومهارات في هذا الميدان .

[1] Moulay Belhamissi , op cit , p :19 .

صناعة الأسلحة .

اشتهر بايليك الغرب عموما ومازونة خصوصا بصناعة الأسلحة ، ولعل الوضع غير المستقر لهذا البايليك هو الذي حفّز سكان عاصمته للاجتهاد في تطوير هذه الصناعة .

وقد سبق الحديث عن موضوع الصراع القبلي داخل المدينة ، وكيف كان مادة حافزة لتطوير هذا النوع من الصناعات بالمنطقة .

وكان لمناجم نترات البوتاسيوم المنتشرة في مغارات جبال الظهرة دور في تطوير هذه الصناعة ، كونها أحد مركبات البارود المستعمل في الأسلحة النارية ، وقد اشتهرت مازونة منذ مدة طويلة بالكمية الوفيرة لهذا المنتوج المصنع فيها والذي تعج به أسواقها .

هذه الصناعة فرضت على المدينة ربط شبكة تجارية مع بعض الدول الأوربية ومع قوافل فاس لإمدادها بالكبريت الضروري في تركيب البارود .[1]

صناعة الحايك .

تفيدنا نوازل المازوني أن صناعة النسيج ، وتوفر المناسج كانت مشتهرة بالمنطقة، واشتغال بعض الحاكة بنسج الصوف وبيعه أمر كثير وروده فيها ، كما

[1] Moulay Belhamissi , op cit , p : 60 .

تحدّثنا عن دور المرأة في هذه الصناعة وفي تحويل صوف الأضاحي إلى أغطية ، وجلودها إلى أحذية بعد دبغها [1] .

وقد أورد بلحميسي في معرض حديثه عن الإشعاع الثقافي للمدينة ، أن هذا الإشعاع رافقه ازدهار اقتصادي ، تمثل في وجود ما يقارب 1400 نساج أو مشتغل في مجال النسيج ، وأن مهارة النساجة والحياكة كانت من خصائص الفتيات المازونيات ، بنات العائلات العريقة ، مما جعل المدينة تضاهي أهم المدن الجزائرية كتلمسان ، وفرض على قوافل طريق التجارة الرابط بين تونس والأطلسي أن تمر عبر هذه المدينة للتزود بمنتوجاتها النسيجية [2] .

صناعة الحايك في منطقة الظهرة ومازونة خصوصا ؛ عرفت تطورا جعل الباشا يعدّها واحدا من مكونات الدنوش الأساسية ، فلم يكن البابالار الذي يحمله الخليفة كل سنة يخلو من كمية معتبرة من هذا الحايك ، قدرته إحدى رسائل الداي حسين إلى السيد عبد الله حاكم مازونة بمائة حايك حق الخزينة في فصل الخريف .

وبما أنّ محلات البايليك كانت تخرج من مازونة مرتين في السنة لجمع الضريبة من القبائل ، مرة في الخريف ومرة في الربيع ، فإن ذلك يجعل مجموع ما يقدم سنويا لخزينة الدولة – (الدار الكريمة) كما تسمّيها الرسالة — 200 حايك ، وهي كمية

---

[1] بركات اسماعيل ، مرجع سابق ، ص : 49

[2] M Belhamissi,op cit , p : 39 .

لا بأس بها ، تعطينا صورة عن حجم ما كان ينتج في المدينة من أجود أنواع الحايك[1] .

الزهّار هو الآخر عدّ الحايك بنوعيه ؛ حايك الحرير وحايك القرمز ، ضمن الهدايا التي يوزعها بايات الغرب على أركان الدولة عند حملهم لدنوش بايليكاتهم ؛ من ذلك قوله – واصفا لهدية الخزناجي – : " ... وهي مقدار ألفي دورو ، أو ما يقرب منها مع آثاث ومصوغ وخيل وعبيد ، وكسوة وحياك قرمز ، وبرانس زغداني، وحياك حرير وشمع وعسل ، وأرز من غير حصر " [2] .

إنّ اختيار الحايك المازوني ضمن هدايا الخزناجي ثاني رجل في هرم السلطة ؛ يصور قيمة هذا المنتوج ونوعيته الرفيعة ، التي أهّلته ليكون مع الهدايا ذات المنزلة الاقتصادية العالية ، والتي يهتمّ بها علية القوم ، وتدفع إلى الرضا عن البايات .

صناعة المعادن :

بالعودة إلى نوازل مازونة ؛ يمكننا ملاحظة اشتهار منطقة الظهرة بصناعة معدني الحديد والفضة ، فقد عرض في إحدى النوازل موقف الدولة من هذه الصناعة ، وهل يمكن استغلالها من قبل الدولة ، أم إقطاعها مقابل تقديم ضريبة .

---

[1] ينظر الملحق رقم : 2 ص :263 .

[2] الزهار ، مصدر سابق ، ص : 41 .

وكون المسألة عرضت بهذا الشكل ؛ يدل على أن حجم هذه الصناعة وصل قدرا من التطور ، جعل الدولة تهتم به ، ولم يكن مجرد صناعة بسيطة ، يهتم بها الأفراد لضرورات معاشهم فقط [1] .

وتمدنا نوازل الونشريسي في المعيار بمادة غزيرة حول وضع الصناعة في مازونة، وما جاورها من إقليم الغرب الجزائري ؛ خاصة ما تعلّق بموضوع المعادن واستخراجها وتحويلها ، كالملح الذي كان يستخرج من السِّباخ ، كما تذكر بعضها اشتراك العدد من الناس في هذه المناجم ، وتعاونهم في استخراج معادنها ، واستخدامهم لبعض الأُجراء عندما يكون المنجم كبيرا [2].

صناعة الحرير .

يذكر شالير أنّ أهم الصناعات الجزائرية هي صناعات الحرير والصوف والجلود والمدبوغة ، وأن المنتجات الرئيسية من الحرير هي الشالات والمنادل والأحزمة ونوع من العمائم المطرّز بالذهب ، وغير ذلك من المنتجات المستهلكة محليا ، ويعتبر منتوج الحرير الجزائري أجمل وأمتن من مثيله الفرنسي ، أو الإيطالي ، وأغلى منه ثمنا طبعا ، بل يجزم أنه لا توجد بضاعة أوروبية تفوق المنتوج الجزائري في هذا المجال [3] .

---

[1] بركات اسماعيل ، مرجع سابق ، ص : 50

[2] بركات اسماعيل ، الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، دراسة وتحقيق ، رسالة ماجستير ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2009 – 2010م ، ص : 66 .

[3] شالير ، مصدر سابق ، ص : 93 .

أما الونشريسي فينقل نازلة عن أحد التجار المازونيين المختصين في بيع منتوج المدينة من صناعة الحرير ، يتضح منهاشيوع هذا النوع من الصناعة في مازونة ، وتطوره إلى درجة أنه كان يكفي أهل المنطقة ، ويزيد إلى القدر الذي يسوق إلى خارجها حتى مدينة بجاية ، ممّا يدل على جودة هذا المنتوج الذي يستطيع المنافسة مقابل حرير البليدة والعاصمة ذي السمعة الشهيرة .

يقول الونشريسي عن هذا التاجر المازِوني ، وهو يشير إلى صاحب حانوت في قيسارية ببجاية : " لقد أتاه التاجر بسلعة متمثِّلة في حرير وحنابل لبيعها في بجاية ، فأجلسه في حانوته، وقدّر وزن الحرير وحده 13 رطلا ، بثمن 3 أرطال بـ 8 دنانير ، أي أنَّ الرطل بـ 2.66 دينارا ذهبا، وَثمن جملة الحرير بـ 34.66 دينارا "[1] .

صناعة الخزف :

اشتهرت صناعة الخزف لدى نساء مدينة مازونة ، وكانت منتوجاتهن من أهم السلع التي تحملها القوافل المارة عبر المدينة إلى بقية المدن الجزائرية .

وإذا كانت الصناعات الخزفية مما تجيده أغلب النسوة في الريف والمدينة لارتباطه بضرورات الحياة اليومية ، ووفرة مادته الأولية ، من طين وماء في كل مكان، فإنّ الذي دفع هذه القوافل إلى اختيار المنتوج المازوني وتسويقه خارج المدينة هو جودة صنعه ، وأصبح معيارا لقياس جودة هذا النوع من الصناعات في غيرها من المدن ، مثل سكان القبائل في الشرق ، وندرومة في الغرب[2] .

[1] بركات اسماعيل ، مرجع سابق ، ص : 53 .

[2] Louis Piesse , op cit , p : 285 .

حرفة البناء .

ازدهرت هذه الحرفة بقدوم الأندلسيين ، الذين قدموا خدمات جليلة للدولة الجزائرية عموما ، ولمازونة خصوصا ؛ كونهم كانوا إحدى طبقاتها الاجتماعية ، إذ لم يكونوا بنّائين خاصّين لمدنهم ، بل كانوا يشاركون بعد أن يجمعهم البايليك من المدن المجاورة في ترميم أو بناء المؤسسات الحكومية ، إذا أصابتها عاديات الدهر ، كالفيضانات ، أو عاديات البشر ؛ كتهديم وضرب الخصوم بالقنابل [1] ، خاصة في المدن الساحلية ، وفي عواصم البايليكات الثلاث كونها مدن يقيم فيها البايات.

ولم تكن حرفة البناء حكرا على الأندلسيين ؛ بل تناقلها عنهم الكثير من أبناء مازونة حتى زاد عددهم عن حاجتها ، وبعد اكتفاء المدينة أصبح هؤلاء البنّاؤون مطلوبين في كبريات المدن الجزائرية فانتقلوا إليها ، وكانوا ضمن عناصر البرانيّة المستفيدين من الرفاه الذي وفّرته بعض المدن الساحلية ، جرّاء ازدهارها الاقتصادي الناجم عن تجارة الأسرى فقد عرفت هذه المدن " ... نزوحا واسعا للسكان من الأرياف والمناطق الصحراوية نحوها ، ولا شك أنّ ذلك يعود إلى الانتعاش الاقتصادي والرخاء الذي ساد تلك المدن [كما سبق ذكره] ، ممّا كان يوفّر مناصب شغل للنازحين البرانية القادمين من الأغواط ووادي ميزاب ، والمسيلة

[1] بلبراوات بن عتو ، مرجع سابق ، ص : 184 .

والزواوة وبسكرة ومازونة . وكان البرانية يمارسون مهنا وحرفا مثل حرفة البناء والحدادة والخياطة والتجارة وغيرها "[1] .

تدهور الصناعة :

زاد تدهور الوضع الاقتصادي – مع نهاية عهد الدايات – في ضعف الصناعة بسبب انعدام الأمن ، عبر طرقاتها التجارية ، وخطوط المواصلات التي تمرّ عبرها المواد الأولية الضرورية في الصناعة ، خاصة بعد استفحال أمر الثورات الداخلية ، التي قادتها الطرق الصوفية في بايليك الغرب ضد سلطة الباي ، خاصة درقاوة بقيادة الشريف الدرقاوي ، ثم التيجانية في الجنوب الغربي .

وقد طال أمر هذه الثورات ، والتفّت حولها مختلف القبائل ؛ احتجاجا على مغالاة المخزن والبايليك في جباية الضرائب ، وتزامن هذا الغبن مع انتشار القحط والمجاعات في البلاد بين سنتي 1803م و1805م ؛ مما أثّر سلبا على السكان وزاد في غلاء المعيشة وارتفاع الأسعار ، وتلا ذلك اجتياح الجراد ، وانتشار الطاعون عام 1816م[2] .

---

[1] أرزقي شويتام ، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519 – 1830م ، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث ، جامعة الجزائر ، 2005 – 2006م ، ص : 98 .

[2] حسان كشرود ، رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثمانية من 1659م إلى 1830م ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2007 – 2008م ، ص : 27 . وينظر كذلك : صالح العنتري ، مصدر سابق ، ص : 68 .

كما لم يشجع البايات في مازونة تطور الصناعة ، ذلك أن سعي النقباء في المدينة وفي غيرها من المدن الجزائرية للحفاظ على تحديد أنواع وكميات المنتوج الواجب احترامها من قبل الحرافيين أدى إلى ركود الصناعة بشكل عام .

ورغم وجود تبادل تجاري بين المدينة وبين جوارها ؛ من مدن البايليك لتعويض النقص أو ترويج منتوج المدينة ؛ فإن ذلك لم يساهم في التملص من سلطة هؤلاء النقباء ، ويدفع إلى حدوث النهضة الصناعية المأمولة [1] .

[1] حسان كشرود ، مرجع سابق ، ص : 27 .

التجارة وحركة الأسواق :

لقد أشارت المصادر الجغرافية إلى وجود السوق بمازونة ، وقد سبق ذكر ما أورده الإدريسي في تعريفه للمدينة ؛ فقد قال : " وهي مدينة كبيرة وعامرة آهلة ذات سور وسوق" ، إلى أن يقول : "... ولسوقها يوم معلوم يجتمع إليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه والألبان والسمن والعسل " [1] .

ويذكر بلحميسي أن سوق المدينة كان زاهرا في السابق ، ومن نجاحه وكثرة الإقبال عليه ؛ كان يعقد مرتين في الأسبوع ، لكن هذا الازدهار أخذ طريقه للزوال مع بداية عهد الاستعمار ، وذلك بسبب تضييق المكاتب العربية على حركة السكان ، مما قلّل الوافدين إليه [2].

زيادة على سوق المدينة ، فإن مازونة وما حولها من سكان جبال الظهرة كانوا يشاركون الأسواق الأخرى في المناطق المجاورة ، ويتحركون نحوها بسلعهم .

كانت هناك عدة أسواق خاصة بحوض شلف ، تتبادل فيها القبائل وبعض المدن تجارتها ، ومن ضمنها سوق الأحد ، الذي كان موجودا شمال سبخة بن زيان " شمال غليزان " ، وكانت تتوافد عليه الوفود التجارية من جميع مدن بايليك الغرب، وكان هذا السوق في مكان يدعى السعداوية [3] .

[1] الإدريسي ، مصدر سابق ، ج : 1 ، ص : 271 .

[2] M Belhamissi , op cit , p : 85 .

[3] طاهر جنان ، مرجع سابق ، ص : 35 .

وفي شمال غرب مرجة سيدي عابد ؛ كانت تحدث التبادلات التجارية في نفس المكان يوم الأربعاء ، وكان أولاد العباس " غرب واريزان " يقومون بشراء وبيع المنتوجات المصنوعة في المدينة .

إضافة إلى سوق كان يعقد يوم الأحد ، بجوار الأصنام (شلف حاليا) ، في مكان يحمل نفس الاسم اليوم .

وهذه الأسواق كانت تستقبل الخضر والتين والزيتون المجلوب من مازونة ونواحيها ، " ومن جبال الونشريس ، ومنطقة المجاهر " بجوار مستغانم " ، وأيضا المصنوعات النسيجية والغذائية كالزيت ، وصابون بني راشد ، وخشب الونشريس ، حيث تتبادل السلع ؛ إما ثمنا وإما مقايضة ، يأخذ كل ذي حاجة ناقصة في مدينته ما توفره المدينة الأخرى [1] .

وتثبت الوثيقة – نورد نصّها فيما يلي – وجود هذا الاتصال التجاري بين المدينة ومحيطها .

ومضمون الوثيقة هو عبارة عن جواب من أحد أئمّة مدينة تيارت ، على سؤال تقدّم به الشيخ أبو راس للاطلاع على وجود نوع من أنواع القطيفة (المخمل) ، وعن ثمنها إن وجدت .

ونص الظهير كالآتي : " حضرة شيخنا العلامة الدرّاكة، سلالة أهل العلم والتقى والبركة ، سيدنا محمد بوراس – دام الله بمنه كمالكم وعزّكم وسلّمه – ،

---

[1] طاهر جنان ، مرجع سابق ، ص : 36 .

وسلام مبارك تامّ عليكم ، وعلى أهل محبتكم ، يليه سيدي ؛ وصلني كتابكم الكريم ، وتلقيناه بالترحيب والتسليم ، وحمدنا الله على سلامتكم وعافيتكم ، وما ذكرت فيه من شراء القطيفة ؛ أن المصبوغة بالقرمز [1] – كما قلتم – لا توجد هنا أصلا ، لأنّ قيمتها غالية ، وأمّا المصبوغة بغيره – صبغا جيدا مع اتقان الصنعة – فقد توجد ، هكذا قالوا لي أهل البلد الماهرين بذلك . والسلام . من كاتبه عبد ربه الفقير : موسى بن محمد بن شهيدة ، المقيم بمسجد بلد تيارت 20 ذي القعدة 1303هـ " [2] .

ومن خلال النص ؛ نستنتج أن :

1. هذا النوع الرفيع من المخمل المصبوغ بالقرمز ؛ غير موجود في مدينة تيارت ، لكن بها أنواع جيدة أخرى .
2. هذا النّوع غير موجود في مدينة مازونة هي الأخرى .
3. هذا النوع موجود بمازونة والإمام يسأل عن ثمنه بتيارت ، حتى يتمكّن من تسويقه إليها إن كان ثمنه فيها أغلى ، وهو الأقرب إلى المنطق ، كون مازونة عرفت بتفوّقها في أنواع النسيج المختلفة .

---

[1] قرمز: القِرْمِز: صبغ أرمني أحمر ، يقال إنه من عصارة دود في آجامهم . ويقال : إنَّه حيوان تصْبَغ به الثِّيَابُ فلا يكاد ينصل لونه ، وهو مُعَرَّب.

ينظر : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تحقيق : د مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، ج : 5 ، ص : 255 . وأيضا : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، جمهرة اللغة ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، ط 1 ، بيروت ، 1987م ، ج : 3 ، ص : 1324 .

[2] ينظر الملحق رقم : 30 ، ص : 191 .

إنّ الاختلافات في المنتوج الزراعي والصناعي بين مازونة وجوارها ؛ هي السبب الأساسي لقيام التبادلات التجارية ، بين المدينة والريف القريب منها ، فما تنتجه مناطق الظهرة الجبلية تفتقر إليه المناطق السهلية ، وبالعكس .

لهذا السبب اشتهرت الأسواق الأسبوعية والسنوية على تخوم المدينة ، غير بعيدة عن رقابة البايليك ، الذي لا يضيّع فرصة لتحصيل الرسوم من القبائل الممتنعة ، التي ليس له يد عليها ؛ إلاّ من خلال ما تدفعه من مكوس في هذه الأسواق ، التي تصرف فيها منتوجها ، وتحصّل فيها ما تحتاج إليه من حبوب وزيوت وتين وغير ذلك من محاصيل المدينة [1] .

[1] صالح عياد ، مرجع سابق ، ص : 339 .

مازونة والطرق التجارية .

ربطت مازونةَ بغيرها من المدن ؛ شبكةٌ من طرق المواصلات ، كانت محروسة من قبل قبائل المخزن ، التي تسكن على طول هذه الطرقات ، والتي انتشرت على طولها محطات للحراسة ، تعرف بالخِناقات (konack) ، كان منها في الطريق من مليانة إلى عاصمة بايليك الغرب سبع خناقات ، وكان مثلها موجودا بين مازونة ومستغانم ، ومنها إلى معسكر وإلى تلمسان .

كما وظّف الباي مجموعة من الشّوّافين أو الجواسيس ، كانوا منتشرين في المناطق الحسّاسة من هذه الطرقات ، لمراقبة الأوضاع وإخبار الحاميات العسكرية الموجودة في الخناقات بكل الأخبار التي يرونها مهمة للبايليك [1] .

ويذكر سعيدوني أن الطريق السلطاني لجهة الغرب ، الرابط بين الجزائر ومعسكر ، ومن بعدها وهران ؛ ظل عند الضرورة يتحول عن مساره المستقيم " ... عند مرجة سيدي عابد نحو الشمال ليمر على مدينة مازونة ، كما ينثني نحو الجنوب عند وادي يلل ، لينتهي عند مدينة معسكر التي كانت قاعدة مقاطعة بايليك الغرب أثناء احتلال الاسبان لوهران والمرسى الكبير .

وبعد تحرير وهران 1791 ؛ تحولت معسكر إلى مدينة إقليمية ، وأصبح طريق الغرب ينتهي عند مدينة وهران ، عن طريق مسلكين أحدهما يميل إلى الجنوب ، ليبتعد عن المستنقعات ويحاذي سفوح مرتفعات بني شقران ، والآخر يلازم السهول

[1] Mercier , op cit , pp : 137 – 138 .

الشمالية ليقترب من البحر ، غير بعيد عن مستنقعات المقطع ؛ مما جعله أكثر ملاءمة في فصل الصيف خاصة "[1].

وبالتالي ؛ فمازونة بقيت مقصدا للقوافل ، ومحطة مهمة في الطريق السلطاني، حتى بعد تحول الباي عنها إلى معسكر ثم إلى وهران ، وما كانت المدينة لتحافظ على هذه المكانة لولا الأهمية التجارية ثم العلمية ، التي حظيت بها مازونة ، والتي لم تفقدها بعد فقد المكانة السياسية بانتقال عاصمة البايليك عنها .

ويذكر سعيدوني ــ في موضع آخر ــ الطرقَ الأساسيةَ المهمةَ في بايليك الغرب ، وهي كالآتي :

- طرق وهران – تلمسان .
- طرق وهران – مستغانم .
- طرق مازونة – معسكر .
- طرق معسكر – تلمسان .
- طرق تلمسان – أرشقول .
- طرق تلمسان – وجدة .[2]

يتضح من خلال ما سبق ؛ أن المدينة بقيت ضمن المدن الإقليمية ببايليك الغرب ، التي تحكمت في النشاط الاقتصادي والتوزع السكاني ، ليس فقط في هذا

---

[1] ناصر الدين سعيدوني ، شبكة المواصلات بالجزائر أثناء العهد العثماني ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، زغوان ، سبتمبر 2000 ، عدد 21 ، ص ص : 69–70 .

[2] ناصر الدين سعيدوني ، شبكة المواصلات...، مرجع سابق ، ص : 77 .

البايليك ، بل في الأيالة كاملة ، نظرا لارتباط بعض التجارة الخارجية بهذه المدن الإقليمية ، خاصة مع نهاية العهد العثماني ، حين تناقص دور المدن الساحلية ، لتدهور مداخيل القرصنة ، وتطور التجارة مع المغرب والمناطق الصحراوية .

فقد كانت تجارة الزنجفر[1] الذي يجفف في معسكر ، وهو معدن أحمر اللون ، يستعمل في دهن الحديد ؛ تمرّ عبر مازونة ، ومنها إلى ميناء تنس ، كما كانت تجارة الجلود الفلالية ، التي تباع في أسواق تلمسان مع غيرها من منتوجات المغرب هي الأخرى تمرّ عبر هذا الطريق [2] .

---

[1] الزنجفر يتخذ من الزئبق والكبريت يجتمعان في قوارير ويوقد عليهما فيصيران زنجفرا وللنار قدر تخرجه التجربة مرة بعد أخرى والوزن أن تأخذ واحداً من زئبق وواحداً من كبريت ، وهو أحمر يكتب به ويصبغ ، قوته كقوة الإسفيداج ، وقيل: قوة الشارنج ، وهو معدني ومصنوع . أما المعدني فهو استحالة شيء من الكبريت إلى معدن الزئبق، وأما المصنوع فأنواع

ينظر : أبو عبد الله محمد البلخي الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، ط 2 ، ص: 281 . وأيضا : مرتضى الزَّبيدي ، مصدر سابق ، ج : 11 ، ص : 485 .

[2] صالح عياد ، مرجع سابق ، ص : 341 .

الضرائب:

عرفت مازونة – كغيرها من مدن الجزائر – أنواعا مختلفة من الضرائب ، مسّت جميع أنواع النشاطات الفلاحية والمهنية والتجارية ، بحيث يضمن البايات أكبر قدر من الأموال من الرعية .

وهذا الأمر جعل ناصر الدين سعيدوني يعلّق على النظام الضريبي للإيالة بقوله: " يمتاز نظام ضرائب الأيالة بتعدد مصادره ، وتأثيره على النشاطات الاقتصادية المنتجة ، فلم يفلت من هذا النظام الجبائي أي فرع من الإنتاج الفلاحي والصناعي والتجاري ، ولا أية مادة قابلة للدفع " [1].

وللدلالة على تعدد هذه الضرائب وتزايدها ؛ سنورد جزءا من ظهير وقّعه خليفة الباي الحاج أحمد ، يعفي فيه الشيخ محمد بن المهدي ؛ إمام مسجد أبي ذلول من مجموعة منها ؛ ونصه كالآتي :

" الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، يعلم الواقف على هذا الأمر الكريم ، والخطاب الواضح الجسيم ، النافذ أمره ، العلي شأنه وقدره من إخواننا الخلفوات لار وأبناينا القوّاد والعمال ، وساير المتصرفين في الاحوال ، خصوصا عمالة مازونة ، ...

[1] ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792 – 1830 م ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، ط : 2 ، 1985 م ، ص : 117 .

وأنّنا أنعمنا على ماسكه العالم الأجل المرعي المبجّل ، الزكي الأفضل السيد محمد بن المهدي ... وأوصينا له بحرمه واحترامه ، ورعيه وإكرامه ؛ بحيث لا يطالبه أحد من العشور والعشرات ، ومبيت ومونة ، وصخرة ، وغير ذلك من التكاليف المخزنية والوظائف السلطانية قلّت أم جلّت ، وبتاريخ أول ذي الحجة الحرام كتب بأمر السيد الحاج أحمد الخليفة وفقه الله عام 1215هـ "[1] .

يُجمل هذا الظهير عددا لا حصر له من الفوائد التاريخية ، نقتصر منها على ما يتعلّق بموضوع الضرائب ، فقد أعفي المفتي منها جميعا ، أجمل الظهير بعضها ، وفصّل أخرى ؛ وهي :

1. العشور .
2. العشرات .
3. المبيت .
4. المونة .
5. الصخرة .

وتبيّن رسالة أخرى غير مؤرّخة ، وموقعة من الباي محمد ؛ نوعا آخر من الضرائب هو (الخطية) .

جاء في هذه الرسالة ما يلي : " عامة أهل تساريت ، سلام عليكم وبعد ، جعلنا عليكم أربعماية سلطاني خطية ، وبعثنا لكم الخلاصة ، فاعزموا بخلاصها

---

[1] كتب على ختم الظهير أعلى الصفحة على اليمين : الواثق بالله احمد بن مصطفى 1215هـ .
ينظر : النسخة المخطوطة في الملحق رقم : 29 ، ص : 290 .

لابد ولابد ، وإلا نبعث لكم ماتين فارسا ، ذنوبكم على رقابكم والسلام . بأمر السيد محمد باي وفقه الله " [1] .

ومع الأسف الشديد ؛ فإنّ هذه الوثيقة جاءت مقتضبة ، ولم تعطنا التاريخ ، ولا هي عرفتنا سبب هذه الضريبة المفروضة على أهل تساريت ، وهل هي دورية أم عارضة بسبب جرم ارتكبوه .

وعلى العموم ؛ فإنّ لفظ (الخَطِيَّة) المشتق من الخطأ ، يستعمل عادة للدلالة على الغرامة المفروضة لعقاب من ارتكب خطأ في حق البايليك .

وإذا علمنا من خلال رسالة أرسلها الداي حسين إلى حاكم مازونة ، اعتبرت أهل تساريت من الرعية الطائعين الدافعين للواجبات المخزنية ؛ فيمكن اعتبار هذه الخطية واحدة من وسائل التأديب ، التي أتت أكلها ، باعتبار أن الباي محمد كان قبل ولاية الداي حسين .

" وقد أدّى هذا التوسّع في جلب الضرائب [كما يرى سعيدوني] ؛ إلى جعل الدولة أداة استهلاك ، تعيش على موارد البلاد ، دون أن تسعى إلى تنميتها أو تطويرها ، فكل ما تنتجه البلاد يُستهلك في دفع رواتب الموظفين والجند ، أو يودع في خزائن الدولة ، دون التفكير في تطوير وسائل الإنتاج ، التي عرفت آنذاك نموا ملحوظا في الدول الأوربية " [2] .

---

[1] ملحق رقم : 33 ، ص : 294.

[2] ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، مرجع سابق ، ص : 117.

ولكلام سعيدوني أكثر من دلالة ؛ فإنّه يقرّر في البداية ، أن الدولة لم تترك مجالا يمكن أن يدرّ عليها أموالا ؛ إلا واستخلصت منه الضرائب ، ثم إنّ هذه الضرائب لم تكن توظّف إلا في تغطية مصاريف طبقة من طبقات المجتمع ، وهي طبقة الجند .

واقتصاد هذا هو حاله ؛ لا بدّ أن يكون له أثر وخيم على الحياة الاجتماعية وذلك لسببين :

الأول : ظهور بعض المظالم التي فرضها الموظّفون الذين يجمعون هذه الضرائب ، لأن سلطات الأيالة كانت بحاجة مستمرة إلى مورد مالي قارّ ومضمون؛ مما جعلها توكل جمع الضرائب إلى موظفين خاصين ؛ مقابل مبالغ مالية محددة يقدّمُونها مسبقا للخزينة ، وكان لهذا النظام مضار كبيرة على الرعية من جهة ، وعلى خزينة الدولة من جهة أخرى .

فقد تسبب هذا الأسلوب في تحديد مداخيل الخزينة ، وحرمانها من جزء كبير من الضرائب كان يذهب إلى جيوب هؤلاء الموظّفين ، من دون أن يكون للسلطات علم به ، وهو سبب في إضعاف الدولة .

ومن جهة أخرى ؛ أدّى هذا الأسلوب إلى إنهاك موارد الرعية ، التي لم تكن دائما قادرة على مواكبة هذه الزيادة ، فدفع بالكثير من الفلاحين إلى ترك أراضيهم، والنزوح إلى أماكن بعيدة عن سلطة البايليك ، أو إلى التّحول إلى حياة

الرعي والتنقل ، بدل حياة الاستقرار التي كانوا يعيشونها ؛ مما أنقص أعداد السكان بالمدينة وريفها [1] .

ويذكر مارسيي أن أهم وظيفة يحرص الباي على نجاحها ؛ هي جمع وإيصال الدنوش إلى الباشا ، لهذا فهناك محلّتان تخرجان بقيادة الخليفة ، في الربيع وفي الخريف ، تجوبان أراضي قبائل الرعية لجمع هذه الضرائب ، ثم يرسل الباي خليفته إلى الجزائر ؛ محمّلا من مازونة بمائة ريال بوجو للباشا ، معها مجموعة من العبيد ذكورا وإناثا ، وأحمال من الحايك والبرانس البيضاء والسوداء ، والجلود الحمراء والجياد فائقة الجودة ، زيادة على البغال والحمير وغيرها [2] .

ولقول مارسيي أكثر من فائدة ؛ فبالإضافة إلى وصفه لحرص البايات على جمع الضريبة المستحقة للباشا ؛ فإنه يعرفنا بمادة هذه الضريبة ، وقدرها المستحق كل سنة ، وفي ذلك دلالة على قيمة هذا البايليك ومكانته الاقتصادية ، ونوع المواد التي تفرض عليها الضريبة .

ويواصل قائلا : " ... كان على الباي أن يحمل مرة كل ثلاث سنوات ، ويزيد على الحمولة السابقة (التي حملها) أربعين ريال بوجو ، مع كمية إضافية من العبيد والحايك ، معها حوالي أربعين فرسا من أجود الخيل ، ... " [3] .

ولقد ظهر مع هذا التحول أوضاع اجتماعية جديدة ، كان من أبرزها شيوع فكرة الأحلاف العشائرية ، والتي عرفت بفكرة الصف ، واعتبرت وسيلة فعّالة

---

[1] سبق الحديث عن تناقص أعداد السكان مع نهاية العهد العثماني في الفصل الأول .

[2] Mercier , op cit , p : 137 .

[3] Mercier , op cit , p : 137 .

لحماية القبيلة من أي اعتداء قد تتعرض له من القبائل المجاورة ، خاصة وأن السلطات الحاكمة لم تكن لها مصلحة في حماية هذه القبائل وحفظ النظام ، بل على العكس من ذلك ؛ اتخذت الصراع العشائري والتنازع القبلي ذريعة للتدخل في الشؤون الخاصة لهذه القبائل ، ومطية لبسط نفوذها على المناطق الخاضعة لهذه القبائل [1].

الثاني : استعمال الحملات العسكرية لاستخلاص الضرائب ، فكثيرا ما كانت السلطات الحاكمة تلجأ إلى هذا الإجراء ؛ مرة على الأقل أو مرتين ، واحدة في الخريف وأخرى في الربيع من كل سنة لاستخلاص الضرائب والعوائد ، أو لتأديب القبائل المتملِّصة من هذه المطالب .

وغالبا ما تنتهي هذه الحملات بنتائج جد وخيمة على حياة هذه القبائل التي تتوجه إليها ، على المستويين الاجتماعي والاقتصادي .

ونظرا لأنّ عماد هذه الحملات كان يقوم على فرسان المخزن ؛ فإن عداوة كبيرة نشأت بينهم وبين مختلف قبائل الرعية .

وهكذا تشكّلت عائلات إقطاعية في بايليك الغرب ، تابعة لسلطة الأتراك ، وتتمتّع بسلطة كاملة على إقطاعاتها ، شرط الحفاظ على دفع الضريبة ، والمشاركة بفرسانها في المحلات التركية التي تخرج لجمع الضريبة .

[1] ناصر الدين سعيدوني ، " الإنسان الأوراسي وبيئته " ، الأصالة ، أوت – سبتمبر 1978م ، ص : 142 _ 143 .

ومن بين هذه العائلات الحشم – سكان غريس وأجداد الأمير عبد القادر ، وعائلات سيدي العربي سكان مينا ، ومديونة سكان الظهرة ، وبن قدور أولاد سيدي الشيخ ، الذين أعطونا صورة واضحة لهذا الشكل من الإقطاع [1] .

وباعتبار أن الباي كان رجل حرب بالدرجة الأولى (إنكشاري) ، ومهمته الأساسية هي حفظ الأمن وجباية الضرائب ؛ فإن اهتمامه انصبّ أساسا على تنظيم النشاط العسكري بالبايلك ، فقام ببناء قوة عسكرية خاصة تأتمر بأمره ، وهي القوة الدائمة بالبايلك ، بالإضافة إلى القوات الموسمية المتمثلة في الحاميات التي يرسلها الباشا إلى مختلف المدن الحساسة بالبايلك لدعم سلطة الباي .

---

[1] Mercier , op cit , p : 137 .

تناقص موارد الخزينة :

يذكر شالير في عرض مبسط لواردات الدولة في سنة 1822 م ، أن الميزان التجاري للدولة ؛ كان يشكو عجزا مقداره 937 ألف دولار ، ويقول – معلّقا على المبلغ – : " وهو مبلغ ضخم ، تدفعه للخارج دولة ليس لها موارد نشيطة تذكر ، وتبعا لذلك ؛ فإذا كانت التّجارة الداخلية في الجزائر لا تنتج ما يكفي للتعويض عن هذا العجز في التجارة مع الخارج ؛ فإن من الواضح أن الأمر سينتهي باستنزاف موارد الدولة وبإفلاسها ، ولكن قيمة التجارة الداخلية مشكوك فيها ، وذلك لأن السلطة التي تعتمد على دخلها من عمليات النهب والسلب ؛ أهملت كليةً العلاقات التجارية داخل إفريقية ، والجزائر أقل بلاد البربر حظّاً في هذه التجارة الداخلية ..." [1] .

ويؤكّد في موضع آخر أن هذا العجز ، ونظراً لانعدام الموارد الخارجية ؛ لم يكن ليغطي إلا من الخزينة ، التي لن تلبث أن تنفد إذا لم تقم الدولة بموازنة الميزان التجاري [2] .

ويعلّق آجيرون على وضع الأيالة مع نهاية عهد الدايات ؛ بأن سبب انهيار الحكم التركي في الجزائر ، يرجع إلى أمرين : أحدهما الفتن الكبرى التي قادتها

[1] وليام شالير ، مصدر سابق ، ص : 103

[2] المصدر نفسه ، ص : 104 .

الطريقة الدرقاوية ، والثاني هو قلة الصادرات والنظام الإقطاعي الذي تمتّع به كبار الموظفين [1] .

ومع تناقص نشاط القرصنة الجزائرية ؛ تناقصت موارد الخزينة ، كما أن تناقص عدد الأسرى أثر سلبا على موارد البلاد ، فقد كانت عملية افتدائهم تدر ربحا لا بأس به على السلطات العمومية وعلى الخواص .

[1] شارل روبير آجيرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ترجمة عيسى عصفور ، ط : 2 (الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م) ، ص : 13 .

العوامل الطبيعية وأثرها على اقتصاد مازونة:

من أهم العوامل الطبيعية ؛ التي كان لها تأثير بالغ على الحياة الاقتصادية في مدينة مازونة – والجزائر عامة – ؛ الزلازل ، والأوبئة ، وهجمات الجراد ، والمجاعات، والفيضانات.

أ_ الزلازل :

عرفت الجزائر في العهد العثماني ؛ مجموعةً من الهزات الأرضية ، تسببت في خراب وتدمير بعض المدن ، وهلاك الأرواح والممتلكات .

منها زلزال الجزائر سنة 1665م ، والتي صاحبها خسوف الشمس ، وتأثّرت به حتى السواحل الأوربية من شدته ، وأحدث هلعا في النفوس .

وكذلك زلزال الجزائر وضواحيها سنة 1676م الذي دام قرابة الشهر ، وأحدث خسائر كبيرة في العمران ، بل وتسبّب في ثورة على الداي لاتهامه بسوء الطالع [1].

وقد كانت الزلازل تتبع بسلسلة من الفوضى وانتشار اللّصوص ، كما حدث في سنة 1716 حين هزّ السواحل الجزائرية زلزال كبير ، تسبّب في خراب كل من مدينة شرشال والجزائر وبجاية ، ودام عدة أيام ، عمّت فيها الفوضى ، وهجر الناس مساكنهم التي تهدّمت أو تشققت ، واضطر الداي لتجريد العسس لمعاقبة اللصوص ، ومراقبة أملاك العامة .

---

[1] سعيدوني ناصر الدين : الأحوال الصحية و الوضع الديموغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني ، الثقافة ، عدد 92 (الجزائر: جمادى 2 ، رجب 1406/ مارس ، أفريل 1986) ، ص : 105.

وكذلك كان الحال بمدن مليانة وعنابة والعاصمة عامي 1723، 1724 ثم شرشال عام 1735 [1].

وكثيرا ما رافق هذه الهزات ارتباك عام ، وتوقّف لمجرى الحياة بسبب تهدم مجاري المياه ، وانقطاع الماء عن المدن ؛ مثل زلزال 1755 الذي صاحب حسب بعض الروايات ظهور بعض الحرائق ، ودامت الفوضى التي اتبعته مدة شهرين ، مما دفع بالأهالي إلى الالتجاء إلى البساتين والحدائق [2].

وقد عرفت نهاية القرن الثامن عشر مجموعة من الزلازل ؛ كان واحدا منها على الأقل مفيدا ، وهو زلزال وهران ، الذي كان من الشدة بحيث أدّى إلى وفاة أكثر من 1000 شخص تحت الأنقاض ، وانقطاع المياه من العيون والينابيع ؛ مما كان له الأثر في قبول الاسبان تسليم وهران للباي محمد بن عثمان الكبير ، الذي كان ضرب عليها حصارا .

وقد اضطرهم الزلزال إلى هجر سكناتهم ، وبناء أخرى من الخشب ، وصفها بن سحنون الراشدي – في معرض حديثه عن دخول الباي إلى مدينة وهران – بقوله : " ... أما دور السكن ، فقد كانت تهدّمت بالزلزلة ، بحيث لم يبق إلا أطلالها ، غير أنهم جعلوا خارجها بين الأبراج بيوتا من اللّوح رائقة الشكل ..." [3].

---

[1] سعيدوني ناصر الدين : الأحوال الصحية ، مرجع سايق ، ص : 105.

[2] نفس المرجع ، ص : 106.

[3] أحمد بن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي ، (قسنطينة ، الجزائر : مطبعة البعث ، 1973م) ، ص : 459.

كما يصف لنا الشريف الزهّار الزلزال الذي أصاب مدينة البليدة سنة 1241هـ/ 1825هـ ، والذي مات فيه خلق كثير .

ومما جاء في وصفه : أن الداي أرسل الآغا إلى عين المكان "... وعندما وصل البلد وجده خربة ، فأمر الرعية بالبحث عن الناس الذين تحت أنقاض البناء، فمنهم من وجدوه حيا ، وأكثرهم ميتا ، فدفنوا الموتى . وجعل الآغا أخبية للأحياء، وأخرجوا الأثاث من تحت الهدم ، وأعطاهم ما يأكلون ، ثم بنى لهم نوالات [1] لمستقرّهم ، وكفل اليتامى والأرامل ... ثم انهم تذاكروا في إعادة بناء البلد، وكان الزلزال لا ينقطع عنها ليلا ونهارا عدة أيام .

وفي نفس مدينة الجزائر ،لم تنقطع الزلازل مدة ثمانية عشر يوما ، لكنّها كانت في النهار قليلة ، وأمّا في الليل ؛ فهي كثيرة ، بحيث أنهّا تكررت ليلة من الليالي أكثر من عشر مرات ، هذا الذي شاهدته أنا " [2].

وقد ساهمت الحكومة في العاصمة في إعادة إعمار المدينة ، التي قضى الزلزال على أغلب بناياتها ، واشترت من الخواص بعض الأراضي ، واستخدمها للصالح العام .

---

[1] مفردها نوالة وهي كلمة عامية لا زالت مستعملة إلى اليوم في البادية ومعناها كوخ حجري سقفه من الأعمدة الخشبية .

[2] الشريف الزهار، مصدر سابق ، ص : 155.

الجراد والمجاعات :

من الآفات الاجتماعية ذات الأثر البالغ في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر في العهد العثماني ؛ هي زحف الجراد . فقد اعتاد السكان اختفاء الأقوات وهلاك الأرواح ، وحدوث المجاعات في أعقاب زحف الجراد ، وغالبا ما يتبع زحف الجراد مجاعة عامة وانتشار الأوبئة .

ويورد الدكتور سعيدوني أهم السنوات التي عرفت فيها الجزائر أسراب الجراد ، ويظهر من خلاله ؛ أن القرن الثامن عشر عرف حملات متعددة ، إذ لم تخل عشرية منها ، بل وتضاعفت في العشريتين الأخيرتين [1] .

وهذا الكلام نفسه يذكره "إسكار" [2] ، الذي يصف حملتين بارزتين لهجمات الجراد ؛ أولاها كانت في سنة 1722 ، والتي يعتبرها ذات أثر بالغ ، فقد حجبت أسراب الجراد الشمس مدة 48 ساعة ، كما قضت على الخضرة ، ولم تسلم منها لا أوراق الشجر ولا الخضروات ولا النباتات الصغيرة ، وكل ذلك في لمح البصر .

أما حملة سنة 1794 فإن من خصوصياتها كما يقول : أنه من عهدها فقدت نوعية الخمور المنتجة في الجزائر جودتها السابقة ، ولم يكن للسكان وسيلة لمقاومة هذه الأسراب .

---

[1] سعيدوني ن. د. ، الأحوال الصحية ... ، مرجع سابق ، ص : 106.

[2] Gabriel Esquer , reconaissance des villes , forts et batteries d'Alger , (Paris : librairie Honoré Champion , 1927) , p : 68.

أمّا الداي ؛ فقد كان يستعمل اليهود لحراسة بساتينه من الجراد ؛ حسبما ذكره شالير في مذكراته إذ قال أنه : " ... في صيف سنة 1810م زارت هذه البلاد جحافل الجراد ، التي دمّرت كل ما مرّت به في طريقها من كل ما هو أخضر ، وبهذه المناسبة ؛ صدرت الأوامر إلى عدة مئات من اليهود للخروج لوقاية حدائق الداي وبساتينه الشخصية ، حيث اضطروا للعمل والحراسة بالليل والنهار ، ما دام الجراد يعيث فسادا في البلاد " [1].

وقد أورد الشريف الزّهار ، في معرض حديثه عن أخبار الداي عمر باشا أن سنة 1230هـ/ 1814م – وهي نفس السنة التي اعتلى فيها هذا الداي العرش – عرفت زحف الجراد الذي أتت أسرابه في طريقها على الأخضر واليابس ، فوقع الغلاء ، واضطر الداي إلى إعطاء القمح إلى الخبازين ، وجعل له تسعيرة توافق سعره في وقت الرخاء .

وبالرغم من أنه طلب منهم أن يقدّروا ما يكفي حاجة الناس ؛ إلّا أن الزّحام على هذا الخبز الأميري أو الحكومي وصل ذروته ، ولم يتوقّف هذا الزحام حتى انقضى مفعول الجراد ، وأثمر الزرع الجديد . ومن فضل الله على البلاد أن العام الموالي كان من أخصب الأعوام وأثمرها ، فعادت الأسعار إلى سابق عهدها وارتاح الناس [2] .

---

[1] وليام شالير ، مصدر سابق ، ص : 90.

[2] الشريف الزهار ، مصدر سابق ، ص : 117.

أمّا المجاعات ؛ فغالبا ما كانت تعقب زحف الجراد أو الزلازل ، ومنها التي كانت تدوم سنوات ، وتخلف ضحايا بالآلاف ، وترتفع الأسعار خاصة أسعار القمح.

ويذكر الزهّار أن الجوع أصاب البلاد لمدة ست سنوات ، أعطى الله فيها القحط وارتفع سعر الصاع الجزائري إلى أربعة بجة [1] ، وأن الناس كانوا يموتون في الأسواق [2] . وقد كان سبب قلة القمح هو إما قلة الأمطار أو الفيضانات .

وقد عرفت بداية القرن السادس عشر سلسلة من المجاعات في سنوات 1800، 1804، 1806، 1807 ، 1816و1819 ، وكثيرا ما دفع اختفاء الأقوات من السوق الداياتِ إلى استيرادها من الخارج ؛ كما وقع مع الداي مصطفى باشا الذي استورد كميات من القمح من موانئ البحر المتوسط ، لسد العجز الداخلي ومواجهة النقص في الأسواق [3] .

وأما الداي حسين فقد التجأ إلى نفس الأسلوب في سنة 1235هـ/1819م لمواجهة المجاعة ، فاشترى 50 ألف صاع من الحبوب من شواطئ البحر الأسود لمواجهة النقص في الموارد بمدينة الجزائر فقط [4] .

---

[1] الصاع الجزائري حوالي 34 كغ والبجة تساوي حوالي 10 غ فضة . الشريف الزهار ، مصدر سابق ، ص : 56.

[2] الشريف الزهار ، مصدر سابق ، ص : 31.

[3] حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص ص : 131_ 132.

[4] وليام شالر ، مصدر سابق ، ص : 91 .

الأوبئة :

إنّ المناخ الجزائري سليم صحيّا في الأصل ؛ ومناخ مازونة أسلم صحيّا لوقوع المدينة بين جبال الظهرة التي يتخللها هواء نقيّ لارتفاعها وكثرة الخضرة بها ، غير أنّ البلاد كانت عرضة لمجموعة من الأمراض ، كان وباء الطاعون أكثرها وأخطرها، والغريب أنّ هذا الوباء كان لا ينقطع عن الجزائر ، فهو يضرب البلاد كلّ 20 سنة في المتوسط ، وأحيانا يدوم الوباء سنوات متتابعة ، ويحصد أرواحاً كثيرة ، ويقوم في جميع أنحاء الوطن.

ويميل بعض المؤرّخين إلى أنّ مصدر هذه الأوبئة هو بلاد المشرق ، وأنّ حركة السكان كانت أهمّ عامل في نقل هذا الداء إلى البلاد ، وبالتالي يمكن أن نخفظ السكان من هذا الخطر باتخاذ إجراءات وقائية ضده كما يرى " إسكار" [1] .

وقد عرفت البلاد سنوات عجاف ، حصد فيها الوباء أرواحا كثيرة ، نذكر منها ما تعلّق بمجال البحث سنوات 1673 ، 1676 ،1677 ،1678 ،1689 ،1693 ،1695 ،1697 ،1698 ،1699 ،1700 ،1732 ،1738 ، 1740 ، 1744 ، 1741 ، 1785 ، 1787 ، 1787 ، 1780 ، 1793 ، 1794 ، 1797 ، 1798 ، 1799 ، من 1804 إلى 1808 و من 1810 إلى 1822 .

غير أنّ من بين هذه السنوات هناك ما كان ذا تأثير بليغ ؛ إذ قضى على خلق كثير مثل :

---

[1] Esquer, op cit , p : 67

ــ وباء سنة 1740م والذي قضى على 1000 نسمة في الأسبوع الأول ، ووصل عدد ضحاياه يوميا بين 300 و400 نفس .

ــ وباء سنة 1787م ، والذي أهلك بدوره ما يقارب 500 نفس يوميا ، وخاصة ما بين الأسرى ، والذين يصفهم كثكارت ويعلّق على سبب انتشار الوباء بينهم بقوله : "... ولكن الوباء كان مستمرا في حصد أرواح الباقين ، فقد مات 43 منهم في هذا الشهر ، و105 في شهر أبريل ، ومع ذلك فإنّ الأعمال تجري كالمعتاد " [1] .

ويصفه الشريف الزهّار كما يلي : " وفي سنة 1201هـ جاء الوباء للجزائر ، حتى وصل عدد الأموات أحيانا خمسماية جنازة كل يوم ، ويسمى بالوباء الكبير ، قيل أنه أتى من بحر الترك ، في مركب مع رجل يدعى ابن سماية ، وطال الوباء بالجزائر إلى سنة 1211هـ " [2].

فتناقص عدد السكان ، وتسبّب ذلك في بقاء الحقول بدون حصاد ، وتعطّل بعض دور الصناعة ، ما كان له الأثر على عمليات القرصنة ، كما تناقص عدد العاملين في صناعة الحرير والمحازيم الحريرية ، فأثّر ذلك على كميات هذه السلعة المصدرة لسنوات عدة ، وبالتالي تعطّل مصدر هام من مصادر دخل الخزينة " [3] .

[1] ج.ل. كاثكارت ، مصدر سابق ، ص : 112 .

[2] الشريف الزهار ، مصدر سابق ، ص : 51 .

[3] Venture de paradis , op cit , p : 31.

ــ وباء أعوام 1817ــ 1819م والذي كان عامّا في البلاد ، وقضى على 14000 نسمة في العاصمة وحدها ، ومنهم الداي علي خوجة الذي مات بالقصبة متأثّرا بالوباء [1] .

ويمكن اعتبار نقص الرعاية الصحية ؛ إحدى الأسباب المهمة في انتشار هذه الأوبئة ، وضخامة الخسائر المترتبة عليها ، خاصة وأن البايليك لم يكن يعتني بإقامة مراكز استشفائية للرعية في الوقت الذي " ... كان كبار المسؤولين في الدولة يهتمّون بشؤون صحّتهم الخاصة ، ويصطنعون لهم الأطباء كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا . حقّا إنّهم لم يشجّعوا دراسة الطب في المدارس ، ولم ينشؤوا أكادميات طبية للبحث ، لكنهم كانوا مهتمين فقط بالأسباب العاجلة ، كذلك نقرأ في الوثائق أن بعض الباشوات والبايات قد جلبوا أطباء أوربيين بالشراء ونحوه ، ومعظم هؤلاء الأطباء كانوا يأتون أسرى عند النزاع البحري ..." [2] .

وإنّما أوكل أمر تداوي الأهالي إلى اجتهاداتهم الخاصة ، التي كثيراً ما حيّرت الأجانب رغم بدائيتها ، وربّما مرّد ذلك كما سبق الذكر إلى أنّ البلاد لم تكن معرضة لأمراض خطيرة كما يرى "شاو " [3] إذا استثنينا وباء الطاعون الذي اختلفت الآراء حول موقف الحكومة منه .

[1] الشريف الزهار ، مصدر سابق ، ص : 139 .

[2] أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر ، مرجع سابق ، ج : 2 ، ص : 431.

[3] Dr Shaw , op cit , p : 80.

ففي الوقت الذي يهاجم فيه حمدان خوجة عدم اعتماد الحجر الصحي في حالة انتشار الوباء [1] ؛ نجد عبد الرزاق بن حمادوش يذكر أنّ نظام الحجر الصحي كان معمولا به إذ يقول : " وفي ثالث رجب الموافق آخر يوم من يوليو ؛ قدم علينا مركب من إسكندرية بالحجاج وفيه الوباء ، فمنعهم الباشا الدخول ؛ حمية من أنّ يقوم ممرض على مصح إلى ثامن عشرة ، موافق خامس عشر أوغست أذن لهم في الدخول بعد تحقيق سلامتهم من المرض المذكور " [2] .

ويؤكّد ما ذهب إليه ابن حمادوش ما ذكره الزهّار من اعتماد هذا الأسلوب مع السفن القادمة إلى الجزائر ، على سبيل العادة وليس بشكل عارض : " وكانت العادة أنهم إذا وصلوا للسفينة القرصان ، فإن قبطانها يتكلم معهم من ناحية المركب إذا كانت الكرنتينة . أما إذا لم تكن الكرنتينة ؛ فإنّهم يصعدون إليه ويتسلم مكاتيب القنصل ثم يرجعون ... " [3].

وبدون الحكم لصالح واحد من هذين الرأيين ؛ يمكن ملاحظة أن الأهالي كان لهم تصرفهم الخاص تجاه ظاهرة الوباء ، بشكل يؤكّد أن وعيهم الصحي كان عاليا ، على خلاف ما يزعم بعض المؤرخين ؛ إذ يذكر العيّاشي موقف أهل الأغواط من ركب الحجيج الذي كان فيه ، بعدما أشيع أن فيه الوباء ، كان على قدر من الحذر يوحي بوعي صحي فيقول : "... وكان في الركب أعراب سعاة من

[1] عائشة غطاس ،" الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني " الثقافة ، يوليو ، اغسطس 1983 ، ص: 129 .

[2] ابن حمادوش ، مصدر سابق ، ص :121 .

[3] الزهار ، مصدر سابق ، ص : 152 .

دمر يتكففون الناس ، فقالوا لأهل البلد أن في الركب وباء ، فلم يتركوا أحدا يدخل إليهم ... فلم يخرج أحد منهم إلى الركب ، وكانوا يدلون الزرع من فوق السور ، ويأخذون الريال ويغسلونه ، ولا يتناولونه إلا بعد الغسل..." [1].

وإذا كان المؤرّخون المسلمون يثبتون هذا الوعي ، فإنّ الأوربين ينفونه نفيا قاطعا ، بل إن " إسكار" يقرّ بأن بلاد الجزائر صحية ، وأن سبب الأمراض التي تصيب الأهالي راجعة إلى انعدام أدنى وعي صحي [2] .

وفي كثير من الأحيان اقترنت المجاعات بالطواعين ، مثل ما حدث في الغرب الجزائري عام 1786م ، ويصف " استرهازي " ذلك العام بقوله : " وقد سمّى العرب هذا العام بعام الشر ، فقد أهلكت المجاعة عددا كبيرا من الناس ، سواء من سكان المدن أو الأرياف ... وبعد المجاعة جاء رفيقها الدائم ، وهو الطاعون ليضرب كل البلاد من الاسكندرية إلى المغرب ، وذلك سنة 1200 هـ/1786م ، وقد أطلق عليه في منطقة العرب حبوبة المجاد ... " [3] .

[1] مولاي بلحميسي ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1979 ، ص : 107.

[2] Esquer, op cit, p : 67.

[3] M.Walsin . Esterhazy, De la domination turque dans l’ancienne régence d’Alger , librairie de Charles Gosseline , Paris , 1840 , p : 129.

الفصل الرابع
التاريخ الثقافي
لمدينة مازونة

المبحث الأول : وضع العلوم والتعليم .

المبحث الثاني : المؤسسات العلمية .

المبحث الثالث : أعلام المدينة .

وضع العلوم والتعليم .

إن الوضع الثقافي لأي بلد ، يأخذ صبغته وشكله من خلال الوضع الاجتماعي والسياسي العام ، والجزائر كغيرها من الدول العربية الإسلامية ؛ تأخذ مشروعها الثقافي من الأسس الثقافية للحضارة الإسلامية السائدة آنذاك ، ومن الطبيعي أنه في حالة ما إذا وقع ضعف أو خلل من السلطات المركزية ، في تبني هذه المشاريع لأيّ سبب من الأسباب ؛ فإن الجماعات المحلية هي التي تتبنّى قضاياها الثقافية بنفسها منهجيا وماديا .

ولما كان النّظام العثماني متّجها إلى جهاد البحر ، لصدّ الهجمات المسيحية المستمرة على سواحل المغرب الإسلامي ، ثم إلى النظامين الإداري والمالي ؛ فإنه أهمل قضايا الثقافة لفترات طويلة ، فتسبب ذلك في تقلص المعارف ونزول مستواها، لأنّ من عيوب الثقافات التي تتبناها الشعوب ، في فترة غفلة الدولة عن المجال الثقافي ، هو اللجوء إلى التقليد والجمود والابتعاد عن الاجتهاد وكل ما له علاقة بالعلوم العقلية ، وتخزين المعارف الموروثة دون اكتراث بالبحث والنقد والتحليل [1] .

وها هو الورتلاني في رحلته ، يتحدث عن العلوم التي كانت تدرس في الجزائر، والتي لم تكن تتعدى الفقه وعلم الكلام ، أما غيرهما فليس له أهمية ؛ فيقول : " ... غير أن أهل وطننا لا يشتغلون بالإعراب أتم اشتغال ، وإنما دأبهم بالفقه وأصول

[1] عبد المجيد مزيان ، الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل عهد الاستعمار ، مجلة الثقافة ، عدد : 90 ، نوفمبر/ ديسمبر 1985م ، ص : 36 .

الكلام ، وإنما مسائل الإعراب والمنطق والتصريف والبيان والأصول فعلى طرف اللثام " [1] .

غير أن بعض الباحثين والملاحظين الغربيين ، وخاصة السياسيين الذين زاروا الأيالة آنذاك ؛ يتعرّضون إلى الجوانب الثقافية الضعيفة ، مثل العلوم الطبية والرياضيات والفلك وغيرها ، فيلاحظون انعدامها أو ضعفها ، ويسارعون إلى مقارنتها بنظيرتها الغربية ، ثم يخلصون إلى نتيجة مفادها : أن المجتمع الجزائري يرفض كل ما هو علم مستحدث وينظر إليه على أنّه من التفاهات التي يختص بها الأوربيون [2] .

وإذا علمنا أن مدينة مازونة كانت رأس حربة في العملية الجهادية الساعية إلى تحرير وهران والمرسى الكبير آخر المعاقل الإسبانية في الجزائر مما جعلها ثغر حربي أكثر منها عاصمة إقليم قد تزدهر فيها الحياة الثقافية فما مدى صدق هذه الملاحظات التي أوردها هؤلاء الغربيون ؟ وما هي الأوضاع الحقيقية للثقافة والعلوم في مازونة وفي الجزائر عامة ؟

[1] الورثلاني ، مصدر سابق ، ص : 549 .

[2] Shaw , op cit , p : 77

وضع العلوم :

إن الحديث عن الوضع العلمي في الجزائر ، أثناء وقبيل التواجد العثماني ، يقودنا إلى التركيز على أهم الحواضر ومراكز الإشعاع العلمي والحضاري ، وهي مدينة تلمسان ومدينة مازونة في الغرب الجزائري ، ومدينة بجاية ، ومدينة قسنطينة في الشرق .

لقد كانت هذه المراكز مقارنة مع الوضع العام للبلاد ؛ تعد أهم مراكز توارث العلم ، وازدهرت بها المعرفة ،كما اشتهرت بها أسر علمية .

وكذلك الشأن بالنسبة لمدن أخرى مثل الجزائر ، بسكرة ، وهران ، لكن هذه كانت أقل مستوى من سابقاتها .

أما الريف الجزائري ؛ فكان يرسف في أغلال الجهل ، وكان حظه من العلم قليلا جدا ، وحتى أبناؤه من الطلبة الذين يسافرون إلى هذه الحواضر طلبا للعلم ، فإنهم سرعان ما يستقرّون بها ولا يعودون إلى قراهم بعد اكتمال تعلمهم ، ما جعل الرحالة حسن الوزان يصف هذه الأرياف حين المرور بها قائلا : " لا يوجد بين السكان من يملك قليلا أو كثيرا من العلم ، لدرجة أن أي أجنبي يمر ببلدتهم ، ويكون على جانب من العلم ، يتشبثون ببقائه لديهم ، ويحيطونه بمظاهر الاحترام والإجلال ، يلجؤون إليه لتسوية نزاعاتهم ، ويتّخذون منه مستشارا يطلبون إليه الرأي لحل خلافاتهم " [1] .

[1] Jean Leon L'Africain , Discription de l'Afrique , trd par A.Epaulard , librairie d'amerique et d'orient , Paris , 1981 , pp : 348 – 349 .

لكن هذا الوضع لم يبق على ما هو عليه ، فقد ظهرت بدخول العثمانيين إلى الجزائر حركة جديدة ، تعدت مراكز الاشعاع سابقة الذكر ، وانطلقت إلى الريف بجباله وسهوله ، وكذا الصحاري ، وانتشرت الزوايا العلمية ، كما تحوّلت الزوايا الدينية القديمة إلى احتضان التعليم ، بعدما كانت تقتصر على الإطعام وإيواء عابري السبيل .

وقد ساهم في هذه النقلة النوعية ؛ نزوح علماء الأندلس إلى الجزائر ، فارّين من بطش الكنيسة في بلادهم ، يرافقهم اعتقادهم بأن ما أصابهم بالأندلس ؛ مرده إلى الابتعاد عن الدين ، فأرادوا تدارك ما فاتهم ، فأخذ بعضهم يجوب البلاد لاستنهاض الهمم والحث على الجهاد ، والعودة إلى الدين وعلومه [1] .

غير أن اهتمام السلطة الحاكمة بعد ذلك بهذا الجانب انعدم ، وخاصة بمجيء الدايات ، مما جعل عملية التعليم تصعب على طالبيها والمتكفلين بها ، وهو ما يلاحظه الورثلاني في رحلته ، فبعدما يذكر المدارس الحكومية في تونس ، ويثني عليها حتى نوى الإقامة بها وذلك : "... رغبة في نشر العلم وبثه ، لكثرة الآخذين فيها ، مع عدم الكلفة للطلبة الآخذين ، بخلاف وطننا ؛ فإنه لابد من كلفة الطلبة والإقامة بمؤنتهم ، وإلا انقطع مادة العلم " [2] .

وتسبب ذلك في هجرة الكثير من الطلبة والعلماء الجزائريين ، إلى تونس ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية ، طلبا للعلم ، ويذكر الورثلاني في رحلته عددا

---

[1] العيد مسعود ، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني ، مجلة سيرتا ، ماي ، 1980 م ، ص : 60 .

[2] الورثلاني ، مصدر سابق ، ص : 678 .

من العلماء المهاجرين من الجزائر إلى تونس ومصر ، والذين التقى بهم خلال هذه الرحلة [1] ، ومنهم أحمد بن عمار مفتي الجزائر [2] ، وأحمد بن حمود ، والصالح القصاري، وأحمد الصديق الجزائري ، والشيخ عبد الله بن رحاب من أولاد دراج ، وهو صهر الرحالة ، وعبد العزيز عم الورثلاني ، وقاضي مدينة المدية الشيخ ابن نوة وغيرهم [3].

والجدير بالذكر ؛ أن العلوم المتداولة في الجزائر آنذاك ، سواء انتشرت أم قلّت، لم تكن تتعدّى – كما سبق الذكر – النقلية منها ، أي الدينية أو الشرعية مع بعض ما تدعوا الحاجة إلى إضافته إليها ، كعلوم اللغة كونها أداة ، وبعض المنطق للاستدلال في علوم العقيدة ومقارعة الخصوم ، أما العلوم العقلية فتكاد تنعدم .

والعلوم الشرعية التي كانت تدرس هي القرآن وما يلازمه ؛ من علوم كالتفسير والقراءات وغيرها ، وعلوم الحديث ، وفقه العبادات والمعاملات .

ولإن كان الإنتاج العلمي في الشرعيات غزيرا ؛ فإن جانب الإبداع والجدة فيه كان معدوما ، بل إن كل محاولة للخروج عن طوق التقليد وتقديس الموروث ؛

---

[1] مختار بن الطاهر فيلالي ، مرجع سابق ، ص : 169 .

[2] أحمد بن عمار بن عبد الرحمن بن عمار الجزائري : فاضل ، له اشتغال بالحديث والتاريخ . من أهل الجزائر. رحل إلى الحجاز سنة 1172هـ ، وجاور بمكة . من كتبه (نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب) و(لواء النصر في علماء العصر) على نهج قلائد العقيان . توفي نحو سنة : 1205 هـ / 1790 م .

ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 1 ، ص : 185 .

[3] الورثلاني ، مصدر سابق ، ص : 286 .

كان يعتبر مغامرة كثيرا ما حملت أصحابها إلى الموت المؤكد ، وكثيرا ما استعملت هذه القضية لأغراض سياسية ، أو للتخلص من الخصوم .

فقد ذكر الورثلاني الصراع الشديد الذي قام بين الشيخ عبد القادر الراشدي[1]وعلماء قسنطينة ؛ فقال : " وقد وقعت بينه وبين طلبة قسنطينة مخاصمة عظيمة ومنازعة كبيرة ، حتى رموه بالتجسيم [2] ، بل بعضهم كفّره ، ومن الإسلام أخرجه ، وذلك أمر عظيم في الدين ... وإنما هو تحامل عليه ، سببه الحسد والبغض والتنافس ، أو إنما رموه بذلك لما علموا منه من كونه طويل اللسان عليهم بالعلم ، بل وقد نسبوا له كثرة الرشوة وغير ذلك مما لا يناسبه ... إلى أن أرادوا الفتك به عند السلطان ، فسلم – والحمد لله – ونجا من شرّهم ، غير أنهم أخرجوه عن الموضع المعدّ له من القضاء ، وصيّروه لأنفسهم ..." [3] .

ولم تختلف مازونة عن غيرها من المدن الجزائرية ؛ فكثيرا ما شبّ الصراع بين علمائها وأئمّتها ، وتنافسوا على مواقع التدريس والإفتاء ، بل وصل الأمر بينهم

[1] هو عبد القادر الراشدي : قاضي قسنطينة ومفتيها ، من فقهاء المغرب ، كان يميل إلى الاجتهاد ، له " حاشية على شرح السيد للمواقف العضدية " وكتاب في " عائلات قسنطينة وقبائلها وعربها وبربرها " ورسالة في " تحريم الدخان " وغير ذلك .

ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 4 ، ص : 38 .

[2] المجسمة فرقة من الفرق الاسلامية ، من رؤوسها "هشام بن الحكم " القائل : " إن الله جسم محدود ، عريض ، عميق ، طويل طوله مثل عرضه ، وعرضه مثل عمقه..." .

ينظر : أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1990،ج : 1 ، ص :281 .

[3] الورثلاني ، مصدر سابق ، ص ص : 697 _698 .

إلى أن يمنعوا بعضهم منابر التدريس حتّى تتدخل سلطة البايليك للفصل بين خصوماتهم ، فهذا الخليفة عثمان يحدّد مواقيت التدريس في جامع السيّد عبد الحقّ، لكل واحد من المتخاصمين ، كما تبيّنه الرسالة التي بعث بها إلى القايد بن عبد الله بن خدومة لفضّ النزاع .

وقد جاء فيها ما يلي : " الحمد لله ... متصرف القايد بن عبد الله بن خدومة سلام عليكم وبعد : فإنّه بلغنا ، وأنّ أهل الجوامع يمنعون الطلبة من القراءة في المساجد ، والمساجد أصلها لله يقرؤون فيها كل أحد ، فنبّه عليهم أن لا يمنع أحد الطلبة من القراءة في المساجد . وأولاد السيد المهدي يقرؤون في مواضعهم . هذا ما منا يرى إليكم . وكتب بأمر المعظّم السيد : عثمان الخليفة ، أمّنه الله . آمين " [1] .

وقد كتب على الهامش باتجاه الأسفل ما نصه : " الحاصل المفتي يقرا في موضعه وقت الصباح في جامع السيد عبد الحق ، والسيد محمد الصغير أخيه يقرا وقته في وقته امتاع العصر ، كذا عمّه السيد محيي الدين يقرا فيه " [2] .

وظاهرة التقليد هذه ؛ جعلت الإنتاج العلمي يختلف من علم لآخر ، فالعلوم التي تعتمد على الحفظ ، كان إنتاجها غزيرا .

أمّا العلوم التي تحتاج إلى سعة أفق ، واطلاع ثقافي واسع ، واستقلال عقلي كبير مثل التفسير ؛ فقد ندر فيها الإنتاج ، ومع ذلك فقد اشتهر مجموعة من

---

[1] ينظر الملحق رقم : 24 ، ص : 285 .

[2] نفس المصدر ، ص : 285 .

العلماء في ذلك العصر بالتفسير ، مثل عبد القادر الراشدي القسنطيني ، ومحمد الزجاي وشيخه ابن لؤلؤ .

ويذكر ابن ميمون أن القاضي أبو علي حسين ، وكان من قضاة الداي محمد بكداش، قد نبغ في التفسير ؛ فيقول : " ... قيوم البيان ، ورئيس علوم اللسان ، وعلاّمة تفسير القرآن ..." [1].

بيد أن هؤلاء العلماء وغيرهم ، لم تكن إنجازاتهم في التفسير غير مجموعة من الشروح لتفاسير سابقيهم ، أو زيادة في تبسيطها ، وأغلبهم اشتهر بتدريس التفسير، وليس بالتأليف فيه ، فلا نكاد نعثر على واحد من تآليفهم ، فقد ذكر ابن ميمون الفقيهَ مصطفى ابن عبد الله البوني ، وقال بأنه كان يدرس في حلقته عبد الرحمن الثعالبي [2] .

وحتى الذين اشتهروا بالتأليف كأبي راس الناصري ؛ فإن تآليفهم لم تتعدّ كونها نقولات عن شيوخ سبقوهم ، إما مشافهة أو من تقاييدهم ، فقد وصف الناصري كتابه بأنه ينقسم إلى ثلاثة أسفار ، في كل سفر عشرون حزبا .

أما عن مضمونه فيقول : " ... طالما تكلمت فيه نقلا من كتاب شيخ أو فيه مع الزمخشري والبيضاوي ، وابن عطية وغيرهم ، فيا لها من عطية ، وتقييد على الخراز والدرر اللوامع والطراز..." [3] .

---

[1] ابن ميمون ، مصدر سابق ، ص : 146 .

[2] نفس المصدر ، ص : 235 .

[3] أبو راس الناصري ، مصدر سابق ، ص : 179.

و يذكر أبو القاسم سعد الله مجموعة أخرى من العلماء ، الذين اهتموا بعلم التفسير إما تدريسا أو تأليفا ؛ إلا أنه يؤيد الرأي الذي سبق الحديث عنه ، من أن أغلبهم لم يبدعوا وأن تآليفهم اتسمت بالبساطة ، وغلبت عليها العامية مجاراة لطبيعة المجتمع [1].

وفي مازونة التي اشتهرت مدرستها برسوخ القدم في الفقه ؛ لا نكاد نجد من بين أعلامها من اختصّ بمثل هذه الفنون العلمية ؛ وإنّما اقتصر الاهتمام فيها على الفقه وما قرب منه من العلوم كالحديث والمنطق واللغة ، بخلاف التفسير وما شاكله من العلوم التي تحتاج إلى تحليل وإبداع .

أما الحديث وعلومه ، فقد كان أحسن حالا ؛ ذلك أن المازونيين كغيرهم من الجزائريين اشتهروا بقوة الحفظ ، وقد سبق الحديث عن اعتنائهم برواية البخاري ، واقتران روايتها بأغلب الاحتفالات الدينية ، وكذا حين تتعرض البلاد لهجمات الأعداء .

وقد لمع في سماء الجزائر عدد من العلماء الذين يحفظون الصحاح عن ظهر قلب ، مع حفظ المتون الطوال في علم مصطلح الحديث ، حتى أصبح الحفظ هو الفاصل بين العلماء وميزان السبق بينهم ، وأساس الاحترام والتقدير ، وأصبح طلب الإجازة من الحفاظ والسفر في طلبها ديدن الطلاب في ذلك العهد .

---

[1] أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر ، مرجع سابق ،ج : 2 ، ص ص : 20 _ 21 .

وضع التعليم :

يتفق أغلب الدارسين لفترة الوجود العثماني في شقّها الثقافي على اعتبار طريقة التقليد ، أي ترديد أقوال المتقدمين وحفظها حفظا سطحيا ؛ هي الطريقة الشائعة في العملية التعليمية .

وعلى هذا الأساس فإن مدرسة مازونة اعتمدت كغيرها من المؤسسات التعليمية في هذه الحقبة نفس الطريقة في وظيفتها التدريسية ، فاعتماد طريقة الحفظ والاستظهار يرجع إلى كونها تمثل المصداقية والبرهان في النقل عن الأصول ، والمستوى الفكري الراقي لاعتماده على الذاكرة [1] .

وبناء على ذلك فإنّ كل من جلس من المشايخ للتدريس ؛ عليه أن يصوغ لطلبته كراسة أو أكثر ، تكون إما شرحا ، أو حاشية على علم من العلوم التي يتقنها .

أما عن شكل هذا التلقين فيتم بجلوس الشيخ في صدر المسجد على كرسي مرتفع ، حتى يرى جميع الطلبة ويرونه ، مرتديا لباس المشايخ الذي يميزهم عن الآخرين [2] .

هذا الحرص على النقول الدقيقة من الأصول جعل العلماء يحرصون على طلب الإجازة من بعضهم البعض ، خاصة من الذين ثبت تلقيهم العلم بالسند العالي إلى مظانّه .

---

[1] بوكفة يوسف ، مرجع سابق ، ص : 67

[2] نفس المرجع ، ص : 68

وقد تحدث ابن حمادوش عن هذه الإجازات كثيرا ، وسجّل معظمها في رحلته، لأنها كانت دليلا على قدر العالم ومبلغه من العلم ، أو شهادتهم العلمية في ذلك الزمان ، وكانت الإجازات في علوم الحديث يتصل فيها سند العلماء إلى أصحاب الصِّحاح ، ومنهم إلى النبي – عليه الصلاة والسلام – دلالة على صحة مروياتهم .

ويعدّد ابن حمادوش – في رحلته – شيوخ الورززي ، واتصال السند بين الورززي والنبي – عليه الصلاة والسلام – ، ليوضح قيمة الإجازة التي حصل عليها منه ، ثم يعرض هذه الإجازة ، التي جاء فيها : " ... فأسمعته بعض موطأ مالك بن أنس – رضي الله عنه – من رواية يحي بن يحي الليثي ، وأجزته سائره ، وأسمعته بعض صحيح مسلم بن الحجاج القشيري، وأجزته سائره ، ورغّبني — أيضا – أن أجيزه في كل ما صحّت لي روايته من مسموع ومجاز فأسعفته ، فأجزته أن يروي عنّي الكتب الستة ... وموطأ مالك ، ومسند أحمد بن حنبل ، وهذه سمعتها كلها من شيوخنا – رحمنا الله وإياهم – ..." [1] .

وذاع صيت علماء مازونة في هذا المجال ، إلى القدر الذي دفع بعض علماء فاس لطلب الإجازة منهم ، فهذا ابن رحمون الفاسي [2] ، يكاتب شمس الدين أبو

[1] ابن حمادوش ، مصدر سابق ، ص :37 .

[2] محمد التِّهَامي بن المكيّ بن عبد السلام ابن رحمون : من رجال الحديث . مولده ووفاته بفاس . من مؤلفاته (الدر والعقيان) في كتب الحديث ورجاله وما اتفق له من أسانيده . توفي سنة : 1263 هـ - 1847 م.

ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 6 ، ص : 64 .

عبد الله محمد بن المهدي المازوني لطلب الإجازة منه ، على كثرة العلماء في مدينة فاس ، مما يدل على شهرة مازونة ورسوخ قدم علمائها في هذا الفن من العلوم .

والرسالة تفيدنا بجملة من الفوائد العلمية ؛ أقلها السند العالي في الحديث الذي تميّز به علماء مازونة ، وشهرتهم الواسعة التي كانت سببا في أن يكون للمدينة قدر من الروابط الثقافية مع عواصم الفكر والعلوم في البلاد الإسلامية [1] .

والجدير بالذكر ، أن العلوم الحربية وحدها من بين العلوم العقلية ؛ حضيت بالاهتمام لعلاقتها بالجهاد ، ميدان العثمانيين المفضل ، ومنها ما كتبه الرايس ابراهيم بن زكريا الاندلسي حول المدافع وفنون صنعها واستخدامها [2] .

---

[1] ينظر نص الرسالة كاملا في الملحق رقم : 22 ، ص : 283 .

[2] ابراهيم بن زكريا الأندلسي ، كتاب العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالعاصمة تحت رقم : 1511 و 1512 .

المؤسسات التعليمية :

لقد رأينا في بداية المبحث وضعية العلوم في البدو والحضر ، وما هي الظروف التي دخلت في هذا التوزيع .

لكن أمورا تدخلت وغيّرت هذه الوضعية ، فحدث توازن نوعي بين الريف والمدينة ، ورأينا كذلك نوعية العلوم المدروسة .

ولا بد أن يتوفّر الفضاء الذي يستوعب هذا النشاط التعليمي ، ويحتضن الساعين إليه ، ويسهّل على طلبة العلم الوصول إلى مبتغياتهم ، خاصة بعد عزوف الهيئات الرسمية ممثلة في السلطة العثمانية ، التي أخذ العامل العسكري جلّ اهتمامها وجهدها عن أداء دورها في رعاية العملية التعليمية وتأطيرها .

فما هي مراكز التدريس في مدينة مازونة ؟

أولا : مدرسة مازونة الفقهية .

عرّف " أبو راس الناصري " المدرسة بقوله : " المدرسة المتعارف عليها عندنا الآن هي التي تبنى لدراسة العلم ، أي لتعليمه وتعلّمه " [1] .

وقد اشتهرت مدينة مازونة التاريخية العريقة ، منذ أقدم العصور التاريخية ، بمدرستها الدينية المختصة في العلوم والمعارف والدراسات الفقهية المختلفة ، كالفقه وأصوله والفرائض ، وعلم التوحيد وعلم الحديث ، وعلم اللغة العربية ، من نحو وصرف وعلم البلاغة ، وغيرها من العلوم .

وقد عرفت بكثرة مجالسها ، ونجابة طلاّبها ، وقريحة شيوخها وعلمائها الأجلاء ، حيث تشير المصادر والوثائق التاريخية [2] التي أرّخت لهذه المدينة ؛ أن تاريخ تأسيس مدرسة مازونة الفقهية كان في سنة 1029هـ ، على يد الشيخ العلامة الفقيه : امحمد بن الشارف البولدوي .

---

[1] أبو راس الناصري ، عجائب الأسفار ، مخطوط غير مرقم بمخبر مخطوطات شمال إفريقيا بجامعة وهران ، ورقة : 79.

[2] هناك رسالة بتاريخ 9 فيفري 1910م ، إلى الحاكم المتصرف بأرنو (س.م بن علي حاليا) جاء فيها فيها : " فإن ذلك بالجد الأول الذي شرع في التدريس الشيخ السيد أمحمد أوله المعروف بابن الشارف بن أحمد بن علي بن عبد العزيز (م.خ.م) .... وضريحه موجود بالغرفة رقم : 3 .

ينظر: بوكفة يوسف ، مدرسة مازونة الفقهية النهضة والسقوط ، رسالة ماجستير ، كلية العلوم الاجتماعية ، قسم علم الاجتماع ، جامعة ووهران ، السنة الجامعية : (2002 - 2003 م) ، ص : 29 .

وقد أسّسها وأقامها من ماله الخاص ، ودرّس بها حوالي 64 سنة ، إلى أن توفته المنية سنة 1164هـ ، وقبره معروف وموجود بها ، عليه قبة تسمى باسمه : " قبة ابن الشارف " [(1)].

وهذه المدرسة متكونة من مسجد جامع للصلاة المفروضة ، ومكتبة كبيرة فيها مختلف المصادر الفقيهة والأدبية ... إضافة إلى بعض المرافق التابعة له ، والتي كانت تستعمل لإيواء الطلبة.

وحسب الرواية الشفهية ، فقد اشتهرت مدينة مازونة ، بوجود مدرسة فقهية أخرى ، أخذت على عاتقها تعليم كل من يريد من أفراد المجتمع ، العلوم الدينية ، وقد تأسّست هذه المدرسة ، على أيام ولاء مازونة للدولة الزيانية ، وكان اسمها "المدرسة الزناتية التلمسانية اليوسفية " ، وقد شيدت بحي "تنصارت" "تيسارت"[2].

ومن مشايخها نذكر : محمد بن ادريس المازوني ، سعيد بن ابراهيم بن عمار المازوني كما عرفت هذه الفترة أيضا ، بروز عدة علماء و فقهاء ، ذاعت شهرتهم إلى كل أقطار المجتمع الكلي ، ونذكر منهم أبو عمران موسى بن عيسى بن يحي المغيلي المازوني الذي نشأ في مازونة وبها تعلم ، قال فيه الحفناوي : " تمكن من السّنة ، حتى لم يدع للبدعة مدخلا إلا سدّه ، ولا لأهلها مقتلا إلاّ قدّه " [3] .

---

[1] بوكفة يوسف ، مدرسة مازونة الفقهية النهضة والسقوط ، ص : 29 .

[2] بوكفة يوسف ، مرجع سابق ، ص : 78

[3] أبو القاسم الحفناوي ، مرجع سابق ، ج : 2 ، ص : 448 .

أما العلامة الثاني فهو " أبو زكريا يحي بن أبي عمران بن أبي عمران المغيلي المازوني " المتوفي عام 1478م . وسيأتي الحديث عنهما بالتفصيل حين ذكر أعلام المدينة .

ثانيا : الكتاتيب .

الكُتّاب بضم الكاف وتشديد التاء ، هو موضع تعليم الكتاب (أي: الكتابة)، والجمع الكتاتيب [1] . والكتّاب هو المرحلة التعليمية الأولى التي يمر بها الطفل ، أو كما يسمى اليوم المدرسة الابتدائية .

وهو مؤسسة من المؤسسات التربوية التعليمية التقليدية ، و يطلق عليه محليا ، اسم " جامع تحفيظ القرآن " ، أي " الجامع" ، وكان يطلق عليه ، ولاسيما في العاصمة اسم " مسيد " ، وهو بدون شك محرف من تصغير كلمة " مسجد".

ويوجد الكتّاب على أشكال متعددة ، فهو أحيانا ملحق بالمسجد ، أو منفصل عنه ، كما يوجد في أحيان أخرى في شكل وحدات منتشرة بين مختلف التجمعات السكانية في المدن والقرى .

[1] ينظر : إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، دار الدعوة ، القاهرة ، باب : الكاف ، ج : 2 ، ص : 775 . محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي ، معجم لغة الفقهاء ، دار النفائس ، ط : 2 ، 1408 هـ – 1988م ، حرف الكاف ، ص : 376 .

مقارنة بالمؤسسات التعليمية الأخرى ، يتميّز الكتّاب بالطابع التقليدي الذي يطبع جميع النشاطات والسلوكات ، خاصة منها التي تتعلق بالعملية التعليمية كاستراتيجية تربوية تلقينية ، وهذا ما يؤثر على المستويات الأخرى ، فمثلا من الناحية الاقتصادية ، لا يتطلب الكتاب في وجوده كحيز تعليمي ، توفر امكانيات مادية كبيرة [1] .

والكتاب نوعان : بدوي وحضري . فأما البدوي فيسمى الشريعة [2] ، أي مكان تدريس الشريعة ، وهو عبارة عن خيمة ممتازة ، وسط الحي البدوي تخصص للتعليم . وأما الحضري فيسمى " مسيد " أو مكتب .

ويلتحق الأطفال بالكُتّاب عندما يبلغون سنّ السادسة ، حيث يتعلّمون الكتابة والقراءة ، وتُركّز برامج التدريس على تعليم مبادئ اللغة العربية ، واستظهار كتاب الله ، وتعليم بعض مبادئ الحساب ، والتدريب على الزخرفة والخط [3] .

كان كل كُتّاب عبارة عن خيمة تحوي ما بين 15 إلى 20 صبيا ، وكان كل حي في المدينة يتولى تعيين معلم ، يشترط فيه أن يكون مثقفا ، وأن يكون رجلا خيّرا.

إذا نظرنا إلى المرونة النظامية للمؤسسات التعليمية ، فإننا نلاحظ طواعية هذه المؤسسات للحاجيات الاجتماعية ، فهي في غالب الأحيان مفتوحة الأبواب

[1] بوكفة يوسف ، مرجع سابق ، ص : 79 .

[2] ما زال سكان البوادي بالغرب الجزائري يستعملون هذه التسمية ، ونظرا لأن هذه الكتاتيب غالبا ما يدفن بالقرب منها شيوخ القبيلة ؛ تحول هذا المصطلح ليعني المقبرة .

[3] P Boyer , op cit , p : 201.

والحلقات للصغار والكبار ، والأساتذة أحرار في تعيين موادهم وتوقيتهم ومنح إجازاتهم ، ولكن هذا لا ينفي تحديد المستويات .

كما أنه لا يوجد تحديدات ضيقة تفصل بين طبقة المؤسسة نفسها ، فمسجد الحي والجامع والمدرسة (المسيد) ، لها صفاتها وميزاتها بالإضافة إلى صفاتها المشتركة والتكاملية فيما بينها ، ولكل منها وظيفتها الاجتماعية والتاريخية التي لا يمكن أن نغفل عن معرفتها.

ثالثا : الرباطات والزوايا .

لقد كان الدافع الديني ؛ هو سبب التواجد العثماني في الجزائر منذ البداية ، فالخطر الصليبي الذي كان يتهدد السواحل المغاربية ؛ هو المبرر الظاهري على الأقل للتدخل العثماني في المنطقة ، هذا من جانب العثمانيين ، أما بالنسبة لسكان المنطقة ؛ فإن هذا الدافع هو وحده الذي أرغمهم على طلب المعونة العثمانية [1] .

ولما كان أمر الدفاع عن السواحل الجزائرية موكولا بالدرجة الأولى إلى المرابطين، فقد نالوا الحظوة بدخول العثمانيين ، ونشأت بينهم وبين السلطة الجديدة علاقة ود متبادلة بين الطرفين ، نظرا لحاجة كل منهما للآخر ، فقد كان المرابطون في حاجة إلى سلطة قوية ، تدعمها قوة عسكرية قادرة على صدّ الخطر

[1] أحمد بحري ، الجزائر في عهد الدايات ، دار الكفاية ، الجزائر ، 2013 م ، ص : 287 .

الصليبي المحدق بالمغرب الإسلامي قاطبة ، واسترجاع ما ضاع من مدن ساحلية لصالح إسبانيا والبرتغال .

وفي الوقت نفسه ؛ كان العثمانيون في حاجة إلى قوة محلية تدعم وجودهم ، وتزكي بقاءهم ، وتبرر بعض أخطائهم ، ولم يكن أحسن من القوة الروحية التي يمثلها المرابطون.

"وشاع في الجزائر التحالف بين العثمانيين والمرابطين ، حتى عرف الناس أن هناك سياسة عامة متبعة ، فكثرت الأضرحة والقباب ، ودخلت الطرق الصوفية من المشرق ومن المغرب ، وجاء الدعاة الحقيقيون والأدعياء المزيفون ينشرون أفكارهم وأورادهم بين الناس ، وأصبحنا لا نكاد نجد قرية أو مدينة تخلو من الزوايا والأضرحة والمشاهد ، وعند كل بناية أناس يتبرّكون ؛ يدعون ويزورون ويتقربون ، يقيمون الحضرة ويقدّمون الهدايا ، ويذبحون الذبائح ، آتين من كل فج ...

وأصبح الحكّام يظهرون كل الاحترام والتبجيل لأهل التصوف الحقيقي والكاذب معا ، أما العامة ؛ فلا تسأل عن أحوالها وعقائدها ومستواها الخلقي والاجتماعي " [1].

ويذكر عبد الرحمان الجيلالي أن الترك لما أصبحوا " ... سادة البلاد الجزائرية ، اضطروا إلى اتخاذ سياسة صوفية ، ومثلهم في ذلك دولة الأشراف في القسم الغربي من الشمال الإفريقي ، فإذا كانت المناطق الغربية في الشمال الإفريقي تحتوي

---

[1] أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981 ، ج :1، ص : 472.

خصوصا على زوايا شاذلية ؛ فإنه في القسم الذي كان يسيطر عليه الأتراك ؛ كانت السيادة فيه للزوايا القادرية ، واعتمد الترك على جماعات هذه الطريقة القادرية ، وكذلك سائر زعماء الطرق بصفة عامة ، والصوفية المحليين بصفة خاصة، فأحاطوهم ... بالدعاية ومظاهر الاحترام ، ورفعوا من شأنهم في نظر العامة ، ولم يقصّروا في جزاء خدماتهم بسخاء ، ولا في عقاب مظاهر المعاداة لهم بقسوة إلا ما ظهر منهم أيام ثورة درقاوة " [1] .

وبلغت عناية الأتراك بهؤلاء المرابطين لدرجة تقديسهم ، وتحبيس الأوقاف عليهم ، ورفع الضرائب والمطالب المخزنية عنهم وعن عائلاتهم ، بل وإن 'بوابي' الذي يذكر بعض الرعاية التي يوليها الأتراك للمرابطين ، والمكانة التي أصبحت لهم في الحياة العامة ، يقول أنه حتى أخطاؤهم تبرر تبريرا يحفظ لهم مكانتهم ، كما حدث مع المرابط الذي اعتدى على بنت قنصل إحدى الدول الأوربية الشمالية ، ولم يتجرأ أحد على منعه ، كما أن الداي الذي تقدم أبوها بشكوى إليه لم يكن رده عليه سوى أن ما قام به المرابط وهو شرف له ولابنته [2] .

وسواء أصحّت هذه الرواية أم لا ؛ فإنها دلالة على المكانة التي كان يحتلها المرابطون في نفوس العامة وكذا لدى السلطة .

ولما كان هذا وضع المرابطين ؛ فإن كثيرا من الأدعياء دخلوا هذا المجال ، فادعوا الولاية، وكثرت بدخولهم هذا الميدان الشعوذة والخرافات ، وادّعاء الكرامات

[1] عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق، ج :3 ، ص : 255.

[2] P Boyer, op cit , p: 80 .

والخوارق ، حتى بلغ الوضع إلى درجة من الانحطاط الفكري والخلقي ، وتجاوز لحدود الشرع ، ما دفع ببعض العلماء إلى مواجهة هذا التيار في مؤلفاتهم ؛ كما هو الحال مع عبد الكريم بن الفكون في " منشور الهداية " [1] ، والورتلاني في رحلته.

ولقد علّق " الورتلاني " على ما لحق بالطرق الصوفية من انحرافات وتجاوزات أخلاقية ، إلى حدّ جعله يصفهم باتّباع خطوات الشيطان والابتداع في الدين ، خاصة ما أحدثوه من أمر الغناء والرقص ، للتعبد في الحضرات التي يقيمها الشيوخ لمريديهم ، وما يرافقها من جدب وفقدان للعقل فيقول : " وقد عمّت البلوى – والعياذ بالله – بانكباب أبناء الطوائف على السماع بالدفوف والمزامير وسائر الآلات والأشعار والألحان ، واتّخذوا ذلك صراطا مستقيما ، واتبعوا فيه شيطانا رجيما ، ونبذوا السنة وراء ظهورهم ، وزالت هيئة الشريعة من صدورهم ، وكان لهم ذلك ديدنا في سائر الأزمان ، فصاروا مسخرة للشياطين..." [2] .

ويذكر بعض الشيوخ الذين اشتهروا باتباع السنة وآثار الصلاح ، غير أنه يذم اتباعهم لسماع الموسيقى واتخاذ ذلك عبادة ، وإن كان لا يقدح في هؤلاء الشيوخ

[1] ذكر ابن الفكون في كتابه هذا – وخاصة في الفصل الثالث منه – أن كثيرا ممن تشهد لهم العامة بالصلاح والكرامات، بل ويقدّسهم حتى بعض الخاصة ، إنما هم دخلاء على هذا الفن فلا صلة لهم بالتصوف ولا بالزعامة الدينية ، ويقدح حتى في علمهم وصلاحهم ، ويعتبر تأليفه بدعا من التآليف في زمانه .

أنظر تفصيل ذلك في الدراسة التي أجراها له المهدي البوعبدلي : " عبد الكريم بن الفقون القسنطيني (988 –1073)، والتعريف بتأليفه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية " ، الأصالة ، عدد 51 ، ذو القعدة 1397هـ / نوفمبر 1977م ، ص ص : 14-32 .

[2] الورتلاني ، مصدر سابق ، ص ص : 187-188.

مباشرة ، إلا أنه يشدّد النكير على من يقتدي بهم من المنتسبين إلى الطرق ، وينصحهم باتباع السنة واجتناب مواقع الظِّنّة ، لأنه كغيره من علماء العصر يعتبرون أن من درج في التصوف ، وأصبح من أهل الكشف – كما يسمّونهم – يسوغ له ما لا يؤذن لغيره .

يذكر هذا الشيخ حادثة وقعت لواحد من هؤلاء ، وهو الشيخ سيدي محمد بن سالم الزليتني فيقول : " حجّ مع شيخنا الوالد – رضي الله عنه وأرضاه – بعض أهل زوايته ، وكان يسمع بالدف على عادتهم ، فبعث إليه الشيخ فقال له : إن أردت مرافقتنا فاترك هذا السماع ، وإلا فاعتزلنا ، فاعتذر بأن ذلك من عادات أسلافه ، فلم يقبل منه الشيخ ذلك ، ولم يزل به حتى ترك السماع "[1] .

وقول الورتلاني هذا ؛ لا ينبغي أن يفهم منه أنه معاد للصوفية أو للمرابطين جميعهم ، وإنما هدفه النكير على المغالين في الضلال ، بما عاكس الصواب وخالف الشريعة بشكل فاحش ، فقد أورد في رحلته الفصول الطوال عن زيارته لأضرحة بعض الأولياء والصالحين وذكر كراماتهم وأفضالهم .

إن الرباط في الأصل من بيوتات الاعتكاف والعبادة وتعليم الشريعة ، والشيوخ والطلبة فيه منقطعون – لمدة يختارونها حسب طاقاتهم – للتعمق في معارفهم الدينية ، ولممارسة تدريباتهم الروحية .

[1] الورتلاني ، مصدر سابق ، ص :187.

وقد عرفت الحركات المرابطية تطورا كبيرا وانتشارا شعبيا ، في المراحل التي تغيب فيها السلطات الحاكمة ، عن أداء دورها في حماية البلاد والدفاع عن الدين، وسرعان ما تحول هذا الانقطاع للتعبد والاستعداد لملاقاة العدو ؛ إلى انقطاع للتعلم، خاصة عندما استطاع العثمانيون صد العدو وطرده عن جل السواحل ، فلم يعد لهذه الحركات المرابطية مبرر وجود، فتحولت إلى مساندة هذه السلطات في محاربة العدو وإلى تعليم الطلبة أمور دينهم.

وقد انتشرت الزوايا في بداية العهد التركي في الريف ، بالإضافة إلى الزوايا التي كانت قائمة في المدن ، والتي استحدثت بها خلال هذا العهد ، لكن زوايا المدن لم تكن لها أهمية زوايا الريف ، فقد استطاعت – على حداثة إنشائها – أن تنافس زوايا عريقة ، كزاوية سيدي " عبد الرحمان الثعالبي" بالعاصمة ، وكذلك زوايا مماثلة في مدن : تلمسان ، وهران ، بجاية وقسنطينة [1] .

وقد سهلت الزوايا المرابطية وساعدت على انتشار التعليم ، لأن المباني كانت جاهزة ، فلم تتطلب حركة التعليم في الريف كبير وقت أو عناء لانطلاقها ، ولذلك ازدهرت حركة التعليم في الريف بسرعة فائقة ، مما جلب حتى طلاب المدن إلى الدراسة فيها .

وقد أورد كثير من العلماء في مؤلفاتهم ، ارتحالهم من مدنهم إلى الزوايا الشهيرة بالريف طلبا للعلم ، كما هو الأمر بالنسبة إلى الشيخ "سعيد قدورة " العالم المشهور ـــ وهو من أبناء الجزائر ـــ ، فقد تتلمذ في زاوية محمد بن علي أبهلول

[1] العيد مسعود ، مرجع سابق ، ص : 63 .

المجاجي في "مجاجة " ، وقد صرح هو بذلك قائلا : " سافرت لطلب العلم ، فقصدت زاوية الشيخ العارف بالله سيدي محمد بن علي وأخيه ابن علي أبهلول المجاجي _ نفعنا الله به آمين _ .

وكان الشيخ محمد بن على شديد الاعتناء بالتدريس ، والعلوم وفنونها كالتفسير ، والحديث ، والأصول والبيان والمنطق واللغة ، وعلم النجوم والطب وغيره ، وقد جمع علم الشريعة وعلم الحقيقة ، ولا نظير له في عصره ، وكان يشد له الرحال لقراءة الصحاح عليه من بلاد مصر وتونس وغيرها " [1] .

وكان من مزايا الزوايا ، حدوث توازن في التعليم بين المدينة والريف ، واتساع قاعدة التعليم ، ولكن من المهم جدا أن نذكر الفرق بين الرباط والزوايا ، وبين الأنظمة الطرقية ورباط الجهد .

فتعدد مهام كل مؤسسة بين العبادة والعلم كثيرا ما أدى إلى بعض الغموض في تحديد المهام والأهداف . فإذا كان الرباط غير خاضع لطريقة بعينها ، مع تفتحه في كثير من الأحوال على التعاليم الصوفية والمجاهدات الروحية ؛ فإن الزوايا تعدّ قبل كل شيء مؤسسات مبنية على نشر الدعوة الطرقية ، فهي صوفية قبل كل شيء ، ولكنها تجمع في تعليمها بين تحفيظ القرآن والفقه والعقيدة والتربية الروحية والتهيئة للجهاد [2].

[1] العيد مسعود ، مرجع سابق ، ص : 61.

[2] عبد المجيد مزيان ، مرجع سابق ، ص : 44.

ويجب الإشارة للطابع الشعبي لثقافة الزوايا ، مما جعلها تسد الفراغ الذي عانت منه البلاد من نقص في الاهتمام بالتعليم .

ويرى عبد المجيد مزيان : " أن إشعاع بعض المؤسسات القروية ؛ مرده إلى ظاهرة الانفجار الطرقي ، الذي بدا للوجود في مؤخرة القرن الخامس عشر آخذا شكله الشمولي الشعبي ، وقد اقتصر نشاط بعض الزوايا على تعليم العقيدة ، وتجنيد الشعب للجهاد .

ومن الجدير أن نذكر أن الدين الإسلامي ؛ جاء لإلحاق الأميين بالمتعلمين ، والبدو بالحضر، والشفهي بالكتابي ، ورسالته جاءت تحارب كتمان المعارف " [1] .

ومن أشهر زوايا تلك الحقبة : " زاوية الراشدية " ، والزاوية " القادرية " في غرب الجزائر ، وزاوية " قرومة " في بلاد القبائل الكبرى ، ثم زاوية "بن علي الشريف" في منطقة بجاية ، وزاوية "عين ماضي" ، وزاوية "طولقة " في الصحراء .

وقد تحدث الجغرافي "شاة" عن بعض الزوايا فقال : " إن زاوية جماعة الصهريج ببلاد القبائل ،يدرس بها خمس مائة من الطلاب ، وتتولى الإنفاق عليهم، كما أن زاوية " نقاوس" تنفق على مائتي طالب ".[2]

[1] عبد المجيد مزيان ، مرجع سابق ، ص : 38 .

[2] shaw, op cit , p : 142 .

المساجد :

قامت المساجد – إلى جانب وظيفتها الدينية بإقامة الصلاة ، وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد – بجمع حلقات الدروس العمومية المخصصة للجماهير بكل طبقاتها ، فالمسجد بحكم وظيفته الأساسية ، يتعامل مع شريحة أوسع ، ولذلك فإن تأثيره العلمي أوسع ، ورغم انتشار مؤسسات علمية مختلفة ؛ إلا أنها لم تستطع منافسة المسجد ، أو التقليل من أهميته ، بل أدت هذه المنافسة الشريفة ، إلى تطور دوره ونفع المتعلمين ، فعلى غرار ما كان واقعا في كثير من مدن العالم الإسلامي ، قام في الجزائر جوامع أدّت الدورين العبادي والتعليمي ، كالجامع الأعظم بالعاصمة، والجامع الأعظم بتلمسان ، وجامع بجاية وجامع قسنطينة [1] .

وقد اهتم العثمانيون في الجزائر _ كأفراد _ ببناء المساجد وتحبيس الأوقاف عليها ، ولم يهتموا بشيء آخر من حيث العمران كاهتمامهم بها ، وأمّنوا الموارد لصيانتها ، والإنفاق على إقامة الشعائر الدينية فيها .

وقد قدّر " هايدو" الإسباني عدد المساجد في مدينة الجزائر سنة 1581 م بمائة مسجد، بينما لم يكن عددها تجاوز اثنين قبل دخول الأتراك ، ويعني هذا أنهم شيّدوا هذا العدد الهائل من المساجد في خلال ثلثي قرن فقط ، وفي العاصمة وحدها بنى الأتراك أكثر من 23 مسجدا جامعا ، وما يقارب 109 مسجدا صغيرا، لعدد من السكان لا يتجاوز 30 ألف نسمة إلا بقليل .

---

[1] العيد مسعود ، مرجع سابق ، ص : 64.

وفي مازونة وحسب بعض المصادر الشفوية فإنّ أول مسجد بني هو مسجد "سيدي عيسى وعزوز ابن يحيى المغراوي " ، ويرجع تاريخ بنائه إلى القرن السابع الهجري وفيه بدئ تعلم القرآن الكريم كفريضة دينية واجب على أفراد المجتمع تعلّمها وتعليمها .

ولما كان للتعليم القرآني ضرورته الدينية الملحة بالنسبة لسكان مازونة ؛ ومع تزايد عدد سكان المدينة ، وحاجتهم إلى مراكز تعليمية جديدة بنى أهل المدينة مسجد " سيدي عبد الحق المطهري التلمساني المازوني " .

ويذكر بوكفة : أن " آل الكتروسي " احتكروا التدريس في هذا المسجد فترة زمنية طويلة ، كما قادوا الحياة العلمية للمدينة خلال نفس الفترة " ... ثم بعد ذلك ولنفس الظروف والأسباب ، شيّد مسجد سيدي صالح بناحية بوعلوفة ، وقد اشتهر هذا المسجد بتلقينه للعلوم الدينية ، واستمر في أداء وظيفته التعليمية إلى غاية الوجود العثماني " [1] .

شيّد بعد ذلك جامع "سيدي امحمد الغريب " الذي يعد من بين أبرز مراكز التعليم بالمدينة ، وتؤكد نازلة واردة في معيار الونشريسي وجود مدرسة ومسجد أوقف لخدمتهما وقف خاص جاء فيها : "... وعلى بيت حبس على مسجد من مساجد بلده ، واشتراها من أربابها ، على أن يبنيها مدرسة بإزاء مدرسة أخرى هنالك قديمة ..." [2] .

[1] بوكفة يوسف ، مرجع سابق ، ص : 89 .

[2] الونشريسي ، المعيار ، دار الخليل العلمية ، ط: 1 ، الجزائر ، 2012 م ، ج : 2 ، ص : 56 .

ويذكر أيضا في جزء أخر من الكتاب ، وقائع لمسألة ، وقع فيها اختلاف بين طلبة أحد مساجد مازونة ، ونص السؤال هو : " الحمد للّه ، ما يقول سيدنا الإمام ... في مسألة تطارد فهمها طلبة مازونة مع فقيه في مجلس تدريسه ..." [1] .

وقد تأسّست في الجزائر خلال العهد السابق على العثمانيين مدارس من هذا الطراز ، حظيت بشهرة كبيرة ، وقد أشار إلى بعضها الرحّالة المغربي " الحسن الوزان " ، فذكر أن بتلمسان خمسة مدارس حسنة التصميم ، مزدانة بزخارف الفسيفساء ، وقد شاهد في بجاية عددا من المدارس ، كما شاهد في قسنطينة مدرستين .

وفي قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري ، أسّس "صالح باي" سنة : 1779م مدرسة سيدي الأخضر الملاصقة للمسجد المسمى بهذا الاسم ، كما شيّد مدرسة سيدي الكتاني سنة : 1776م لتعليم مختلف الفنون ، وجعل لمدرسة سيدي الكتاني نظاما خاصا محكما ، وما تزال هذه المدرسة قائمة إلى وقتنا الحاضر .

كما شيّد مدارس أخرى في عنابة والقل وجيجل ، وكان يلحق بالمدرسة جامعا وكُتّابا ودارا للكتب [2] .

ومن أهم المدارس التي يجب ذكرها المدرسة التاشفينية ، ومدرسة العباد المعروفة عند المؤرخين برباط العباد واليعقوبية ، ومدرسة مازونة ، وهي نموذج مصغر لمدارس تلمسان .

---

[1] الونشريسي ، مصدر سابق ، ج : 2 ، ص : 56 .

[2] العيد مسعود ، مرجع سابق ، ص : 65.

وقد اهتم الباي محمد بن عثمان في الغرب الجزائري ؛ بتشييد دور العلم من مساجد ومدارس ، بنى مدرسة في مدينة معسكر ، ومدرسة بوهران ، وثالثة بمازونة.

ومن أشهرها المدرسة المحمدية بمدينة معسكر ، التي أشار إليها المؤرخ أبو راس الناصري في حديثه عن المدارس ، وامتدحه أحمد المقري القرومي لأجلها في قصيدة منها قوله :

"وترى المدرس قد علا كرسيه   يلقي على العلماء حب الجوهر
تحويه مدرسة غدت آثارهـــــا   تحييه بالعلم الشريف الأشعري
مبنى الأمير محمد في الغرب قد   لاحت رسومه كالصباح المسفر"[1]

وتتعدد أهداف المدرسة كما تتعدد مواردها ، فهي تارة تزود الدولة بما تحتاج إليه من قضاة ومفتشين وغيرهم من الموظفين ، كما أن رجال الشريعة والتوحيد كانوا أساتذة موظفين ، يدافعون بأقلامهم ودروسهم عن العقيدة الرسمية في المدارس وفي حلقات الدروس ، وتارة أخرى كانت هناك أحوال مغايرة تماما ، فالمدارس كانت تنتج أناسا يرفضون ممارسات بعض أهل السياسة وأسرهم المتلاعبة بالقيم والأخلاق.

أما النظام الداخلي للمدارس ؛ فكان يتم بقبول طلبة قاطنين بالمؤسسة ، وهم من الغرباء عن المدينة ، تجرى عليهم منحة يتقاضونها موادا غذائية ، ويلازمون الدروس إما متخصصين في علم واحد ، أو مشاركين في عدة علوم ، ويكوّنون مع

[1] ابن سحنون ، مصدر سابق ، ص : 131.

الطلبة المداومين من أهل المدينة طائفة الطلبة الرسميين ؛ إلا أن حلقات الدروس مفتوحة مع هذا لكل من يريد أن يكتسب معارف دون قصد الإجازة للتدريس أو التوظيف [1] .

ويمكن للأستاذ أن يجيز تلميذه ، أو يرخص له إذا رأى أنه يستحق منه لقب الأستاذية، وكان ذا كفاءة عالية ، مع ذكر ما أخذ منه من العلوم لتثبيت إجازته . وكان بعض الطلبة يجاز في سنتين ، وبعضهم ينتظر عدة سنوات ، وللأستاذ أن يعمل بأخلاقيات مهنته في تقييم مستوى طلبته .

وكانت المدارس تتنوع ، فهناك من تضم مئات الطلبة وعشرات الأساتذة ، مثل ما كان الشأن للمدرسة التاشفينية ، وأخرى يشرف عليها عالم واحد يستعين بكبار الطلبة ، وقد لا تقل هذه المدارس إشعاعا عن غيرها ، إذا كان صاحبها من المشاركين في عدة علوم .

كان الطلبة يحيطون أساتذتهم بهالة من الإجلال والإكبار ، تقديرا لعلمهم واعترافا لما لهم عليهم من دين بما يبذلوه من أجلهم من جهود جليلة .

والمتصفح لكتب التراجم ، ومذكرات العلماء وما كتبوه عن مشايخهم ؛ يلمس مدى الحبّ الذي كانت تنبض به قلوب الطلاّب نحو أساتذتهم ، ومنه ما قاله الشيخ محمد بن علي السنوسي في معرض حديثه عن أساتذته ، الذين تتلمذ على يدهم : " ومنهم شيخنا وشيخ مشائخنا الهمام الحافظ الإمام سيدي محمد

---

[1] عبد المجيد مزيان ، مرجع سابق ، ص : 41 .

ابو راس المعسكري البلد ، الناصري المحتد ـــ رحمه الله ـــ كنت أتردد إليه كثيرا ، وأستفيد منه استفادة عظيمة ، لتمام حفظه وإتقانه لكل فن ، حافظا لمذاهب الأئمة الأربعة، جواب كل ما سئل عنه بين شفتيه ، وغالب من أخذنا عنه من أهل ناحيته أخذ عنه " [1] .

أما الطبقة الميسورة ؛ فكانت تمجد العلماء ، وترفع من منزلتهم وشأنهم ، وتقلد أنماط سلوكاتهم ، وكل مواطن يجد من الشرف أن يستقبل واحدا من العلماء في بيته ، حتى معلم القرية ، ومؤدب القبيلة ، كان لهما شأن عظيم في حياة الناس، لا يقل أبدا عن شأن العالم في محيط الزاوية أو المدينة ، إن لم يزد عليه .

ونقطة أخرى سبق الحديث عنها من قبل ؛ إلا أنه من الضروري العودة إلى الخوض فيها من جديد ، وهي الفرق بين المؤسسات التعليمية خلال تلك الحقبة ، من خلال الدور الذي تؤديه كل واحدة منها ، والمناهج التي تخضع إليها ، والمستويات التي تصل إليها ، وهذا بسبب تداخل المهام والمناهج وعدم وجود برامج محددة .

لقد حدّد العيد مسعود ، في دراسته عن التعليم في العهد العثماني ، جملة من هذه الفروق فقال : " أول هذه الفروق أن الزاوية امتداد للرباط وبديل له ، انتشرت في الجبال والسهوب والواحات ، من أجل التفرغ للعبادة والعمل الخيري ، كإطعام المساكين وابن السبيل ، ثم أصبحت لتعليم كتاب الله وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم – ، ثم اهتمّت بغير ذلك من العلوم ، أما المدرسة فهي

---

[1] ابن سحنون ، مرجع سابق ، ص : 66 .

مؤسسة علمية أنشئت أساسا في المدن ، ومنه انتقلت إلى باقي أنحاء البلاد كالريف ، لكن التركيز بقي على المدينة .

- الزاوية مؤسسة حرة فيما تقدمه لطلابها ، بينما تصطبغ المدرسة بشكل أو بآخر بالصبغة الحكومية ، فالزاوية تقوم على أساس ما يسمى بالتعليم الحر ، أما المدرسة فتلزم بالاتجاه السياسي للحكومة .
- الزاوية تعتمد في مواردها على الأوقاف ، التي حبسها عليها أهل الخير ، وعلى الصدقات التي تجمع من الأتباع والمريدين، سواء كانت الزوايا مرابطية أو طرقية ، أما المدرسة فتعتمد في مواردها على الأوقاف ، التي حبسها عليها الحكام ، وتديرها الحكومة بشكل مباشر أو غير مباشر .
- الزاوية تقوم بمهام متعددة اجتماعية اقتصادية ، سياسية وعلمية إلى جانب التعليم أما المدرسة فموجهة للتعليم فقط " [1] .

وفي الرسالة الموجهة من شيخ الطريقة العيساوية إلى مريديها في مازونة لتعيين السيد كردغلي عبد الحق مقدما للزاوية يتضح بعض مهام الزوايا ، فهو يأمرهم بعد السمع و الطاعة بالصلاة و الزكاة والأمر بالمعروف والنهب عن المنكر ، وذكر الله تعالى [2] .

[1] العيد مسعود ، مرجع سابق ، ص : 68.

[2] ينظر الملحق رقم : 31 ، ص : 292 .

ويذكر دو فيريي في كتابه حول الطريقة السنوسية ومجالها الجغرافي أن مدينة مازونة كانت مهدا لميلاد هذه الطريقة ومقرا لزاويتها الأولى التي تخرّج منها رجال في قمة الإنسانية ، مثل شيخها بن تكوك الذي ترأسها لمدة طويلة [1].

[1]H Dveyrier , La confrerie musulmane de sidi Mohamed ben Ali Es Sanousi et son domaine geographique , societe de geographie , Paris , 1884 , p : 30 .

أعلام المدينة .

لم تكن العناية بفئة العلماء سلوكا اختصّ به العهد العثماني ، ولا هو ميزة عرفتها الجزائر دون بقية دول العالم الإسلامي ، لكنّ هذه الفئة امتازت في الجزائر بكامل الاحترام والتقدير وموفور الكرامة ، والسلطة الروحية لدى الأهالي ؛ لهذا السبب تقرب منهم رجال السلطة وخشوا بأسهم .

وبما أن الطابع الغالب إبان الوجود العثماني بالجزائر ؛ هو الطابع الديني العلمي ، فلم يفصل بين العلم وبين الدين لأن كلاهما يرافق الآخر ، فحسب معيار ذلك الزمن ؛ فإن العالم الحق هو من جمع بين العلوم الشرعية وغيرها من العلوم ، فكل محدث أو فقيه أو مفسر يعد في نظر الناس " عالما " ، ويلقب بسيدي فلان" ، وإن جمع بين عدة علوم فهو عالم نحرير .

وقد قسّم الدكتور سعد الله العلماء خلال العهد العثماني إلى ثلاثة أصناف : العلماء الموظفون (كتّاب الإنشاء أو الخوجات) ، والفقهاء المستقلون (المثقفون الأحرار) الذين لا صلة لهم بالتصوف ولا بالسلطة ، ثم العلماء المتصوفة ، أو المتصوفة دعاة العلم والولاية (المرابطون) [1] .

هذا من الناحية العلمية ؛ أما من الناحية الوظيفية فهم طبقتين : الطبقة الرسمية التي تشمل القضاة والمفاتي والمدرسين ، ثم الطبقة الملحقة بها من رجال الزوايا والمتصوفة وسلالة الأشراف ، المنحدرة من سلالة الرسول "صلى الله عليه

---

[1] أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ج : 1 ، ص ص : 403 – 404 .

وسلم"، وهم على شكل مجموعات في كل الأحياء تحت رئاسة " نقيب الأشراف"، وغالبا ما يكون تابعا لنقيب إسطنبول ، وقد تولت هذه الأخيرة وظائف دينية [1] .

وحسب حمدان خوجة فقد وجد في كل مدينة نقيب للأشراف بمثابة الحاكم الثاني للمدينة ، ويختار من الأسر الشريفة ، وواجبه كلما حدث أمر هام أن يجتمع في بيته مع شيخ البلد وسائر الأمناء التابعين له من أجل اتخاذ التدابير اللازمة [2] .

وقد اشتهرت هذه الفئة بالورع والتقوى ، وهذا الأمر أكسبهم احترام وتقدير الحكّام ، الذين سعوا إلى التقرب منهم ، ومن هؤلاء الداي بكداش الذي سعى إلى كسبهم ، فبنى لهم زاوية خاصة بهم عام 1709 م ، كما أوقف لها أوقافا .

يندرج ضمن فئة العلماء – كما أشرنا إليه سابقا – المفاتي والأئمة والخطباء والوعّاظ والمؤدّبون والقائمون بشؤون المساجد ، وخدام الأضرحة ، إضافة إلى الخوجات .

هذا وتنتمي فئة العلماء بالمدن إلى طبقة الحضر ، التي تأتي في المرتبة الثالثة في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني ، وهي لم تطمح إلى مناصب سياسية ، بل اكتفت بالمناصب الدينية والعلمية .

---

[1] رشيدة شدري معمر ، العلماء والسلطة العثمانية – فترة الدايات 1671 م - 1830 ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير ، تخصص تاريخ حديث ، جامعة الجزائر ، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية ، 2005 – 2006 م ، ص : 48 .

[2] حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص : 189 .

أمّا بالريف ؛ فكان المرابط ينتمي إلى عائلة دينية ، ويكون في دائرة ضيّقة عن عالم الريف ، يعمل على رعاية التعليم والقيام بدور المؤذّن والإمام ، إضافة إلى الفصل في الخصومات والإصلاح بين القبائل [1].

هذا وكانت فئة العلماء في الجزائر عربية باستثناء القضاة والمفاتي الأحناف .

يعرِّفها (أندري ريمون) على أنها : " تجمع بشري واسع وغامض وغير متحد في نشاطاته " [2] ، فهي لم تشكل تلاحما اجتماعيا ، بل تنظيما تمثّل في مختلف المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ، لتكون أقلّ انفتاحا على المجتمع ، رغم النزعة الاحتكارية الواضحة لبعض العائلات للوظائف ، من أجل الارتقاء في السلم الاجتماعي ، فكانوا مجرد وسطاء بين الحكّام والرعية .

اكتسبت فئة العلماء امتيازات ، بفضل توليها للتدريس والمهام القانونية والشرعية ، لكنها أساءت لنفسها ببحثها عن الغنى والمتعة ، كما أنها تميّزت بسمة بارزة ، وهي توريث الوظائف ، حيث احتكرت عائلات وظيفة ما لسنوات عدة اعتمادا على علاقة البنوة ، الأخوة أو المصاهرة ، كما هو الحال لعائلة الكتروسي بمدينة مازونة كما رأينا سابقا .

[1] سعيدوني ، النظام المالي ، مرجع سابق ، ص : 45 .

[2] رشيدة شدري معمر ، مرجع سابق ، ص : 49 .

كما أننا نجد أفراد هذه الفئة في مستويات معيشية متنوعة ؛ لهذا كانت عنصرا أقل ثباتا في المجتمع ، حيث أن ثروة فرد عادي قد تصل حتى 652 ريال في حين كانت ثروة عالم لا تتعدى 63 ريال [1] .

وقد اعتبر أفراد فئة العلماء كمرشدين دنيين واجتماعيين ، يرتبطون بالمجتمع عن طريق التوعية الفكرية والدينية ، وأحيانا يكونون في وجه الانحراف السياسي والتقاعس عن الجهاد ، والتعسف الضريبي ، وهذا ما زاد من قوّتهم ومكانتهم .

لذا مثّلوا الرأي العام بالجزائر ؛ رغم ترفّعهم الطبقي ، فصلتهم بالأهالي كانت عن طريق الدروس ، ومنهم من كان يجلس في المقاهي ، ويختلط بالناس ، فيكثر عليه الدرس والخطب فيلفت نظر السلطة .

مع الأسف الشديد ؛ فإنّ الأخبار عن أعلام الجهة الغربية قليلة جدا ، والقليل الموجود في بعض المصنّفات لا يفي بالمطلوب ، بخلاف الحال مع الشرق الذي كان حظّه أحسن ، فعلماء بجاية رصدهم الغبريني في (عنوان الدراية) ، وأعلام قسنطينة تكفل بهم عبد الكريم الفكون في (منشور الهداية) ، أما عنابة فقد أحصى رجالاتها أحمد البوني في منظوماته (الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة) .

وأمّا في الغرب ؛ فإذا استثنينا حاضرة تلمسان التي قام ابن مريم في مؤلفه (البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان) بجمع أخبار علمائها وأوليائها ،

---

[1] رشيدة شدري معمر ، مرجع سابق ، ص : 49 .

ومعسكر التي عرفنا أخبار أعيانها من عبد الرحمن التوجيني في كتابه (عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس) ، فلا نكاد نجد من خصّ أعلام باقي الحواضر بالذكر ، مما يقينا في حالة من الحاجة إلى البحث حول تاريخ المنطقة الثقافي ، خاصة بعض الحواضر التي ضمّت مدارس مشهورة كالمدرسة الفقهية بمازونة [1] التي اشتهر شيوخها بالتخصص ، فبعضهم تخصص ونبغ في شرح (مختصر) الشيخ خليل [(2)]، والبعض في اللغة والأدب ، والبعض الآخر في القضاء والأحكام والفرائض ، وكل مشهور ومعروف بتخصصه ولا يعرف سواه.

وفيما يلي نذكر أبرز علماء وفقهاء مدينة مازونة ، مقسّمينهم إلى مجموعتين:

- الأولى : علماء مدينة مازونة .
- الثانية : العلماء الذين تعلّموا بها وتخرّجوا منها ودرسوا بها ، وذاع صيتهم في العالم الإسلامي عامة ، وفي المغرب الإسلامي خاصة .

[1] محمد الأمين بالغيث ، مدرسة مازونة الفقهية في القرن الرابع عشر الميلادي ، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية ، تصدر عن مخبر بحث الشريعة جامعة الجزائر ، العدد 1 ، الجزائر ، 2004 م ، ص ص : 122– 123 .

[2] الشيخ خليل (776) : هو خليل بن إسحاق المعروف بالجندي المالكي ، العالم الفقيه العلامة ، له تأليف أشهرها المختصر الفقهي المعروف باسمه ، الذي كثرت شروحه مما يدل على أهميته في المذهب المالكي.

ينظر: ابن مريم أبو عبد الله محمد ابن أحمد الشريف المليتي المديوني التلمساني ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1986م ، ص : 96.

أولا : علماء مازونة .

سأقتصر هاهنا على ذكر أبرز وأشهر علماء مازونة ، الذين ملأت شهرتهم الآفاق ، وخلّدوا أسماءهم بمصنّفاتهم وأسفارهم ، وكوّنوا من التلاميذ من حمل علمهم ونشر ذكرهم .

وها هو ذا ذكرهم على سبيل التمثيل والاختصار ، لا الحصر والاستقراء .

1. **عبد الرحمن بن محمد بن الشارف** : هو مؤسّس المدرسة الفقهية بمازونة ، ومن أعلام الفقه المالكي في العهد الزيّاني ، تعلّم ودرس على يد أبيه الشيخ محمد بن علي ابن الشارف ، وبعد ذلك لازم أباه في التعليم والتدريس ، ثم تولّى رئاسة المدرسة بعد وفاته سنة 1164هـ. توفي بمدينة مازونة ، ولكن المصادر التاريخية وكتب التراجم لم تعطينا تاريخ وفاته .
2. **الشيخ علي بن عبد الرحمن بن محمد بن علي ابن الشارف** : وهو ابن الشيخ عبد الرحمن مؤسس المدرسة ، تعلم علي يد أبيه ، وتولى التدريس والتعليم بالمدرسة بعد ذلك مع أبيه ، وتوفي سنة 1189هـ بمدينة مازونة [1].
3. **الشيخ محمد بن علي بن عبد الرحمن بن محمد بن علي ابن الشارف** : المعروف بأبي طالب المازوني ، وهو حفيد الشيخ المؤسس للمدرسة ، ولد أواخر المائة الحادية عشر (11هـ) ، أو مقاربا لأول الثانية

[1] بوكفة يوسف ، مرجع سابق ، ص : 29 .

(12هـ) ، الموافق لـ (18 م) [1] . تعلم الشيخ أبو طالب مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم على يد والده العلامة الفقيه علي بن عبد الرحمان ، وذلك بمدرسة مازونة الفقهية ، التي أسّسها جده الأعلى الشيخ محمد بن الشارف ، ثم تلقى العلم والفقه على شيوخ مازونة ، التي بلغت شهرتها في ذلك الزمن الآفاق، حيث وصفت بكونها بلد الفقه والعلم بالقطر الجزائري .

كما تلقى رواية الحديث النبوي الشريف وإسناده عن الكثير من علماء عصره ، أشهرهم على الإطلاق شيخ الجماعة بالجزائر القاضي المفتي أبي عبد الله محمد بن جعدون ، كما كان يروي كذلك عن الشيخ ابن علي الشريف الزواوي .

تولى الشيخ أبو طالب محمد بن علي المازوني التدريس بالمدرسة الفقهية ، بعد وفاة والده سنة 1189هـ ، وبهذا نصب فيها للتدريس في سن مبكرة ، وكانت حلقته العلمية مميزة حافلة بالطلبة ، وكان يدرس طلبته مختصر الشيخ خليل ، وشرحي الخرشي [2] والزرقاني [1] ، كما كان يدرّسهم الرقائق ، ورواية الحديث الشريف وحفظ السند .

---

[1] ذكر ذلك الشيخ السنوسي في مخطوطه : " البدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة " ، مخطوط المكتبة الوطنية ، نسخة مصورة عند الأستاذ بليل ، ص : 15 .

[2] الخرشي : شيخ المالكية أبو عبد الله : محمد بن عبداه الخرشي المتوفى : سنة : 1102 ، اثنتين ومائة وألف. ينظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج : 2 ، ص : 1628 .

اشتهر الشيخ محمد أبو طالب المازوني ، بقلة الإنتاج والتأليف ، ولا نعرف أنه ترك آثارا مكتوبة أو مخطوطات ، ماعدا حاشية على شرح الخرشي على مختصر خليل المعنونة بـ : " درة الحواشي في حل ألفاظ الخرشي " ، ومؤلّف في علم التوحيد [2].

توفي الشيخ أبو طالب سنة 1233هـ/ الموافق لسنة 1818م ، بمدينة مازونة عن عمر يناهز مائة وثلاثين (130) سنة ، ودامت مدة تدريسه أربع وأربعين 44 سنة ، وضريحه موجود بالغرفة رقم: 04 [3].

4. **الشيخ أبو العباس أحمد بن هني بن محمد بن علي** : وهو حفيد الشيخ أبي طالب المازوني السابق ذكره ، تولى التعليم والتدريس بعد وفاة جده سنة (1233هـ/1818م) على أيام العثمانيين ، واستمر في وظيفته التعليمية أثناء الاحتلال الفرنسي .

ويؤكّد وجوده كشيخ بالمدرسة الفقهية تلميذه الشيخُ محمد بن علي السنوسي في قوله : " وقرأت على مشائخ مازونة أبي طالب المازوني ، وعلى حفيده من بعده أبي العباس أحمد بن هني ، وتحصّلت منهما على إجازات ... " [4].

---

[1] الزرقاني : محمد بن عبد الباقي بن يوسف ابن أحمد بن علوان الزرقاني المصري المالكي المتوفى : سنة 1122 ، اثنتين وعشرين ومائة وألف . ينظر : حاجي خليفة ،كشف الظنون ، ج : 2 ، ص : 1908 .

[2] بوكفة يوسف ، مرجع سابق ، ص : 29 .

[3] المرجع نفسه ، ص : 57 .

[4] ابن علي السنوسي ، مصدر سابق ، ص : 17 .

ومن آثار الشيخ أبي العباس أحمد بن هني ، (حاشية على الخرشي) في جزأين كبيرين ، و(الشرح الكبير على صغري الشيخ السنوسي).

5. **والشيخ محمد الصادق بن فغول** : كان من أجلاء الشيوخ ، شيخ الإسلام الحافظ الزاهد ، الخبير بعلم الشريعة ، جامع بين العلم والدين ، صاحب مدرسة مازونة الفقهية الشهيرة .

يقول عنه الحافظ أبو راس : " انتهت إليه رئاسة التدريس ، وشدت إليه الرحال من زواوة وغريس ، ولم أر مثله فيما رأيت ، وابنه السيد محمد الأسعد الأمجد...". كان جامعا للفنون وعلومها ، وبارعا في معرفة الحديث على أهله منفردا بهذا الفن النفيس في زمانه .

6. **يحيى بن موسى أبو عمران ابن عيسى بن يحيى ، أبو زكريا المغيلي المازوني** : وهو فقيه مالكي من أهل مازونة من أعمال وهران ، ولي قضاء بلده ، توفي بتلمسان سنة 883هـ/1478م .

له (الدرر المكنونة في نوازل مازونة) ، وهي فتاوى ضخمة في ديوانين في فتاوى معاصريه ، من أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم ، ومن هذا الكتاب ونوازل البرزلي وغيرها استمد الونشريسي كتال المعيار.

قال عنه أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب المعيار تلميذ المازوني : " الصدر الأوحد العلامة العلم الفضال ذي الخلال السنية ، سني الخصال شيخنا ومفيدنا وملاذنا وسيدنا ، ومولانا وبركة بلادنا أبي زكريا سيدي يحيى . وهو من العلماء الكبار الذين تناولوا الفتوى ، وأصبحوا مرجعية

فقهية ، ولم يتوظف بعلمه عند السلطة ، وكانت فتاوى المعيار والمازوني دائرة على فقه مالك بن أنس ، لأنه المذهب الذي كان يتّبعه جميع السكان باستثناء أتباع المذهب الإباضي " [1] .

شيوخه : رحل أبو زكريا إلى تلمسان حاضرة بني زيان ، فأصبح أحد أبرز وجوهها العلمية في الفقه المالكي ، وتتلمذ على جلة من العلماء من أمثال :

- والده موسى بن يحيي بن عيسى الفقيه الأجل ، والمدرّس المدقّق والقاضي المحقق ، صاحب كتاب " ديباجة الافتخار " .
- ابن مرزوق الحفيد (842هـ/1438م) .
- قاسم بن سعيد العقباني (854هـ/1450م) .
- أبي العباس أحمد بن زاغو المغراوي (845هـ/1441م) .
- أبي عبد الله القاضي الشريف المدعو حمو الشريف (833هـ/1429م)

7. **أبو عمران موسى بن عيسى المازوني** : عالم جليل ، يتضح رسوخ قدمه في العلم من خلال تأليفه : " ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار"، و" حلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه"، وهي من المجامع الفقهية الكبيرة المفقودة ، وابنه يحيى صاحب الدرر المكنونة في النوازل المذكور أعلاه .

[1] الونشريسي ، مصدر سابق ، ج : 2 ، ص : 58 .

واشتغل قاضيا بمازونة كما يذكر أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج [1] ، ويصفه الحفناوي نقلا عن بعض الروايات : " بالفقيه الأجل المدرس المحقق، القاضي الأكمل ، وهو والد صاحب النوازل ، ولصاحب الترجمة تأليف في الوثائق سماه : الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق... " [2] .

8. **الحسن بن محمد بن محمد بن مصطفى المازوني** : ويعرف بابن منزول آغا ، من كبار علماء مازونة في وقته ، فقيه حنفي تركي الأصل من أهل مازونة ، وبها نشأ وتعلم ، وقد لحق به لقب ابن منزول آغا – وهو لقب تركي يطلق على كبار الضباط — من جده ، الذي كان ضابطا في الجيش الانكشاري ، فاشتهر أبوه بهذا اللقب ، ثم هو من بعده .

ومن آثاره : كتاب تحفة الملوك في حصر أصول الإرث المتروك ، وأرجوزة في فرائض الفقه الحنفي ، وكتاب منهاج السلوك في شرح معاني تحفة الملوك شرح فيه الأرجوزة المذكورة ، لم يعرف تاريخ مولده ولا وفاته ، ولكنه كان حيا سنة: 1140 هـ / 1727م [3] .

---

[1] أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، إشراف وتقديم : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، ط 1 ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 1989م ، ص ص : 605 – 606 .

[2] الحفناوي ، مرجع سابق ، ج : 2 ، ص : 448 .

[3] عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، ط 2 ، مؤسسة نويهض الثقافية ، بيروت ، 1980م ، ص : 280 .

9. **الصادق بن علي المغيلي المازوني** : عالم من فقهاء المالكية ، من أهل مازونة التي تعلم بها ثم رحل إلى معسكر ، وبعدها رحل إلى المشرق فتعلم بالأزهر الشريف ، وبعد عودته تولى القضاء بمازونة ، ثم بوهران ، لم يعرف تاريخ ميلاده ولا وفاته ؛ غير أنه كان حيا سنة : 1247 هـ / 1838م [1] .

[1] أحمد بابا التنبكتي ، مرجع سابق ، ص : 206 .

ثانيا : العلماء الذين درسوا في مازونة .

أمّا بالنّسبة لخريجي المدرسة ، الذين أصبحوا علماء وفقهاء ومشائخ في مختلف القطر الجزائري ، بفضل إجازات علمية مختلفة ، تحصّلوا عليها في شتى العلوم ، من علماء بمازونة ، فنذكر منهم :

1. **الشيخ مصطفى الرمّاصي** (**ت1136هـ/1724م**) : هو أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله ابن موسى الرمّاصي ، نسبة إلى قرية قرب مدينة مازونة ، عالم من فقهاء المالكية ، تعلم بالمدرسة الفقهية بمازونة ، على يد شيوخها وخاصة مؤسسها محمد بن الشارف المازوني ، الذي أخذ عنه علم الحديث والفقه المالكي ، وأجازه الشيخ في ذلك . ثم رحل إلى القاهرة ، حيث أخذ عن علمائها .

   وصفه عبد الرحمن الجامعي الفاسي بقوله : " حامل راية الفقه المالكي في عصره ومصره [1].

من آثاره : ترك لنا الشيخ الرماصي مجموعة من المؤلفات في جميع فنون العلم، منها :

- شرح خريدة السيوطي .
- شرح النصيحة الزرقوية .

[1] عادل نويهض ، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830 - 1960م) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995م ، ص : 110 . **وينظر أيضا** : الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 1991م ، ج : 2 ، ص : 441 .

- كفاية المديد على شرح عقيدة التوحيد [1].

2. **والشيخ محمد السنوسي (1202هـ/1276م)** : هو أبو عبد الله محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسيني الإدريسي مؤسس الطريقة السنوسية ، ولد في مستغانم ، ونشأ في بيت علم ودين وفضل ، فدرس علوما مختلفة بالمدرسة الفقهية بمازونة على يد شيخه أبي طالب المازوني ، وحفيده الشيخ أبي العباس أحمد بن هني .

وفي هذا الشأن يقول في كتابه : (البدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة) : " فمنهم ، وهو أجلّهم وأكملهم وأفضلهم ، ناصر الدين المعمر الجهبذ الأكبر ، الولي الأشهر، مهيع العلوم والمعارف ، أبو طالب سيدي محمد بن علي بن الشارف ، قرأت عليه النصف الأول من المختصر مرارا ، قراءةَ تحقيقٍ وتدقيق ، مطرّزة بجزيل الفروع النقلية، والفوائد السّنيّة ، يلتزم شرح الخرشي غالبا مع حاشيته عليه ، وقد بلغ فيها إلى باب الرهن..." إلى أن قال : " وقرأت على حفيده من بعده أبي العباس أحمد بن هني النصف الثاني من المختصر الثاني مرارا بأمره منه، على سبيل النيابة عنه ، وسمعت عليه مجالس من البخاري ، ومثلها من مسلم والموطأ ، وأخذت عليه علم التوحيد ، وناولني شرحه الكبير على صغرى الشيخ السنوسي...." .

[1] عادل نويهض ، المرجع نفسه ، ص : 110.

وقال في موضع أخر : " وأجازني في ذلك ، آمرا لي بإقراء ما أقرؤه عليه ، وبمراجعة ما يقرؤه ..." [1].

ومن بين تآليفه : (البدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة) ، و(الدرر السنية في أخبار السلالة السنوسية) ، والمسائل العشر المسماة :(بغية المقاصد وخلاصة المراصد) ، و(الشمس الشارقة في أسماء مشايخ المغاربة والمشارقة) [2].

3. **والشيخ ابن القندوز** (ت**1222**ه) : هو الإمام أبو عبد الله محمد بن القندوز ، شيخ الجماعة بالحضرة المستغانمية وأحوازها ، درس في المدرسة الفقهية بمازونة سنين عديدة ، أخذ الفقه المالكي خاصة (شرح مختصر الشيخ خليل) ، و(صحيح البخاري) على العلامة ابن الشارف ، ثم رحل إلى مصر ، وأخذ عن العارف بالله الدردير ، وكان يحفظ شرح شيخه على المختصر بلفظه وحروفه ، كان ملازما لصحيح البخاري ، يختمه كل سنة وملازما لتفسير القرآن الكريم بين العشائر ، يختمه كل سنة غالبا ، ملتزما فيه الجواهر الحسان للثعالبي ، والجلالين وابن جزي ومراجعة الخازن ، وملازما لقراءة علم التوحيد كصغرى السنوسي .

وممن أخذ عنه محمد بن علي السنوسي . توفي عن سن عالية سنة 1222ه[3].

---

[1] ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبدلي ، الجزائر في التاريخ العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م ، ص ص :196 -197.

[2] عبد القادر بن عيسى المستغانمي ، مرجع سابق ، ص: 97.

[3] ابن علي السنوسي ، البدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة ، ص : 22 وما بعدها.

4. **والشيخ عدة بن غلام الله (1208-1283هـ/1747-1866م)** : هو عدة بن محمد الميسوم بن غلام الله بن عبد الرحمن بن أبي القاسم بن محمد الخياطي ، درس على يد الشيخ أبي طالب محمد المازوني الفقه بالمدرسة الفقهية بمازونة ، تولى القضاء في عهد الأمير عبد القادر [1].

5. **والشيخ محمد أبو راس** : هو الشيخ الفقيه الحافظ المؤرخ ، محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد الناصر ابن علي ابن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل ، الراشدي المعسكري الجزائري .

صاحب المؤلفات الكثيرة المختلفة ، منها : عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ، والحلل السندسية ، والخبر المعرب وغيرها. أخذ الفقه المالكي وأصوله عن الشيخ أبي طالب المازوني [2] ، وأخذ أحكام الشريعة والقضاء على الشيخ محمد الصادق بن أفغول ، وعن الشيخ أحمد بن الشيخ العربي بن نافلة المازوني ، وعن الشيخ محمد بن عبد

[1] حمدادو بن عمر وبوعمامة العربي ، الشيخ سيدي عدة بن غلام الله وآثاره في الفكر والتصوف ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص ص : 9 -15.

[2] محمد أبو راس الجزائري ، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته (حياة أبي راس الذاتية والعلمية) ، حققه وضبطه محمد بن عبد الكريم الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990م ، ص : 19 .

القادر القاضي ، أحد قضاة مازونة ، وعن الشيخ الصالح محمد بن أعوالي الزلماطي [1] .

6. **والشيخ العلامة الفقيه عبد القادر بن المختار الخطابي المجاهري** : خريج المدرسة الفقهية بمازونة ، صاحب كتاب : (الكوكب الثاقب في أسانيد الشيخ أبي طالب) ، قرأ بمازونة على عالمها الشيخ أبي راس المازوني ، سليل الجدين أبي طالب لأبيه وأبي راس لأمه .

تعلّم عليه علم الحديث والتفسير والفقه المالكي ، ثم سافر لتونس سنة 1318هـ ، فبقي بها نحو السنة ، ثم رحل إلى مصر ، وفيها أكمل مؤلفه هذا سنة 1329هـ . ولعل وفاته كانت سنة 1336هـ بمصر[2] .

وهو الذي مدح مدرسة مازونة التي حافظت على مكانتها إلى عهد قريب فقال :

إذا رمت فقه الأصبحي فعج على ... ديار بها حلت سعود الكواكب
تجد سادة للفضل والعلم مهدوا ... طريقا بها أضحى التعصي بجانب
ولج بعظيم الجاه واحفظ جنابه ... وقف بضريح الشيخ وقفة راغب
ولازم ذاك الركن واعرف مقامه ... وقل:يا شريف الأصل يا أباطالب

---

[1] ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي ، الجزائر في التاريخ العهد العثماني ، ص : 196 .

[2] عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان ، ط 2 ، سنة : 1982م ، ج : 1 ، ص : 506 .

فإنـــه ذو فضل وجود وســـؤدد وذو منح حلت كثير المواهـــــب

إلى أن قال :

فلا غرو أن ضاهت مازونة مصرنا وإن تفتخر لها التفاخر واجب [1]

7. **السيد محمد بن عبد الله الخالدي المالكي الجزائري** : العالم الأستاذ والعمدة الملاذ ، ترجمه ولده الفاضل الشيخ محمد ، وقد نقل البيطار من خط المترجم له ما يلي : " ... يتصل نسب المترجم بسيدنا الحسن سبط رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وأنه ولد عام ألف ومائتين وثمانية عشر ، في جبل هلالة من جزائر المغرب ، ونشأ بها ، وقرأ القرآن على والده .

كان – رحمه الله تعالى – عالماً عاملاً ، تقياً فاضلاً ، فلما حفظ القرآن وأتقنه مجوداً أبدع إتقان ، توجه إلى بلدة مازونة سنة ألف ومائتين وخمس وأربعين ، واشتغل بالعلوم الشرعية ، وحفظ متن الشيخ خليل في مذهب الإمام مالك ، وقرأ بعض شروحه ، وبعدها توجّه إلى قسنطينة سنة ألف ومائتين واثنتين وأربعين [2] .

ومن خلال هؤلاء النخبة من العلماء والفقهاء ، الذين تعلّموا ودرسوا وتفقهوا بالمدرسة الفقهية بمازونة ، اكتسبت بهم شهرتها العلمية والثقافية ، منذ السنوات

---

[1] ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبدلي ، الجزائر في التاريخ العهد العثماني ، ص :197.

[2] عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، تحقيق وتنسيق وتعليق محمد بهجة البيطار ، ط 2 ، دار صادر ، بيروت ، 1413 هـ - 1993 م ، ص ص :1281 – 1282.

الأولى لتأسيسها ، وأنها لعبت دورا كبيرا وهاما في المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية بالقطاع الغربي خاصة ، وبالقطر الجزائري عامة .

الخاتمة :

لقد خلص هذا البحث ؛ إلى أن مدينة مازونة ،لم تحظ بالعناية اللازمة لها من قبل الباحثين ، ربما لنقص الوثائق التاريخية التي يعتمد عليها أي بحث .

والغريب في الأمر ؛ أن المرحلة التي بلغت فيها المدينة أعلى الرتب بإقامة باي الولاية الغربية أو بايليك الغرب ، في العهد العثماني من تاريخ الجزائر ، والتي من المفروض أن تكون المادة التوثيقية حولها متوفرة ؛ هي من أظلم المراحل في تاريخ المدينة .

وللدلالة على ذلك ؛ يكفي الاستدلال بأن أكثر من عشرة من باياتها لا نعرف لهم ذكرا ، ولا نجهل تارخهم ، وما الذي أحدثوه في المدينة وحسب ؛ بل لا نعرف حتى أسماءهم .

وعلى خلاف باقي عواصم البايليكات ؛ كقسنطينة في بايليك الشرق ؛ أو المدية في بايليك التيطري ، واللتين حظيتا بمادة وثائقية غزيرة ، انعكست على الكتابات التاريخية التي غطّت المراحل المختلفة من تاريخ المدينتين ، وحتى عاصمتي بايليك الغرب من بعد مازونة ؛ وهما معسكر ثم وهران ، كان حظّهما أحسن بكثير منها ، مما سهّل على الباحثين الخوض في الكتابة حول هذه المدن دون تردد، والمساهمة بالتالي في تسليط الضوء على مختلف جوانب الدور الحضاري ، الذي كان لها على مر الزمن .

هذا الأمر مع الأسف الشديد ؛ لم يكن من نصيب مازونة ، التي شحّ التوثيق حولها ، ولذلك صعبت عملية البحث .

وإذا كان البحث في الجوانب الحضارية من الأعمال الحديثة ، التي لم يهتم المؤرخون المسلمون السابقون بها _مما يصعب أصلا البحث فيها_ ، فإنّ كل ذلك يوضح أهمية البحث حول مدينة مازونة على صعوبته .

ومع العلم أن مازونة اشتهرت بمدرستها الفقهية المالكية ، التي شُدّت إليها الرِّحال ، مما ينبغي أن يكون له نظير من حيث وفرة الكتابات التاريخية حولها ، لكن الواقع أن العلاقة الطردية التي كان مأمولا وجودها انعدمت ، ولم يكن حجم الموجود يتناسب بتاتا مع قدر المدينة ومكانتها الحضارية .

كل ما سبق ؛ لا يعني بتاتا انعدام دور مازونة الحضاري ، أو قلة مكانتها ، بل العكس صحيح ، لكن التوثيق حولها هو القليل ، مما يدفع الباحث إلى التكهّن ووضع الافتراضات حول الدور الفعلي للمدينة ، دون القدرة على الفصل النهائي في صواب هذه الافتراضات .

وبالعودة إلى كون المدينة عاصمة لبايليك الغرب ؛ ففي الفترة التي كانت فيها مازونة مقاما لبايات الغرب من 1565 إلى 1701م ، كان البايليك مقسّما إلى عاصمتين هما مازونة وتلمسان ، ولم تتوحّد العاصمة إلا في معسكر .

والغريب أنه حتى في هذه المرحلة ؛ كان الحديث عن وهران ، التي لم تكن حتى ذلك الحين تحت الحكم العثماني ، أكثر بكثير مما نجده حول مازونة ، وحتى البايات الذين حكموها ، لانعرف منهم بعد الأربعة الأوائل إلا الذين ارتبطت أعمالهم بحصار وهران ومحاولة تحريرها ، كشعبان الزناقي وإبراهيم خوجة ، وأخيرا

مصطفى بوشلاغم ، الذي نقل العاصمة إلى معسكر ؛ لتضييق الخناق على إسبان وهران ، وكان له فضل التحرير الأول .

كل هذا يجعلني أميل إلى أن حكّام الجزائر آنذاك لم يعتبروا مازونة عاصمة للبايليك ؛ بقدر ما اعتبروها ثغرا حربيا ، دوره الأساسي ترقّب العدو وتحيّن الفرصة لظهور أي وهن منه ، يسمح بتحرير وهران . هذا فيما يتعلق بالإسبان وصدّ أي هجوم مفاجئ ، قد يجرؤ عليه حكّام المغرب في غفلة من الدولة الجزائرية ، مع جمع أكبر قدر من الضرائب ، وتوسيع المجال الجغرافي لأداء هذه الضرائب كمصدر للخزينة من جهة ، ودلالة على الخضوع لسلطة البايليك من جهة ثانية .

لم يمنع هذا الوضع مازونة من تبوؤ مكانة حضارية مرموقة ، حصلت عليها بفضل عوامل كثيرة امتازت بها المدينة ، أهمها عاملين أساسين وهما :

ـــ العامل الجغرافي : وتمثّل في الموقع المتميّز ، الذي وفّر جوّا صافيا معتدلا غير موبوء ، خصب التربة ، وفير المياه ؛ مما ساعد على استقرار العنصر البشري ، والاستقرار شرط أساسي في الإنتاج الحضاري .

ـــ العامل الديموغرافي : وهو توافد المهاجرين الأندلسيين ، الذي خدموا المدينة بما حملوه معهم من مهارات من مواطنهم الأصلية في الأندلس ، ثم ما أدّى إليه تلاقح هؤلاء الأندلسيين ، مع غيرهم من العناصر البشرية المشكّلة للنسيج المجتمعي في المدينة .

أثّر العامل الجغرافي في الجانب الاقتصادي بصفة مباشرة ، من خلال غنى المنتوج الفلاحي ، وتوفر الثروة الحيوانية ، وبالتالي تحقيق قدر من الرفاه الداعم للاستقرار .

أما العامل الديموغرافي ، فخدم الجانبين الاقتصادي – بتوفير اليد العاملة المؤهلة لتطوير الزراعة والحرف – والثقافي بتوفير الكادر العلمي المؤهل لتأطير التعليم، متمثلا في تأسيس المدرسة الفقهية على يد محمد بن الشارف البولداوي المهاجر الأندلسي .

ولسوء حظ المدينة ؛ فإنّ كلا الأمرين لم يشفع لها ، ولم تستخدم هذه المؤهلات الكبيرة لصالح النهوض بها ، وتحويلها إلى مصاف العواصم الحضارية ، التي أشعّت في سماء المغرب الإسلامي ، بل اشتعلت نار الفتنة بين مختلف أحيائها، وسُخّرت كفاءاتها لتطوير صناعة الأسلحة ، التي تستخدم لتقاتل أبنائها فيما بينهم ، في غياب شبه تام ليد الحزم والحسم من السلطة العثمانية ، التي ربما استفادت من هذا الصراع .

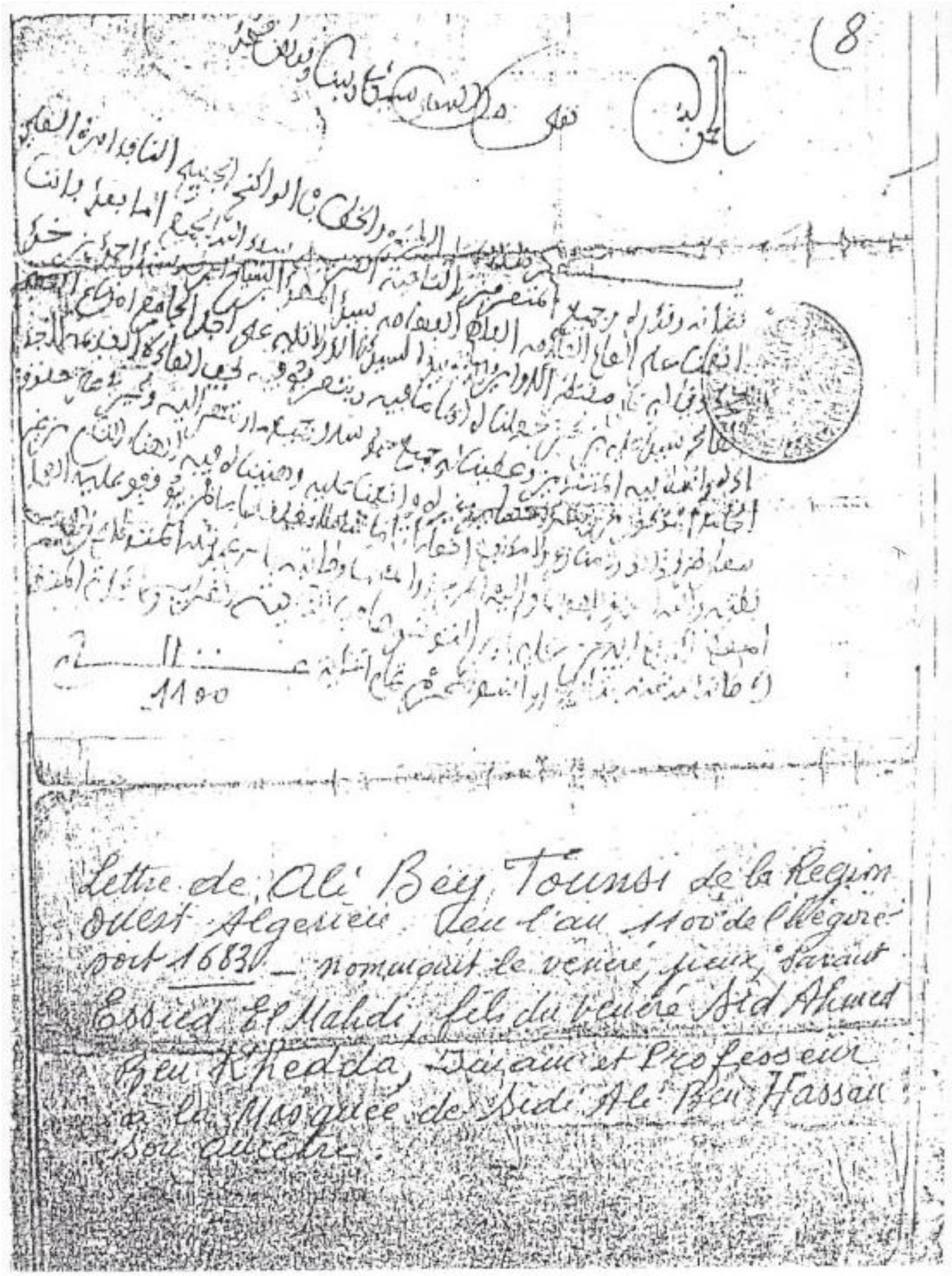
لم تسلم المدينة من حلقات الصراع منذ ما قبل كونها عاصمة للبايليك ، فقد انهكتها صراعات دويلات المغرب الإسلامي فيما بينها ، وصراعات البيت المغراوي على عرش حكمها ، كما لم تسلم منه بعد خروج العاصمة إلى معسكر ووهران ، ولا حتى بعد دخول الفرنسيين وخروج العثمانيين .

لقد كانت المدينة – ومن حولها جبال الظهرة – مسرحا لسجالات المقاومة الشعبية مع المستعمر ؛ بقيادة الأمير عبد القادر ، أو الشريف بومعزة ، حتى لكأنّ

الصراع قدر هذه المدينة ، غير أنّ إشعاع مدرستها لم يخبُ في أيّ لحظة من لحظات تاريخها منذ تأسيسها إلى أن أطفأ نورها قوانين المستعمر الجائر ، بعدما استمرت هي في المقاومة الفكرية الحضارية بدلا عن المقامة المسلحة التي توقفت بعد استسلام الشريف بومعزة سنة : 1845 م .

الملاحق

ملحق رقم :1



1100

Lettre de Ali Bey Tounsi de la Region Ouest Algerien. Venu l'an 1100 de l'Hegire soit 1683 — nommant le vénéré pieux savant Essied El Mahdi, fils du vénéré Sid Ahmed Ben Khedda, [illegible] et Professeur à la Mosquée de Sidi Ali Ben Hassan son ancêtre.

ملحق رقم : 2



ملحق رقم : 3



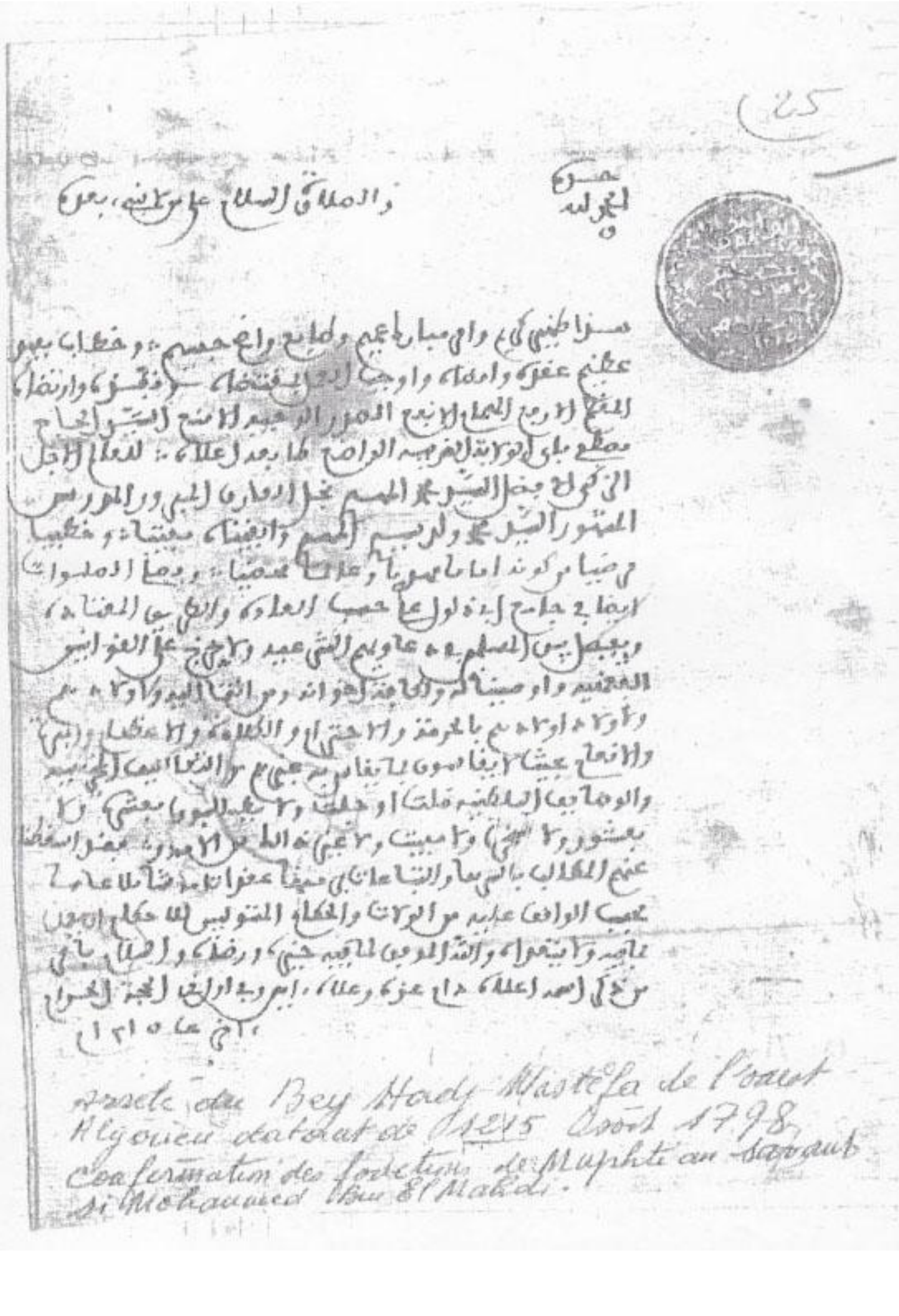
ملحق رقم : 4


(24
1242
1824
Lettre de Si Ibrahim Kharfadji à l'Administrateur de Mazouna au sujet Ould Mostafa ben Koundougli et de Benddouma Ben Daoudji

ملحق رقم : 5



ملحق رقم : 6


الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

Arrêté du Bey Hadj Mostefa de l'Ouest Algérien daté de 1215 août 1798 confirmation des fonctions de Muphti au savant Si Mohammed Ben El Mahdi.

ملحق رقم : 7

Mostafa Bey de [illegible] Regne [illegible] 1122
de l'hégire soit 1710.

132

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

[illegible] الجسيم الناصر [illegible] والخلفاء والورى

[illegible] المر والكرم والعلم [illegible]

للعلم من يعرف عنه بعد ان [illegible] الفوائد والعمال والخلاص [illegible] ما زرته [illegible]

اسره الف شانه وفرده من الفهم من نواحي [illegible] يتبع اهل

المنضبين باحوال بالناحية [illegible] العقول وجمع [illegible] العلماء من

اهل [illegible] الجميع وجمع [illegible] العلامة الحكم

بعد ما [illegible] الوجيه المحترم [illegible] وجعلناه اماما

السيد [illegible] السيد احمد بن [illegible] محمد [illegible] من [illegible]

[illegible] بعقد [illegible] لجامع سيدي عيسى [illegible] عزوز [illegible]

انوارهم ومعرفة اسرارهم بعد ما [illegible] الخطوات [illegible]

المسجد ولهذا [illegible] الجامع [illegible]

على سبيل عادة [illegible] وحصين [illegible]

[illegible] البناء [illegible] عبد الله [illegible]

[illegible] الباقي [illegible] واحترامه [illegible]

به العادة [illegible] السابقة المعتادة مع [illegible]

واكرامه وحجة [illegible] جانبه [illegible]

خراجه [illegible] عليه [illegible]

شاملا [illegible] عليه [illegible]

[illegible] عام 1122

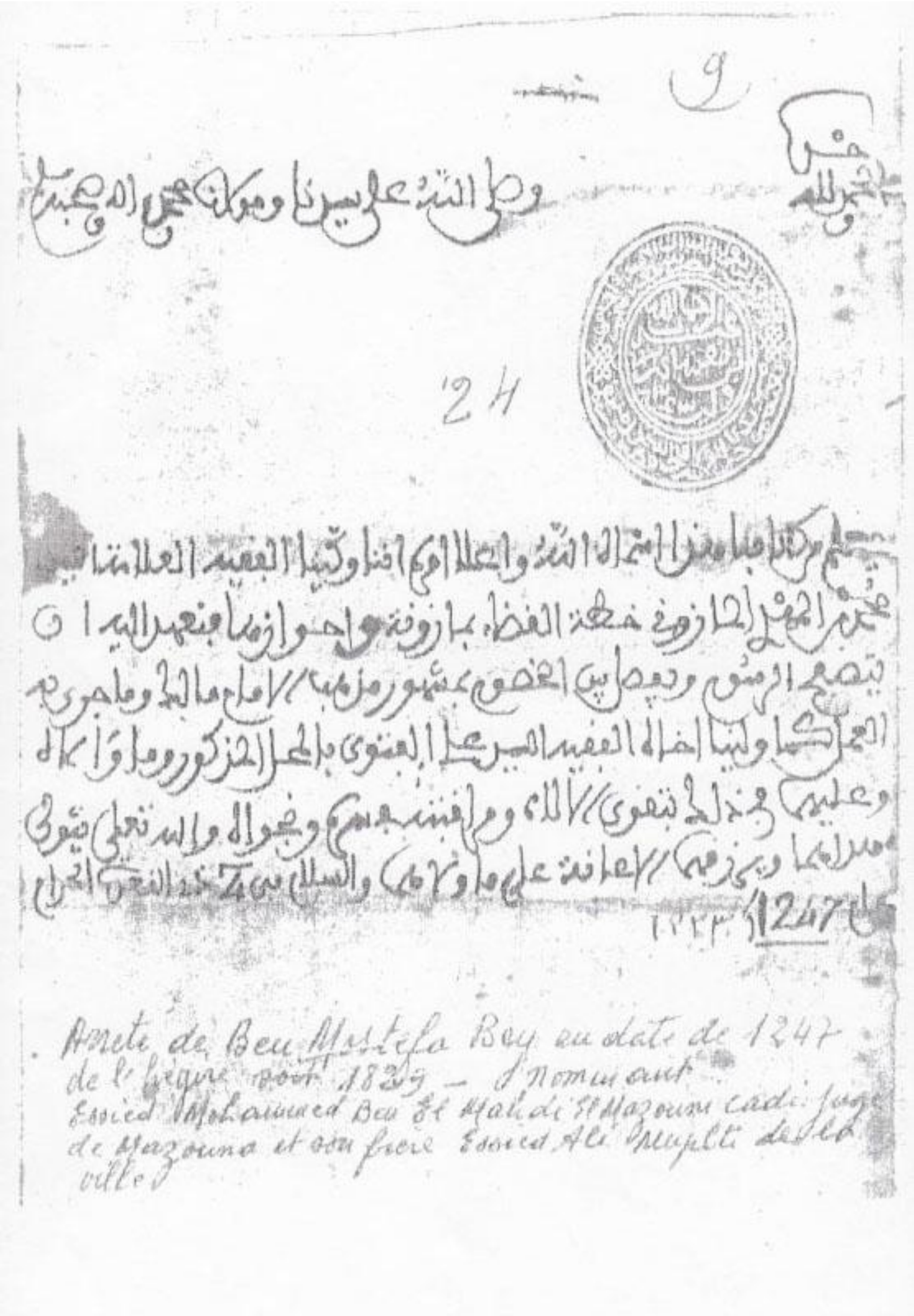
باجي الولاية الغربية [illegible]

Essied Mohammed Seghir Ben Sid Ahmed ben
Khadda Ben Sid Ali El Hassani El Ketroussi
Imam Mosquee Sidi Aissa - Azzouz - Mazouna

ملحق رقم : 8


الحمد لله
Acte de Ali Pacha en l'an 1121 de l'hegire soit 1703
Essied El Mahdi Imam Mosquée Mazouna

ملحق رقم : 9


9

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

24

1247

Arrete de Beu Mostefa Bey en date de 1247 de l'hégire soit 1829 – ? nommant Essied Mohammed Ben El Mahdi El Mazouni cadi juge de Mazouna et son frere Essied Ali mufti de la ville

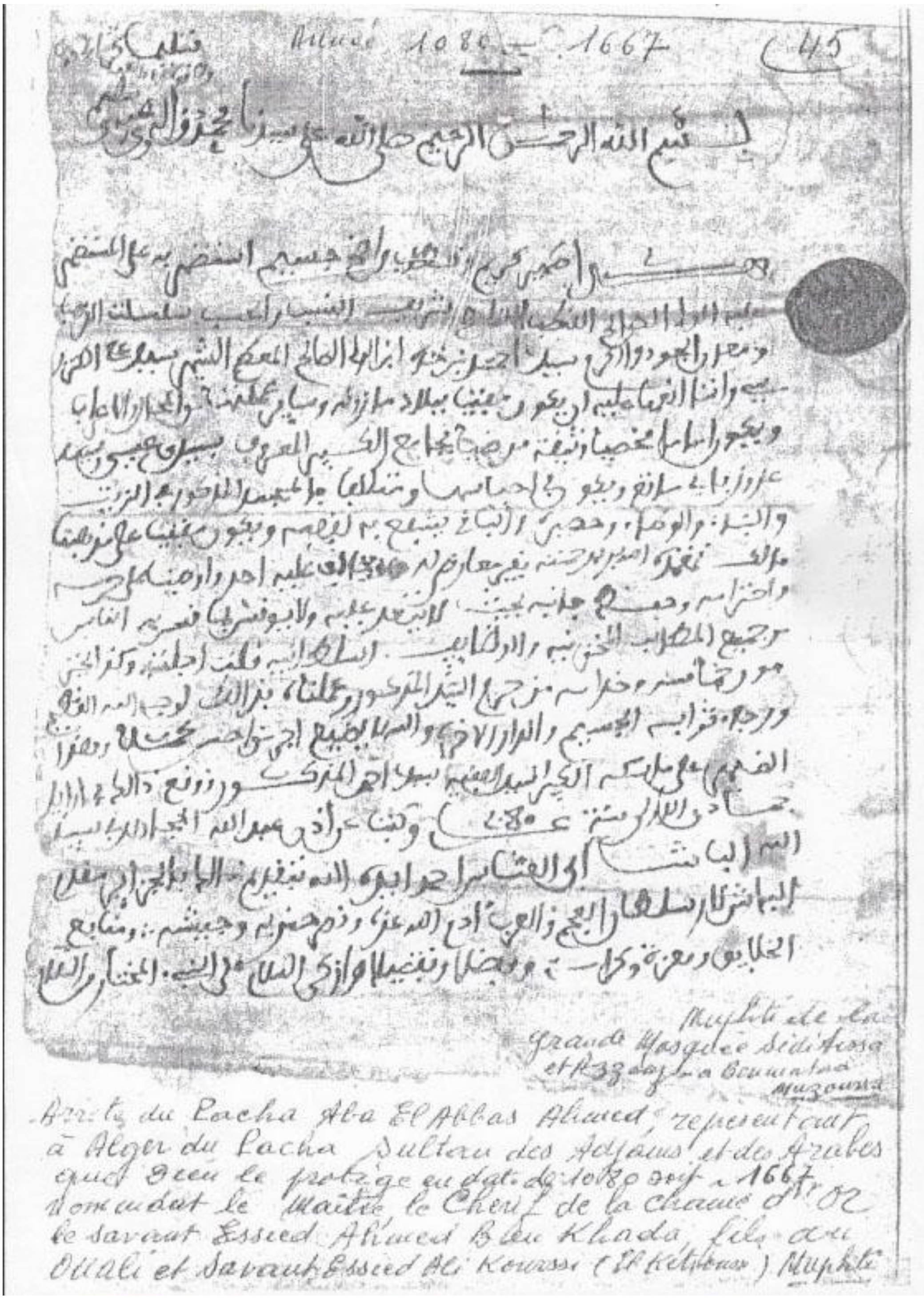
ملحق رقم : 10



الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

ليعلم الواقف على هذا الأمر الكريم والخطاب
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
على أننا أنعمنا عليه [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
المخزنية والوظائف السلطانية [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

ملحق رقم :11



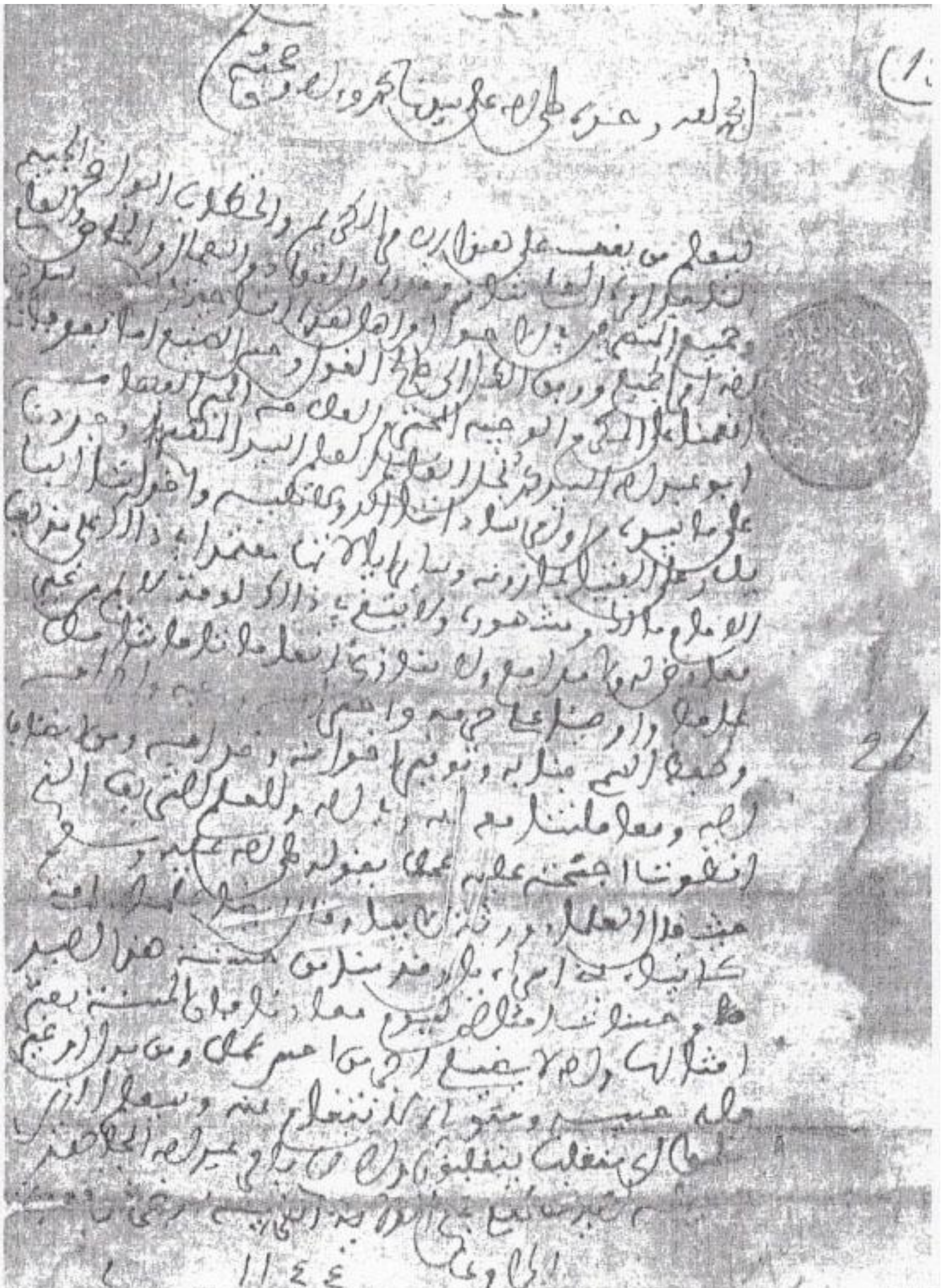
Année 1080 - 1667   45

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

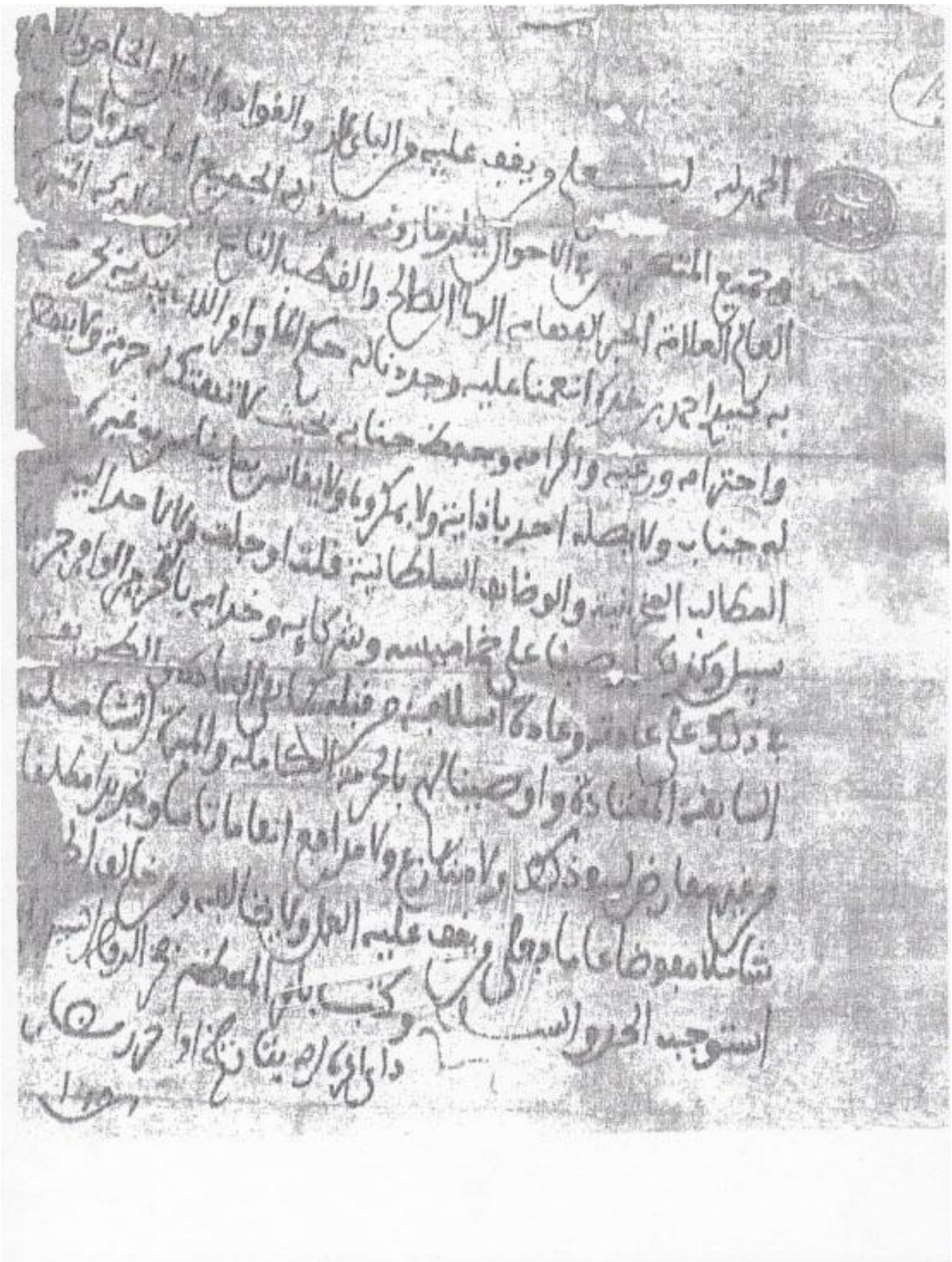
Mufti de la Grande Mosquée Sidi Aissa et Azzouz à Boumatna Mazouna

Arrêté du Pacha Abu El Abbas Ahmed, représentant à Alger du Pacha Sultan des Adjams et des Arabes que Dieu le protège en date de 1080 soit 1667 nommant le Maître le Chérif de la chaîne d'Or le savant Essied Ahmed Ben Khada, fils de Ouali et savant Essied Ali Kouassi (El Kettoni) Mufti

ملحق رقم : 12

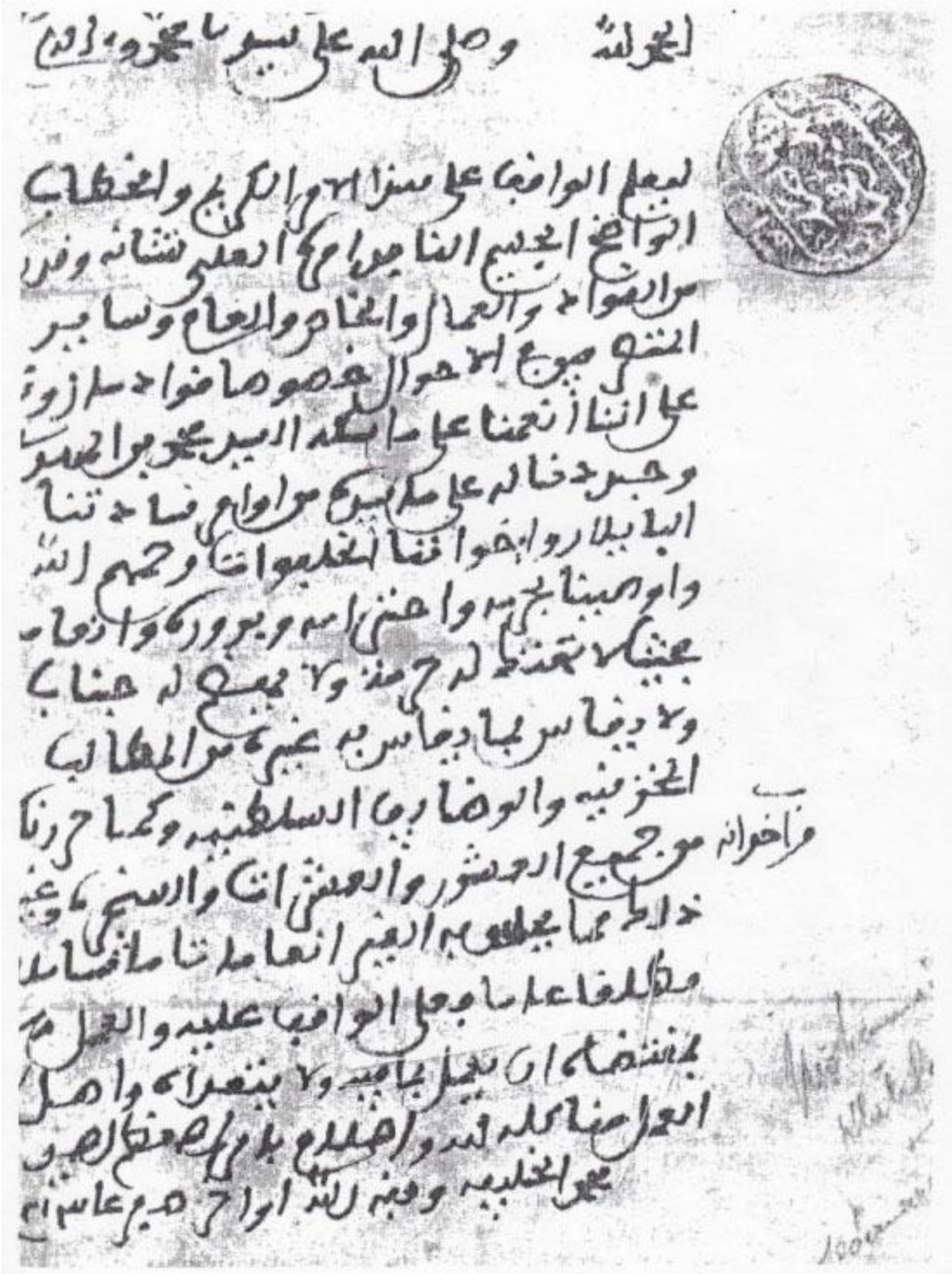


ملحق رقم : 13



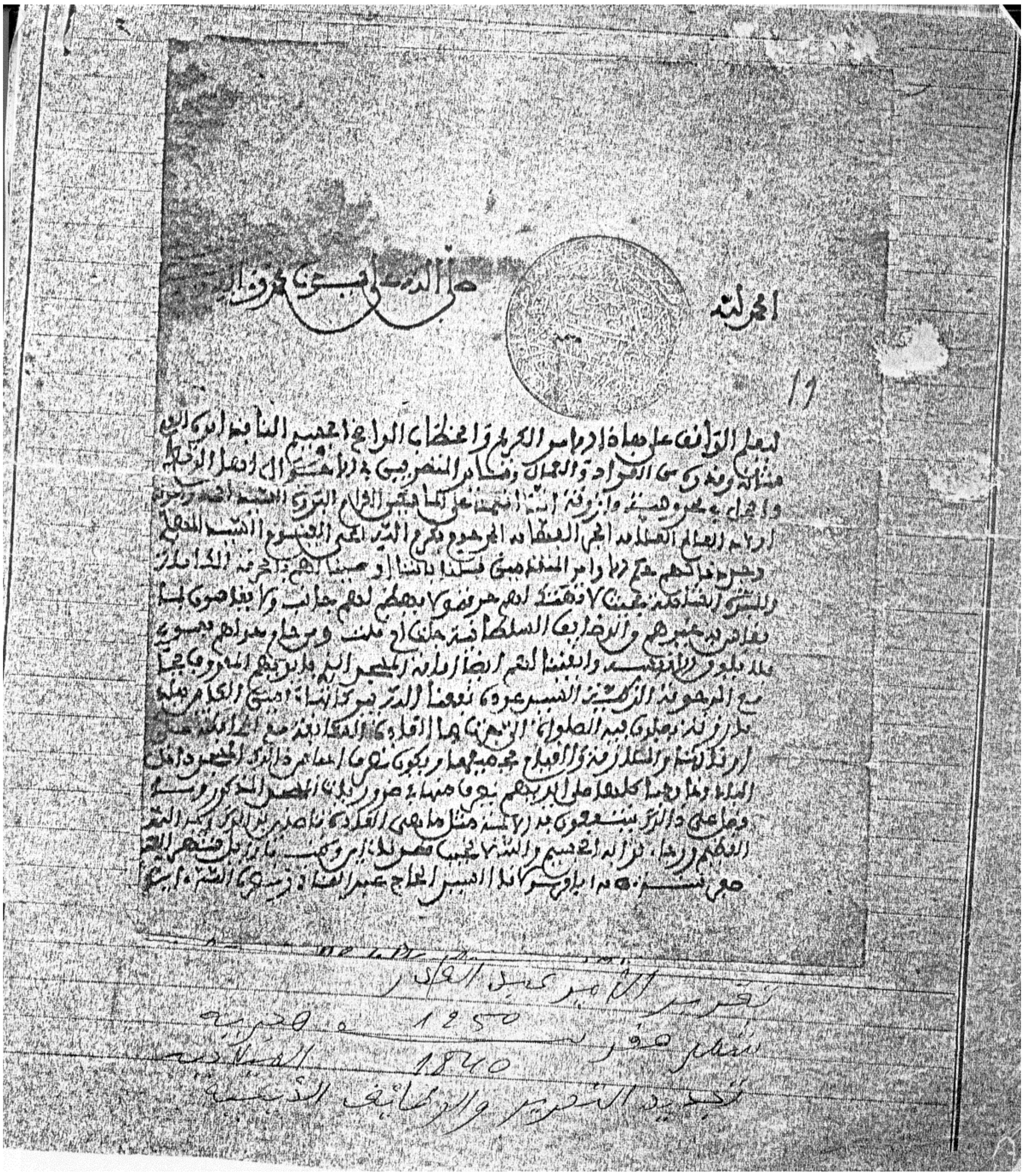
الحمد لله ليعلم من يقف عليه من البايات والقواد والعمال الخاص والعام
وجميع المتصرفين في الأحوال [illegible] من الجميع أما بعد
العالم العلامة [illegible] الطالح والقطب النافع [illegible]
به سيدنا أحمد بن [illegible] أنعمنا عليه وجددنا له حكم [illegible] وأمرنا [illegible] له حرمة ولا يهتك
واحترامه ورعيه والإكرام وجعلنا جنابه [illegible]
له جناب ولا يصله أحد بأذية ولا بمكروه ولا بانقاص [illegible] ولا أحد إليه
المطالب المخزنية والوظائف السلطانية قلت أو جلت ولا [illegible] بالحريم [illegible]
سبيل وكذلك [illegible] على خدامه وشركائه وخدامه [illegible]
في ذلك على عادته وعادة أسلافه [illegible]
السابقة المعتادة وأوصينا بالحرمة الكاملة والمبرة [illegible]
ومن يعارض في ذلك ولا منازع ولا مراجع إنعاما [illegible]
شاملا معوضا [illegible] ويقف عليه العامل ولا [illegible]
استوجب [illegible] وكتب بأمر المعظم [illegible]
[illegible]

ملحق رقم :14

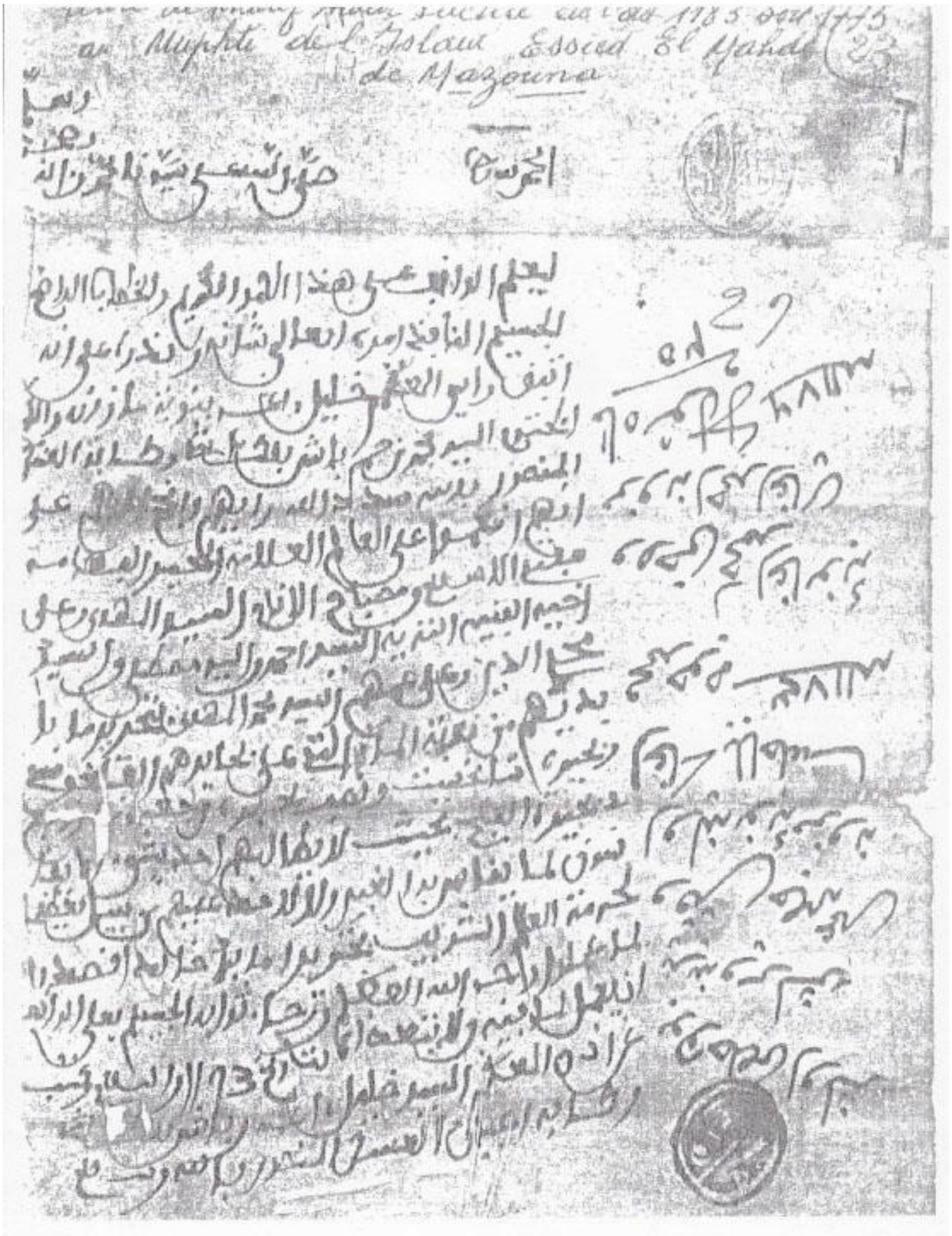


الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله

ملحق رقم : 15


الحمد لله
تقرير الأمير عبد القادر
1250 هجرية
1840 الميلادية

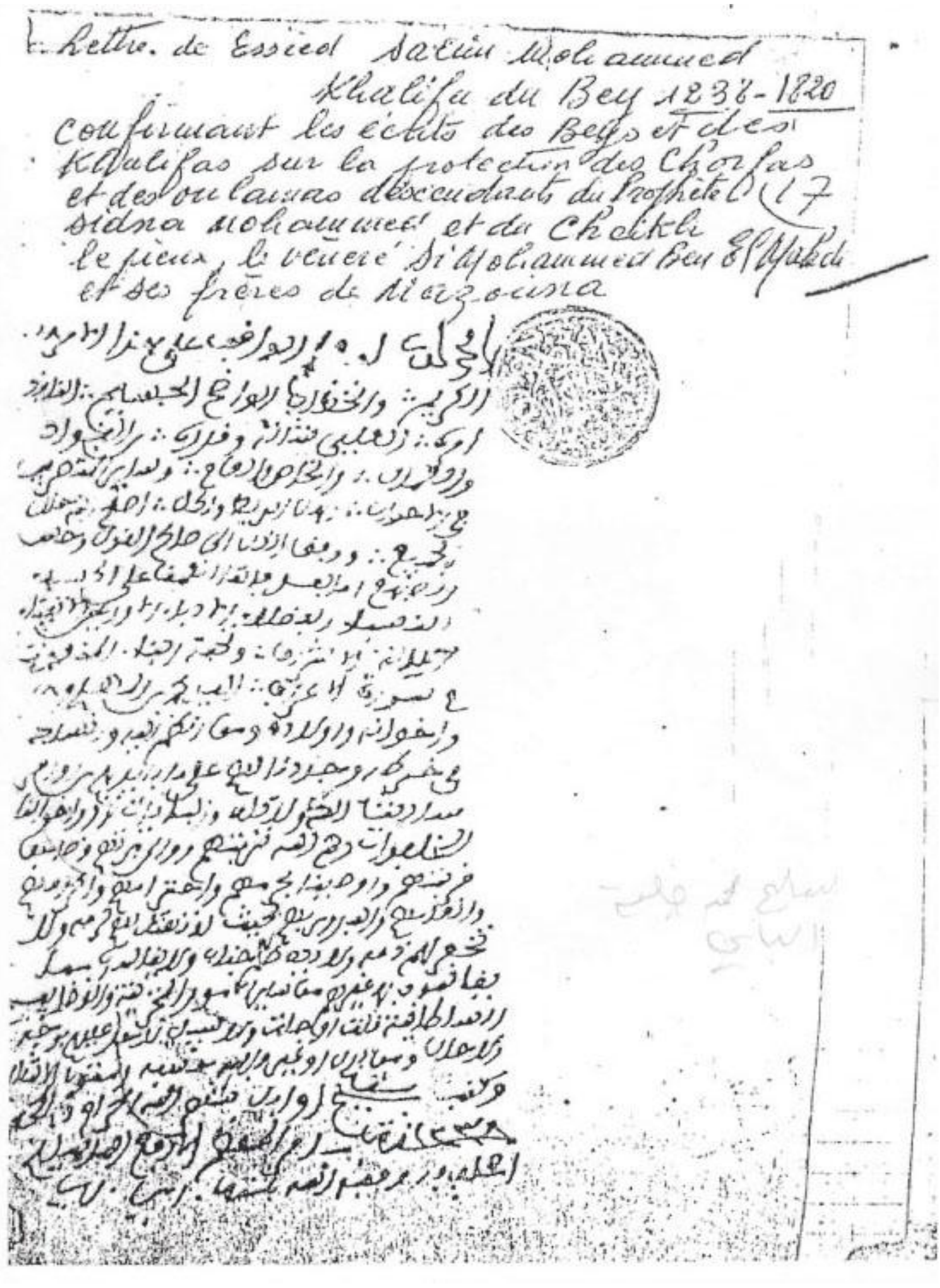
ملحق رقم: 16



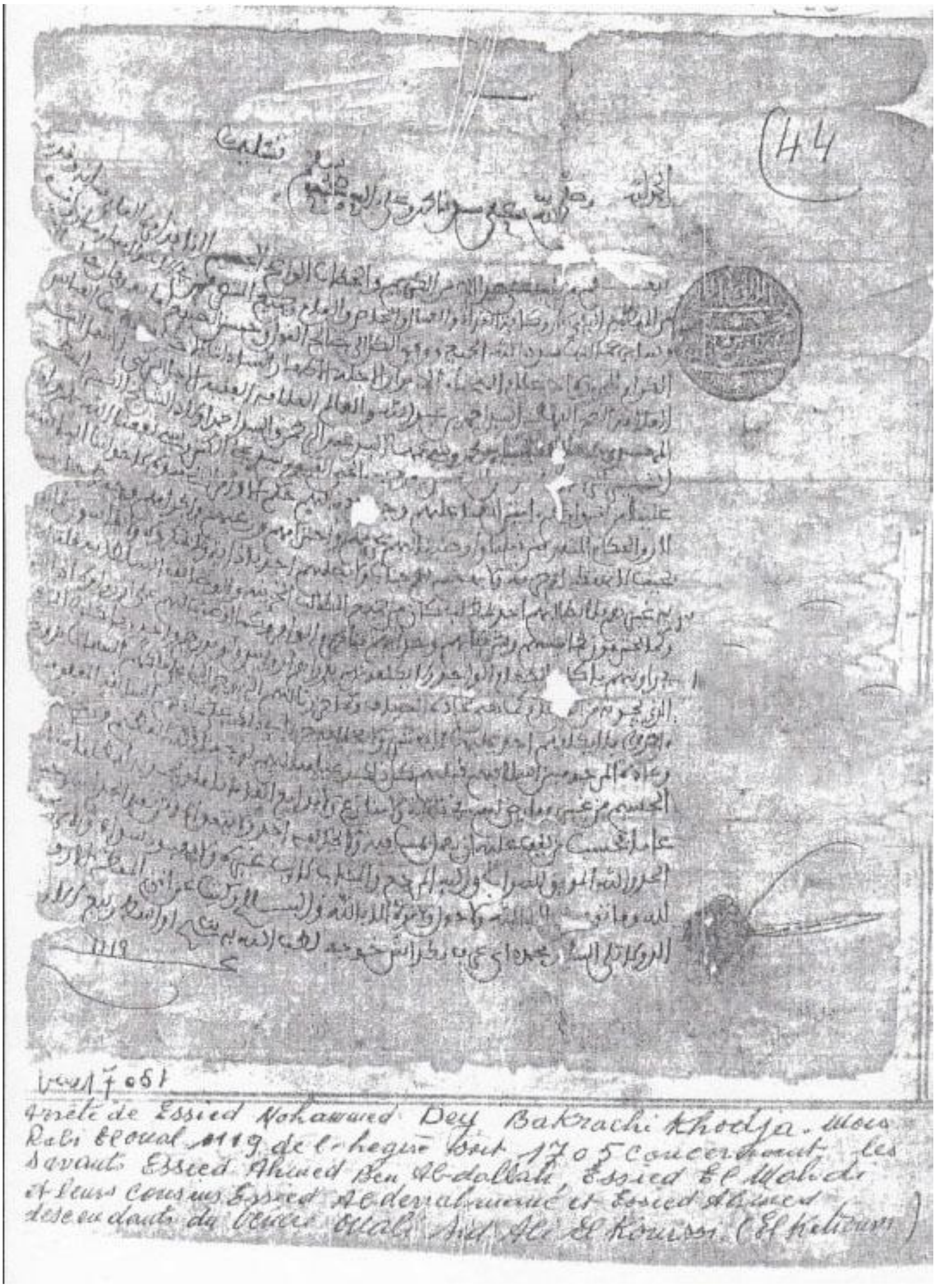
au Muphti de l'Islam Essied El Mahdi de Mazouna

ليعلم الواقف على هذا الظهير الكريم والخطاب الواضح

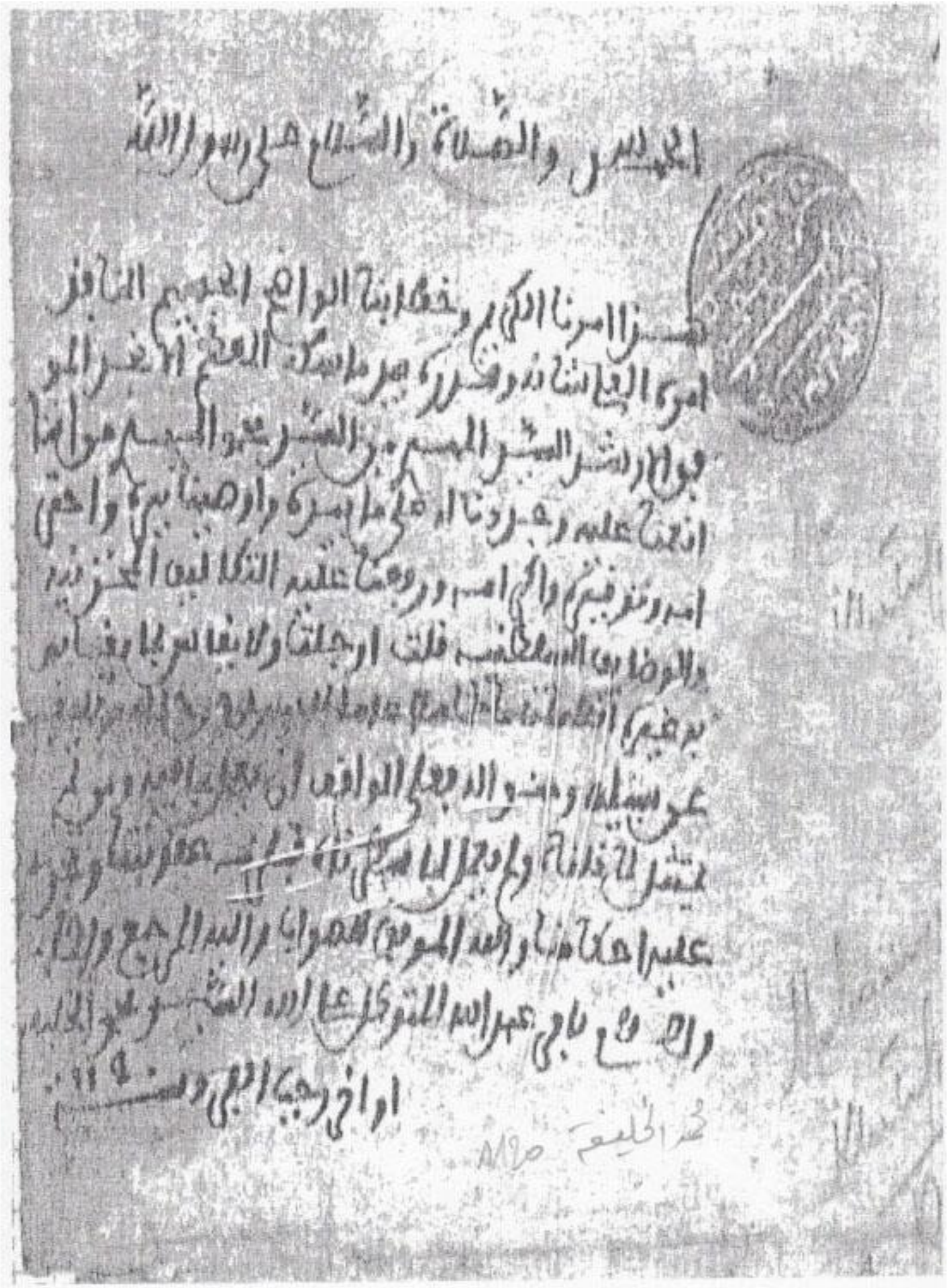
ملحق رقم: 17


Lettre de Essied Salem Mohammed
Khalifa du Bey 1236-1820
confirmant les écrits des Beys et des
Khalifas sur la protection des Chorfas
et des oulamas descendants du Prophète (17
Sidna Mohammed et du Cheikh
le pieux, le vénéré Si Mohammed Ben El Mahdi
et ses frères de Mazouna

ملحق رقم: 18

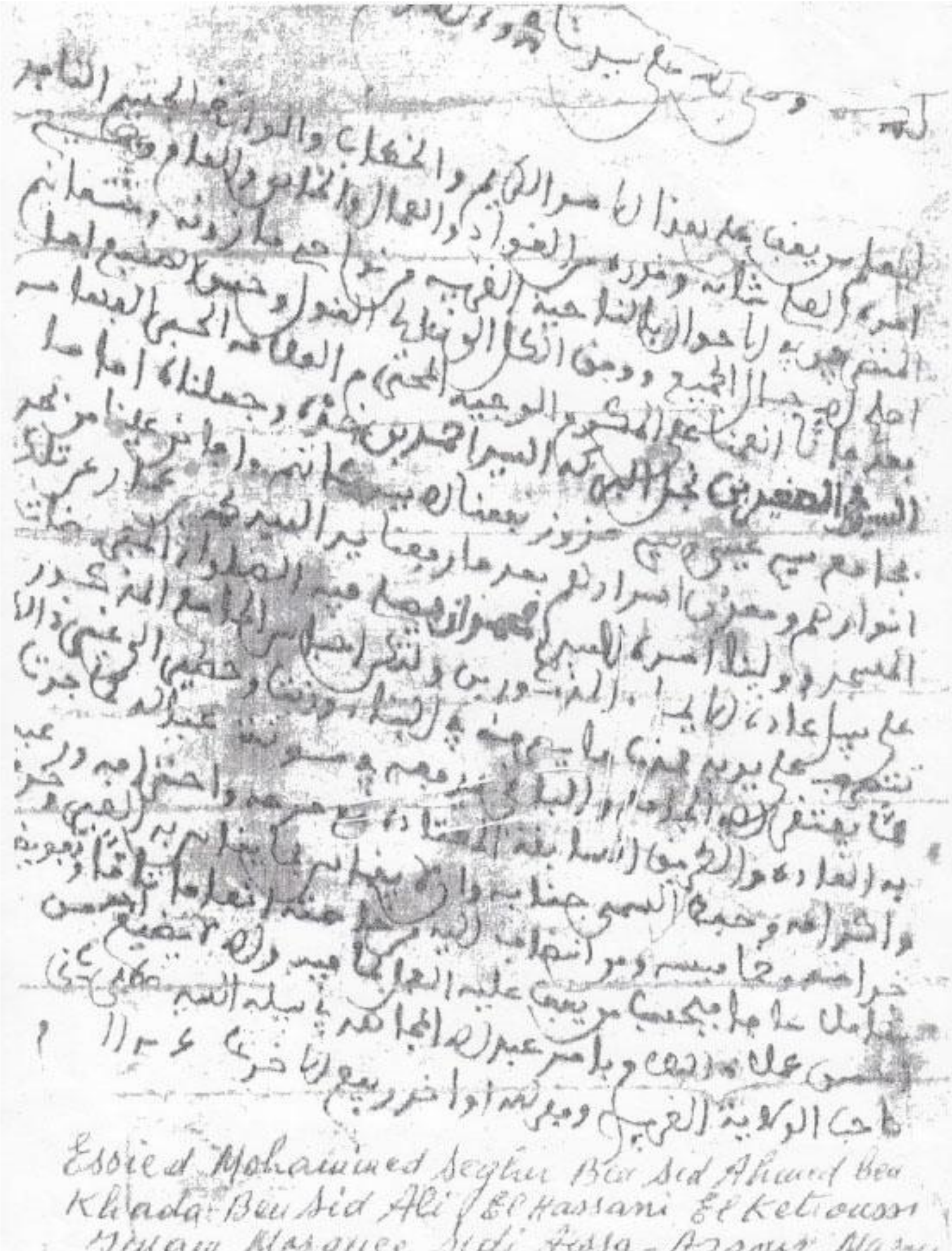

Arrêté de Essied Mohammed Dey Bakrachi Khodja. Mois Rabi Elouel 1119 de l'hegire soit 1705 concernant les savants Essied Ahmed Ben Abdallah, Essied El Mahdi et leurs cousins Essied Abderrahmane et Essied Ahmed descendants du Vénéré Ouali Sidi Ali El Kouissi (El Kalitoun)

ملحق رقم: 19

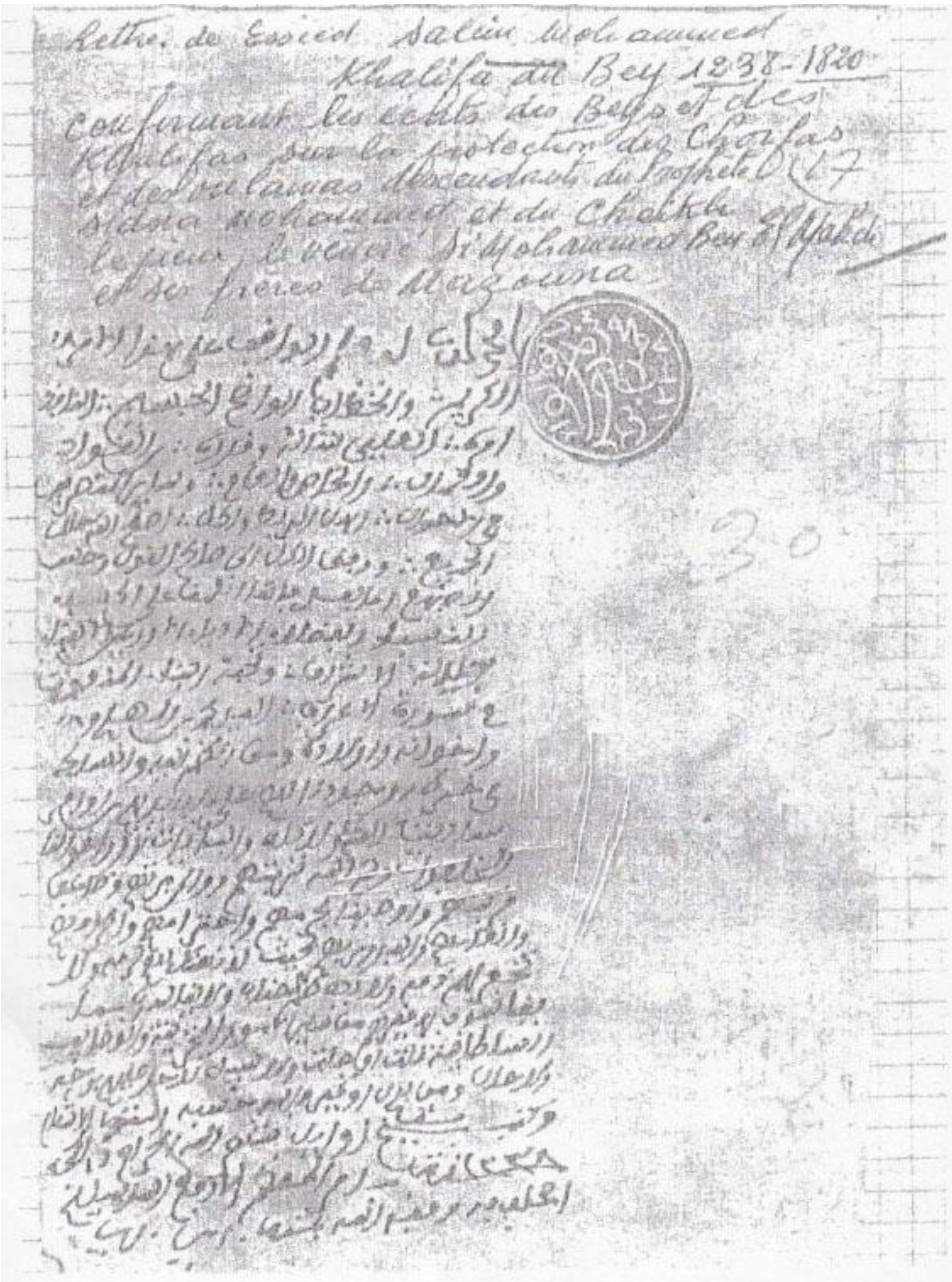


الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

ملحق رقم: 20


Essied Mohammed Seghir Ben Sid Ahmed ben
Khada Ben Sid Ali El Hassani El Ketiouari
Mosquée Sidi Aissa - Azzouz - Mazu.

ملحق رقم :21


Lettre de Essied Salim Mohammed
Khalifa du Bey 1238-1820
confirmant les écrits des Beys et des
Khalifas sur la protection des Chorfas
et des oulamas descendants du Prophète
Sidna Mohammed et du Chaikh
le pieux le vénéré Si Mohammed Ben El Mahdi
et ses frères de Mazouna

ملحق رقم: 22

نسخة من الكتاب عايشة

الحاج الشيخ ابو عبد الله الحطروانى المازونى

Lettre au savant

Chams Eddine Abou Abdellah Ben Mohammed (38

Ben Mahd Ben Mohammed Ben Mohili Ben Ahmed

Ben Ali El Hassani

El Mazouni

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد ولا نبي بعده

الشيخ النبوه بالتحقيق وابوانه واوانه المتحلى باخلاق العلم بدرس واعلانه علم العلم الذي فوضه الاعلام امامه ولعله الفضل الذي اتخذته الايمة امامها محيي رسوم الشريعة بحسن سيرته ومرسي قواعد العترة بالكافة بسياسته حاوي الفضائل مضمار التحقيق وجامع الفضل المؤيد بجنود التوفيق شمس الدين ابو عبد الله [illegible] ... المازوني السلام والرحمة والبركة تعمك في كل سكون وحركة

[illegible]

اذا ما الناي كتاب امسى ... وثنى بالجواب له ذا اهتمام

وقد جاء في اثر ثلاث ... جواب الكتاب كرد السلام

[illegible]

يا اماما كان له المكارم تجلى وبفضل الالاه طار اعتزازه

[illegible]

ملحق رقم: 23



Lettre du Bey Otmane – 1212 de l'hégire soit 1795

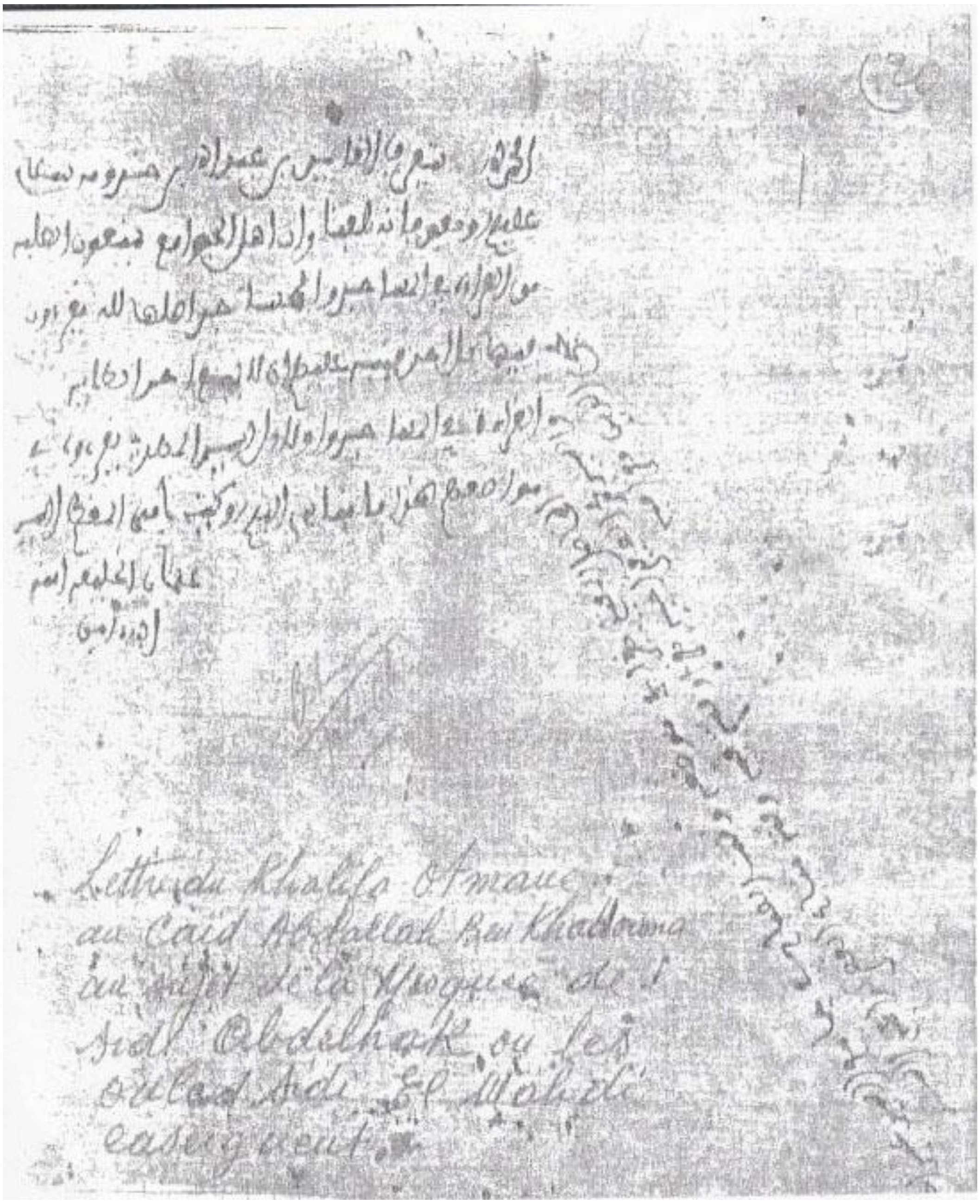
Le savant Si Mohammed ben El Mahdi Mufti de Mazouna

الحمد لله   صلى الله على سيدنا محمد النبي وصحبه وسلم

يعلم الواقف على هذا الأمر الكريم والخطاب الواضح
الجسيم أنا هذا [illegible] العلي [illegible] من العزة
والكمال والخدام والعمال وسائر المتعلقين بجميع الأحوال
أصلحهم الله [illegible] الجميع ووفق الكل [illegible] صالح الأقوال [illegible]
خصوصا أهل الوطن [illegible] أما بعد فإننا [illegible]
[illegible] وجعلناه مفتيا وخطيبا [illegible]
مسجد [illegible] الصلوات الخمس [illegible]
والطريق [illegible] بين المسلمين [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] في جميع الأمور
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

1213

ملحق رقم: 24



Lettre du Khalifa Otmane
au Caid Abdallah Ben Khaddouma
au sujet de la Mosquée de S
Sidi Abdelhak où les
Oulad Sidi El Mahdi
enseignent.

ملحق رقم: 25



Année 1080 – 1667

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

Mufti de la grande Mosquée Sidi Aissa et ... Mazouna

Arrêté du Pacha Abu El Abbas Ahmed, représentant à Alger du Pacha Sultan des Adjams et des Arabes ... en date de 1080 soit 1667 ... le Maître le Cherif de la chaîne ... Khada, fils du le savant Essaid Ahmed ...

ملحق رقم: 26



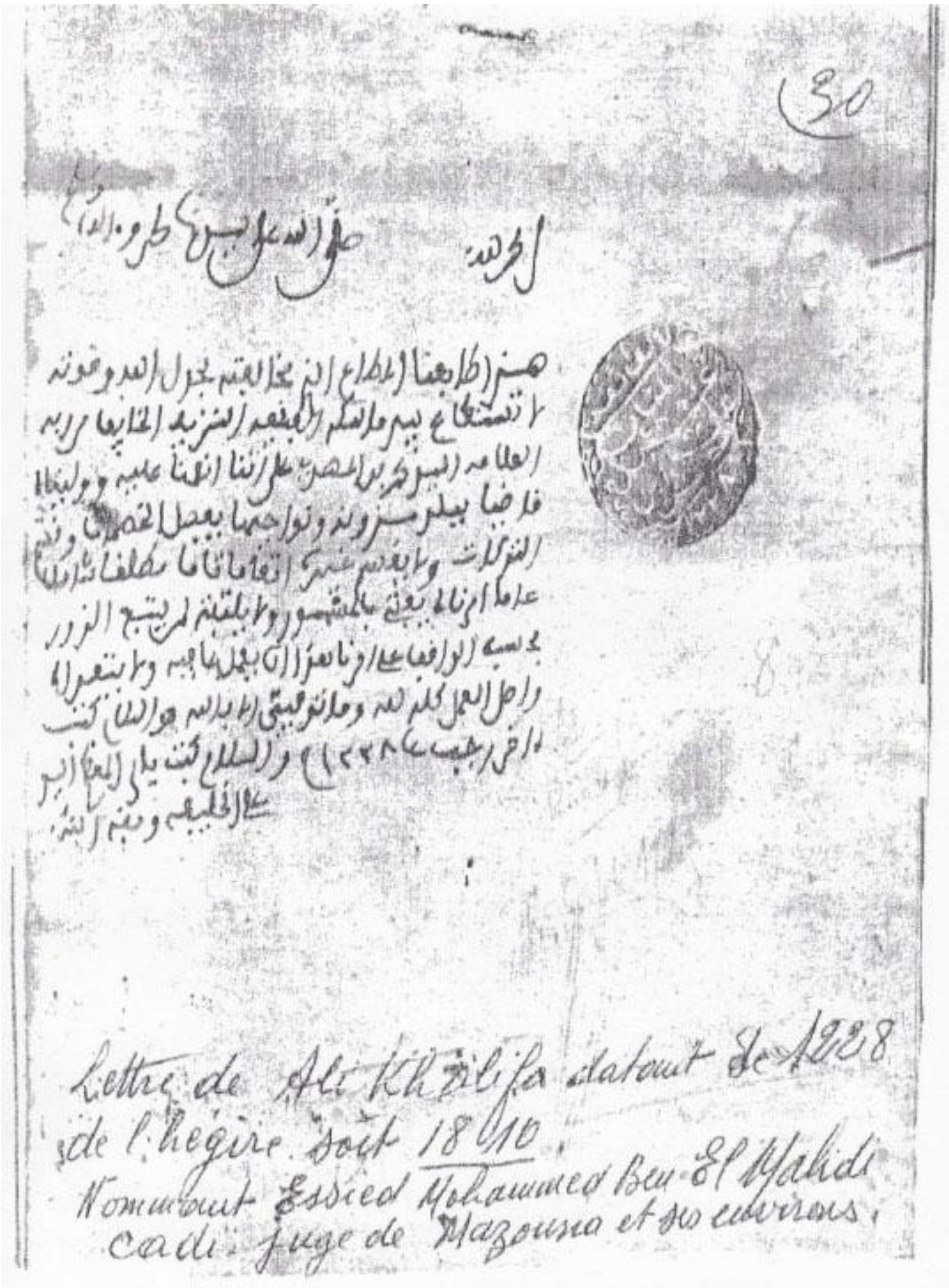
ملحق رقم: 27


Lettre de Khalif Aïvaz Pacha en l'an 1183 soit 1775 au Mufti de l'Islam Essied El Mahdi de Mazouna 23

الحمد لله

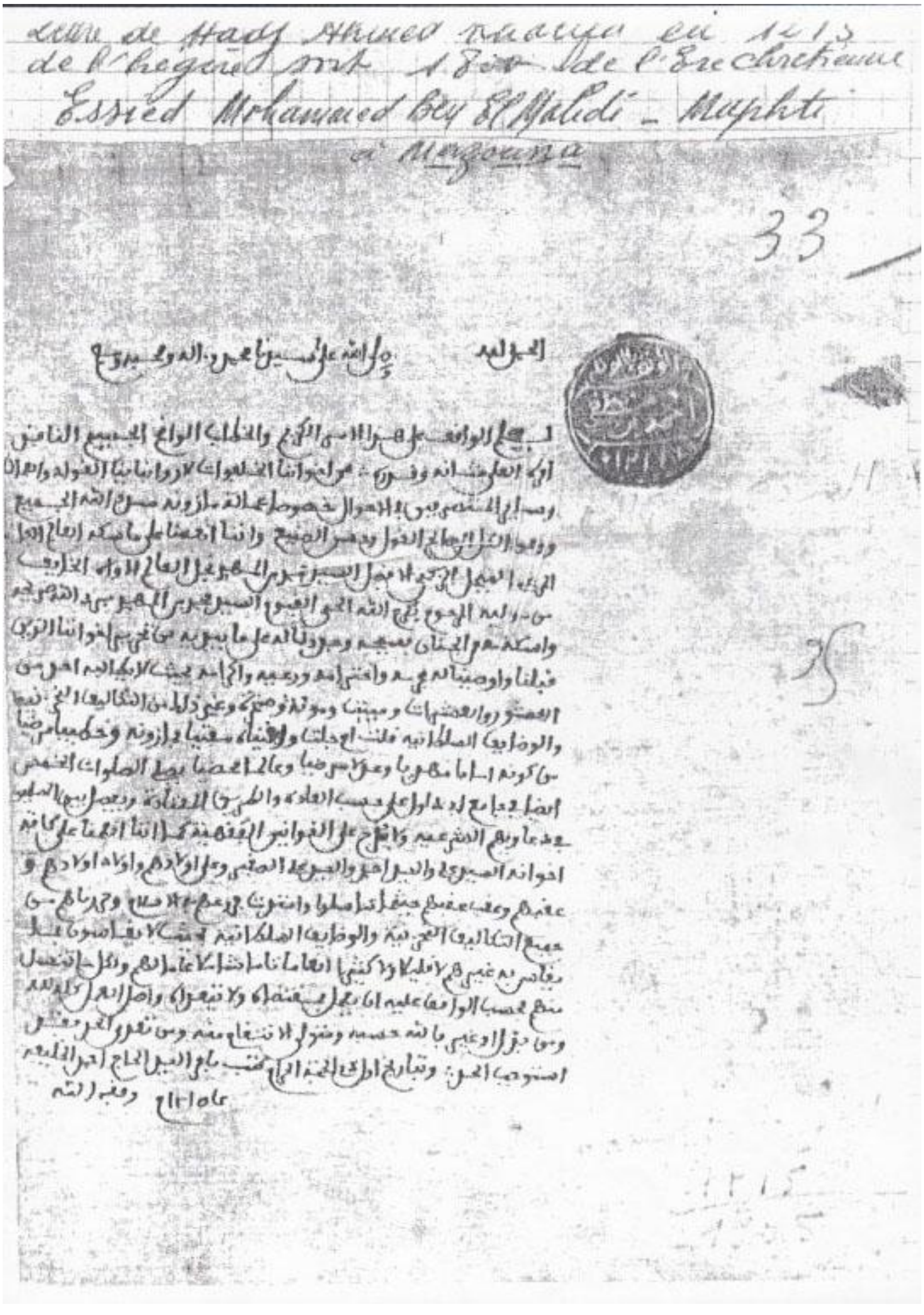
ليعلم الواقف على هذا الامر الكريم والخطاب الواضح

ملحق رقم: 28


الحمد لله

Lettre de Ali Khalifa datant de 1228 de l'hegire soit 1810.
Nommant Essied Mohammed Ben-El Mahdi cadi juge de Mazouna et ses environs.

ملحق رقم: 29


Lettre de Hadj Ahmed Khalifa en 1215
de l'hegire soit 1800 de l'Ere chrétienne
Essied Mohammed Bey El Khalidi – Mophti
à Mazouna

33

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

عام 1215

ملحق رقم: 30

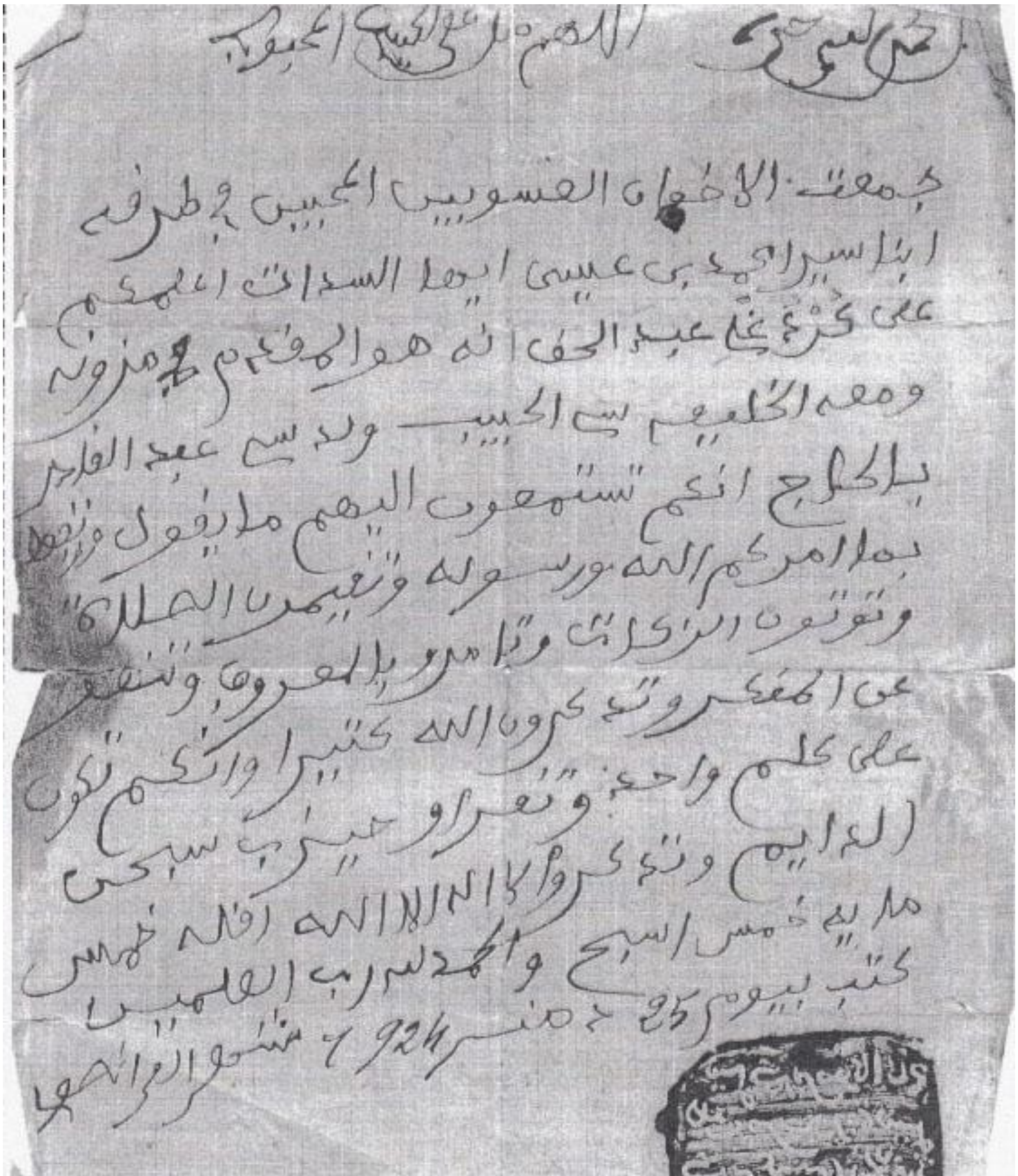
بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

حضرة شيخنا العلامة الدراكة
سلالة أهل العلم والتقى والبركة
سيدي محمد بن راشد أدام الله بمنه
كمالكم وعنكم بعلمه وسلام مبارك
عليكم وعلى أهل محبتكم بلغه سيدي
وصلني كتابكم الكريم وتلقيناه بالترحيب
والتسليم وحمدنا الله على سلامتكم وعافيتكم
وما ذكرت فيه من شراء الغطيس على
الحيران المصبوغة بالقرمز كما قلت لا توجد
هنا الآن فيمتنها غالية وأما المصبوغة
بغيره صبغا جيدا مع اتقان الصنعة فقد
توجد هكذا فلعله في أهل البلد
المذكورين بعد لك والسلام

وكاتبه عبد ربه الفقير موسى
بن محمد بن شهيدة المفتي بمسجد
... التيارت

30 ذي القعدة
1303
1883

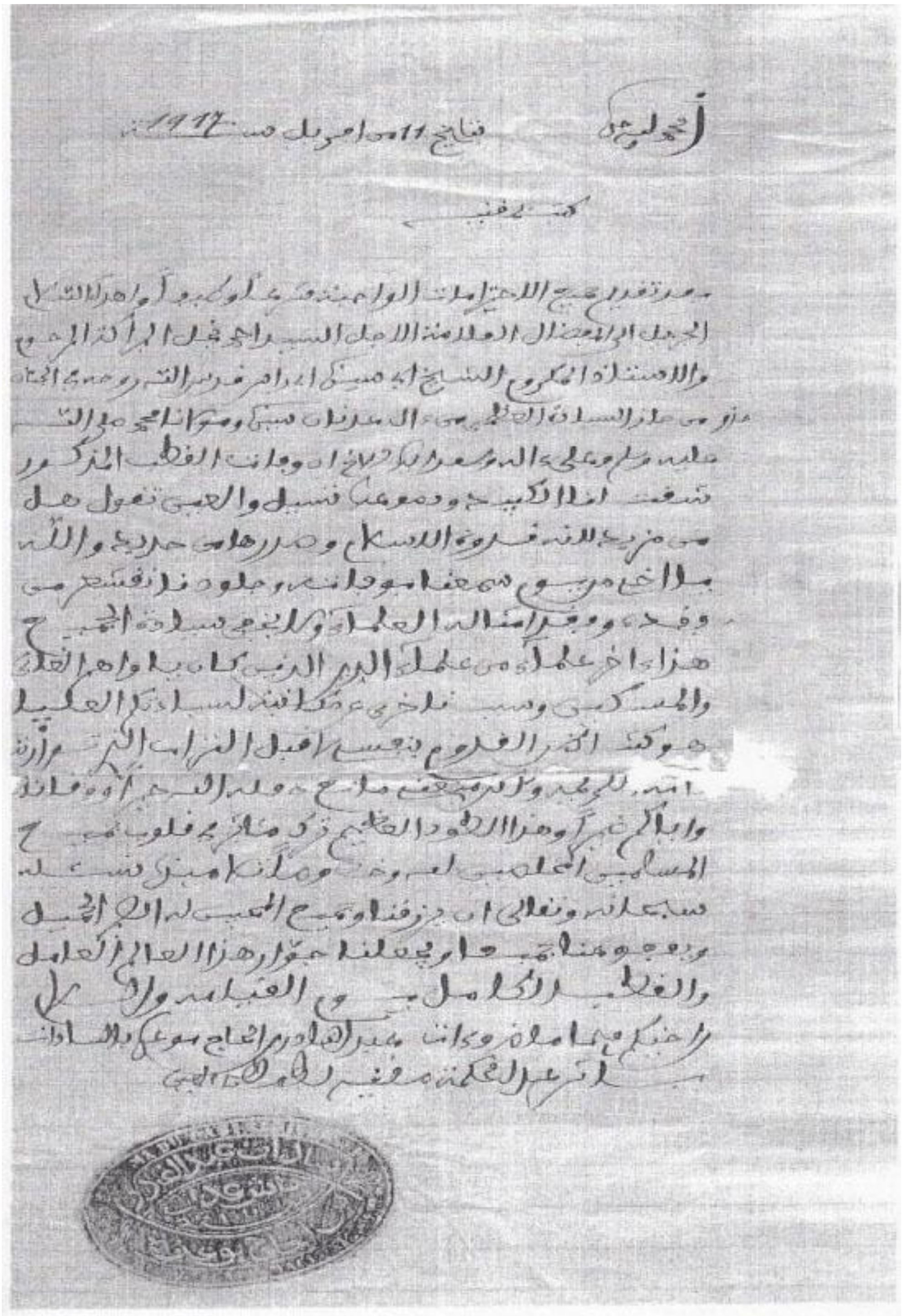
ملحق رقم: 31



الحمد لله وحده   اللهم صل على الحبيب المحبوب

جماعة الاخوان القسوسيين المحبين في طرفه
ابنا سيدي محمد بن عيسى ايها السادات السلام عليكم
على خير غنا عبد الحق انه هو المقدم في مزونة
ومعه الخليفة سي الحبيب ولد سي عبد القادر
بالحاج انكم تستمعون اليهم ما يقول وتزيدوا
بما امركم الله ورسوله وتقيمون الصلاة
وتؤتون الزكاة وتامرو بالمعروف وتنهو
عن المنكر وتذكرون الله كثيرا وانكم تكون
على كلم واحد وتقراو حزب سبحن
العظيم وتذكروا لا اله الا الله اقله خمس
مايه خمس السبح والحمد لله رب العالمين
كتب بيوم 25 في صفر 1924 مقدم الزاوية

ملحق رقم: 32

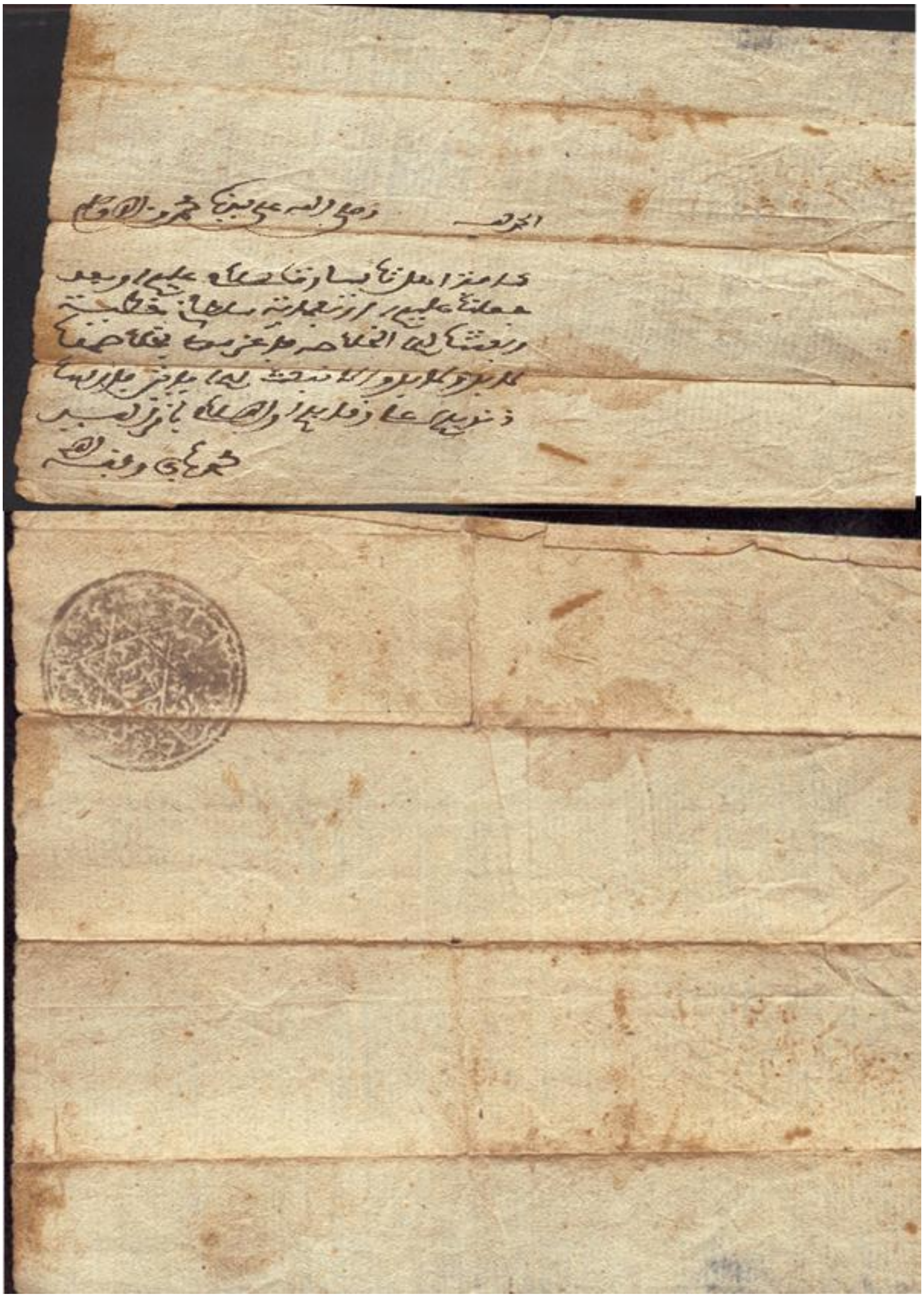


الحمد لله في تاريخ 11 [illegible] ابريل سنة 1917

[illegible]

بعد تقديم جميع الاحترامات الواجبة [illegible]
الجليل [illegible] الفضائل العلامة الاجل السيد [illegible]
والاستاذ المكرم الشيخ [illegible]
[illegible] السادات [illegible] ومولانا محمد صلى الله
عليه وسلم [illegible] وبوفاة القطب المذكور
[illegible] الكبير [illegible] والعين [illegible]
من [illegible] الاسلام [illegible] والله
[illegible]
[illegible] العلماء [illegible]
هذا آخر علماء من علماء البر [illegible]
والمساكين [illegible]
وكذلك [illegible]
[illegible]
[illegible]
المسلمين المخلصين [illegible]
سبحانه وتعالى ان يرزقنا وجميع المحبين له الصبر الجميل
[illegible] يجعلنا [illegible] هذا العالم العامل
والقطب الكامل [illegible]
[illegible]
[illegible]

ملحق رقم: 33



الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

البيبليوغرافيا

المصادر المخطوطة

1. ابراهيم بن زكريا الأندلسي ، كتاب العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالعاصمة تحت رقم : 1511 و 1512

2. أبو راس الناصري ، عجائب الأسفار ، مخطوط غير مرقم بمخبر مخطوطات شمال إفريقيا بجامعة وهران ، ورقة : 79.

3. ذكر ذلك الشيخ السنوسي في مخطوطه : " البدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة " ، مخطوط المكتبة الوطنية ، نسخة مصورة عند الأستاذ بليل .

4. شرح أرجوزة الحلفاوي

5. مجموعة ظهائر ووثائق مخطوطة تحص عائلة الكتروسي بمكتبة جمعية الظهرة بمازونة

المصادر بالعربية

6. ابن أبي زيد القيرواني ، متن الرسالة ، مكتبة رحاب ، الجزائر 1987 م
7. ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ،1417هـ.
8. ابن حوقل ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1992م.
9. ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1973 م
10. ابن مريم أبو عبد الله محمد ابن أحمد الشريف المليتي المديوني التلمساني ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1986م.
11. أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1990.
12. أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، جمهرة اللغة ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، ط 1 ، بيروت ، 1987م
13. أبو عبد الله محمد البلخي الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ،تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط 2 ، دار الكتاب العربي ،.
14. أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري ، الرحلة المغربية ، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي ، إصدارات وزارة الدولة المكلفة بشؤون الثقافة والتعليم الأصلي ، الرباط ، 1968

15. أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، إشراف وتقديم : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، ط 1 ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 1989م .

16. أحمد بن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ،تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي ، مطبعة البعث ، الجزائر ، 1973م .

17. أحمد بن هطال ، رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري ، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ، عالم الكتب ، بيروت ، بدون ت .

18. الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ط 1 ، عالم الكتب ، بيروت ، ، 1409 هـ.

19. الآغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود، تحقيق يحيى بوعزيز ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 م

20. جلال الدين السيوطي ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 1 ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ، 1387 هـ - 1967 م.

21. الحسن بن محمد الوزان الفاسي ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1983

22. حمدان خوجة ، المرآة ، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري ، ط 2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982 .

23. حمدان خوجة ، المرآة ، تقديم وتعريب وتحقيق : محمد العربي الزبيري ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2005م.

24. الحِميرى ، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس، ط 2 ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت، 1980 م.

25. الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تحقيق : د مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال.

26. شمس الدين السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

27. شهاب الدين أبو العباس الناصري الدرعي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصري ، محمد الناصري ، دار الكتاب، الدار البيضاء ، بدون ،

28. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان ، ط 2 ، سنة : 1982م.

29. عبد الرحمن ابن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، تحقيق : خليل شحادة ، ط 2 ، دار الفكر، بيروت ، 1408 هـ - 1988 م ،

30. عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، تحقيق وتنسيق وتعليق محمد بهجة البيطار ، ط 2 ، دار صادر ، بيروت ، 1413 هـ - 1993 م.

31. عبد الرزاق بن حمادوش ، رحلة بن حمادوش الجزائري ، تحقيق وتقديم د/ أبو القاسم سعد الله ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1983

32. عبد القادر المشرفي الجزائري ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون ت .

33. عبد القادر بن عيسى المستغانمي ، مستغانم وأحوازها عبر العصور ، المطبعة العلاوية بمستغانم ، ط 1 ، 1996 م.

34. محمد أبو راس الجزائري ، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته (حياة أبي راس الذاتية والعلمية) ، حققه وضبطه محمد بن عبد الكريم الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990م .

35. محمد الصالح العنتري ، سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطبنة ، منشور تحت عنوان مجاعات قسنطينة من قبل رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1473م

36. محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تقديم و تحقيق د/ محمد بن عبد الكريم ، ط 2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981 .

37. محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تقديم وتعليق : المهدي البوعبدلي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1978م

38. مرتضى الزَّبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، بلا ، بدون،.

39. مسلم بن عبد القادر ، أنيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بو نار ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974 م

40. وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ، تصحيح ونشر هنري بيريس ، دار الكتب، الجزائر ، 1957 م .

41. وليام شالر ، مذكرا ت وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816 _ 1824 تعريب وتعليق إسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982 .

42. الونشريسي ، المعيار ، ط 1 ، دار الخليل العلمية . الجزائر 2012م

43. يحيى بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 .

المراجع بالعربية

44. إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، دار الدعوة ، القاهرة ، بدون ت .

45. أبو العيد دودو ، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855م ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1989.

46. أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1981

47. أحمد السليماني ، تاريخ مدينة الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، بدون ت.

48. أحمد بحري ، الجزائر في عهد الدايات ، ط: 1 ، دار الكفاية ، 2013م

49. أندري برنيان وآخرون ، الجزائر بين الماضي والحاضر ، ترجمة رابح اسطنبولي ومنصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984

50. الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ، 1991م .

51. حمدادو بن عمر وبوعمامة العربي ، الشيخ سيدي عدة بن غلام الله وآثاره في الفكر والتصوق ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر

52. شارل روبير آجيرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ترجمة عيسى عصفور ، ط : 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982م.

53. صالح عباد ، الجزائر خلال الحكم التركي 1514م — 1830 هـ ، ط 3 ، دار هومة ، الجزائر ، 2011م

54.طاهر جنان ، مازونة عاصمة الظهرة ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري ، دار الرشاد ، سيدي بلعباس ، 2005م .

55.عادل نويهض ، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830 – 1960م) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995م ،

56.عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، ط 2 ، مؤسسة نويهض الثقافية ، بيروت ، 1980م

57.عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني ، حياته وآثاره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1989م.

58.عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994

59.محفوظ قداش ، جزائر الجزائريين (تاريخ الجزائر 1830 / 1954م) ، المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار ، الجزائر ، 2008م ،

60.محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي ، معجم لغة الفقهاء ، دار النفائس ، ط : 2 ، 1408 هـ – 1988م

61.مختار بن الطاهر فيلالي ، رحلة الورتلاني ، عرض و دراسة ، (باتنة : دار الشهاب ، بدون ت) .

62. مولاي بلحميسي ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1979.

63.ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبدلي ، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م

64. ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792 – 1830 م ، ط : 2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 م .

65. ناصر الدين سعيدوني ، دراسات في الملكية العقارية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986

66. ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م .

67. وليام اسبنسر ، الجزائر في عهد رياس البحر ، تعليق وتعريب د . عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 م

68. يحيى بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ، دار الغرب ، وهران ، 2002.

الرسائل الجامعية

69. أرزقي شويتام ، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519 – 1830م ، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث ، جامعة الجزائر ، 2005 – 2006م.

70. بالبراوات بن عتو ، المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني ، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث ، جامعة وهران ، 2007 م – 2008 م

71. بركات اسماعيل ، الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، دراسة وتحقيق ، رسالة ماجستير ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2009 – 2010م

72. بوشنافي محمد ، الجيش الإنكشاري خلال العهد العثماني في الجزائر (1700 – 1830 م) ، رسالة لنيل شهادة الماجستير ، جامعة وهران ، 2001 – 2002 م.

73. بوكفة يوسف ، مدرسة مازونة الفقهية النهضة والسقوط ، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية ، قسم علم الاجتماع ، جامعة ووهران ، السنة الجامعية : (2002 - 2003 م).

74. بونقاب مختار ، تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر ، رسالة ماجستير ، جامعة وهران ، 2001 م – 2002م.

75. حسان كشرود ، رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثمانية من 1659م إلى 1830م ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2007 – 2008م .

76.زهراء النظام ، العلاقات المغربية الجزائرية مقاربة سياسية ثقافية خمل القرن 10-16م ، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ ، جامعة محمد الخامس أكدال، الرباط ، 2003

77.عائشة غطاس ، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700م / 1830م مقاربة اجتماعية واقتصادية ، أطروحة دكتوراه دولة ، جامعة الجزائر ، 2000م – 2001م.

المقالات بالعربية

78. جمال قنان ، " أوضاع الجزائر عشية الغزو الفرنسي " ، مجلة الذاكرة ، عدد: 6 ، نوفمبر ، 2000 م.

79. سعيدوني ناصر الدين: "الأحوال الصحية و الوضع الديموغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني" ، الثقافة ، عدد 92 (الجزائر: جمادى2 ،رجب 1406/ مارس ، أفريل 1986).

80. عائشة غطاس ، " الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني " الثقافة، يوليو ، اغسطس 1983.

81. عبد المجيد مزيان ، الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل عهد الاستعمار ، مجلة الثقافة ، عدد : 90 ، نوفمبر/ ديسمبر 1985م.

82. العيد مسعود ، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني ، مجلة سيرتا ، ماي ، 1980 م.

83. محمد الأمين بالغيث ، مدرسة مازونة الفقهية في القرن الرابع عشر الميلادي ، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية ، تصدر عن مخبر بحث الشريعة جامعة الجزائر ، العدد 1 ، الجزائر ، 2004 م .

84. محمد بوركبة ، جوانب من مخطوط قلعة بني راشد للشيخ أبي عمران القلعي، (المجلة الجزائرية للمخطوطات)، العدد 1 ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر ، سيدي بلعباس ، 2003م.

85. المهدي البوعبدلي ، " عبد الكريم بن الفقون القسنطيني (988 – 1073)، والتعريف بتأليفه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية " ، الأصالة ، عدد 51 ، ذو القعدة 1397هـ / نوفمبر 1977م

86. ناصر الدين سعيدوني ، " الإنسان الأوراسي وبيئته " ، الأصالة ، أوت – سبتمبر 1978م .

87. ناصر الدين سعيدوني ، " دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالجزائر" ، الأصالة ، ربيع 2 ، 1396 هـ / أبريل 1976م

88. ناصر الدين سعيدوني ، شبكة المواصلات بالجزائر أثناء العهد العثماني ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، زغوان ، سبتمبر 2000 ، عدد 21 .

المصادر باللغات الأجنبية

89. A . Boudia La formation sociale algérienne précoloniale (Alger : o . p . u , 1981)
90. A Gorguos , Histoire d'un bey de mascara et de l'oranie, editions G.A.L Alger , 2006
91. Ber brugger , « Les Aribs» , in Revue africainne , T 08 (Alger : ed Bastide , 1864)
92. Bultin de la Societe de Geographie de France ,6 eme serie , Bibliotheque des Societes Savantes , Paris , 1871.
93. Damaeght , Notes sur le Dahra occidentale , B.S.G.O ,1882
94. E , Fagnan , Extrait Enedits relatifs au Maghreb (Geogphie et Histoire) , Maison Bastide _ Jourdin , Alger ,1924.
95. Emirit m , l'Algerie a l'epoque d'Abdelkader , Larousse , Paris , 1951.
96. Ernest Mercier , Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus recules jusqu'à la conquête française (1830) , ed ,Ernest Leroux , Paris
97. G Bourdon , Etude geographique sur le Dahra , in B.S.G. 6eme serie , Librairie de ch. Delagrave et cie , Paris, 1872
98. Gabriel Esquer , reconaissance des villes , forts et batteries d'Alger, (Paris : librairie Honoré Champion, 1927.
99. H.A de Grammont ، Histoire d'Alger sou la domination turque (1515 – 1830) (Paris : imp Baudin et Cie , 1887).
100. Henri Fournel,Etudes sur la conquete de l'Afrique par les Arabes et recherches sur les tribues Berberes qui ont

occupees le maghreb centrale, imprimerie imperiale, Paris , 1857

101. Jean Leon L'Africain , Discription de l'Afrique , trd par A.Epaulard , (Paris : librairie d'amerique et d'orient , 1981

102. L M Reuss , Atravers L'Algerie , Librairie Generale de la Vulgarisation , Paris , 1884 ,

103. Louis de Baudicourt ، La Guerre et le gouvernement de l'Algerie , Sagnier et Bray edition , Paris , 1853

104. Louis Piesse , Itineraire de l'Algerie et de la Tunisie et de Tanger , Laibrairie Hachette et c ie , Paris , 1882.

105. Louis Rinn , in B.S.G.A.NA , 8eme serie 1903

106. M . Jh . P . L . Berard , Les deux villes de Tenes et Bou Maza , Challamel Aine Librairie , Paris , 1864

107. M.Walsin. Esterhazy, De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger , (Paris : librairie de Charles Gosseline, 1840.

108. Malki Nordine , Razzia , Butin et Esclavage dans l'Oranie du 16 eme siecle d'apres le manuscrit de Diego Suarez , ed: Dar el Gharb , Oran , 2003.

109. Moulay Belhamissi , Mazouna une petite ville une longue histoire , sned : Alger , 1981

110. Mouloud Gaid , L'Algerie sous la domination turque , (Tunis , Maison tunisienne de l'edition , 1975)

111. P. Boyer , " Le probleme kouloughli sous la regence d'Alger " ، article paru in la revue d'occident musulman ، n special ، 1970

112. Revue Africaine , (Alger : OPU , 1924)

113. Shaw Thomas , Voyage dans La Regence d'Alger , ou Description Geographique , Physique , Philologique , etc de cet Etat , trad de l'anglais par , J . Mac Carthy , ed : Marlin , Paris , 1830

114. Y. Lacoste , A. Nouschi , et A. Prenant , L'Algérie passe et présent (Paris : éditions Sociales، 1960).
115. Y. Loukil , Mazouna ancienne capitale du Dahra Alger : imprimerie algérienne , 1912

فهرس الموضوعات